رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الأوابد

تأليف

الدكتور عبد الوهاب عزام

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الأوابد

تأليف

الدكتور عبد الوهاب عزام

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد - القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عزام ، عبد الوهاب ، 1894-1959
الاوابد/ تاليف : عبد الوهاب عزام
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2010
314ص ، 24 سم
تدمك : 978-977-341-486-3
1-الادب العربى - مجموعات ا- العنوان

ديوى: 810,8

رقم الايداع: 13207

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة

الله نستعين، ومنه نستمد نور العقل، وصواب الفكر، وطهارة القلب، ونسأله الهدى إلى العلم، والتسديد إلى الحق، والتوفيق للخير.

أما بعد فهذه «أوابد» من الكلم المنثور، بينها قليل من المنظوم، نشر بعضها قبلا في كتاب «الأوابد»، وبعضها لم ينشر.

وكان ينبغي أن تقدم إلى القراء منذ سنين، حين نَفِدَت طبعة الأوابد الأولى، ولكن حالت الأسفار والشواغل، كما حالت دون إشرافي على الطبع، ففات الضبطُ كلمات وددت لو شُكّلت، فأعفى القارئ من عناء النظر فيها لضبطها.

وإني لشاكر لإخوانٍ حملوا عني تعب المراجعة، واحتملوا عناء التصحيح، وأخص الأخ الأديب الأستاذ مصطفى السقاء.

وقد حالت غيبتي كذلك دون سلك كلمات أخرى في الكتاب، لعلها توضع في الطبعة الآتية مع أمثال تُنشأ من بعد.

ولو استقبلت من طبع الكتاب ما استدبرت، لحذفت كلمات ثلاثًا، لا أجدها على شرط الأوابد: كلمة قصيرة ارتجلت على قبر الزهاوي شاعر العراق. وهي أقصر من أن تُسلك في الأوابد، والكلمة التي عنوانها «النشر في مصر»، والأخرى التي عنوانها «النهضة»، فهما على جودتهما، ليستا من جنس الأوابد في موضوعهما.

ومهما يكن فهذه كلمات صادقات، أردت بها الحقَّ والخير والصلاح، ولعل القراء يتلقونها بما تلقوا به الطبعة الأولى من قبول وإقبال.

والله نسأل الإخلاص في الفكر والقول والعمل، وحسبنا الله.

عبد الوهاب عزام

أول ذي الحجة ١٣٦٩ هـ

١٣ أيلول «سبتمبر» ١٩٥٠

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مناجاة

ربِّ! سبحت لك الخلائق في الأزل، ونطقت بذكرك منذ الخلق الأوَّل، ودارت الأفلاك بحمدك، وسطعت الكواكب بنورك، وسار القمران ثناء عليك، وتعاقب الملون تقديسًا لك، وهبت الرياح بنفحاتك، وتلألأ البرق من سُبُحاتك، وسار السحاب بقُدرتك، وهطل الغيث برحمتك، وتلاطمت البحار في جلالك، واطردت الأنهار من نوالك، والجبال راسيات بأمرك، مائلات لحكمك، والغابات رائعة بجمالك، مورقة بأفضالك، والرياض سطور نظامك الباهر، وإبداعك القادر، والطير ألسنة حمدك وشكرك، ونغمات مزاهرك، وأناشيد مآثرك.

أنت لهذا بيت المَطْلَعِ وأنتَ أنتَ فيه بيت المَقْطَعِ

والحيوان الأعجم مسيَّرٌ بإلهامك، شاكر لإنعامك، سائر بهديك، ناطق بذكرك، مسبِّح بحمدك. «تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده».

ربِّ! والإنسان صنعك الرائع، وبرهانك القاطع، روح الخليقة المشوق إليك، وبصرها الطامح نحوك، رأى نورك فسار، وبهره جلالك فحار، أنت قصده وإن ضلَّ، وطلبته حيثما حلَّ، يُبين عنك قاصد أو معتسفًا، وينطق باسمك صحيحًا أو محرفًا، وينشد شعرك موزونًا أو مضطربًا، ومعجمًا أو معربًا:

وألسنة الأكوان إن كنت واعيا شهود بتوحيدي بحالٍ فصيحة
وإن عبدوا غيرى وإن كان قصدهم سواي وإن لم يظهروا قصد نيتي[1]

---

(١)ابن الفارض.

عَبدةُ الأصنام عبدوك من وراء حجاب، وتوسلوا إليك بالأسباب، والساجدون للنار تهافتوا على ضيائك، وهُرعوا إلى سنائك، قدسوك في إحدى آياتك، وعظموا لك إحدى علاماتك، وعُبّاد الكواكب اهتدوا بالنجوم إليك، فسبحوا لها وإنما ثناؤهم عليك، أنتَ أنتَ القصدُ وإن جاروا، وأنت أنت المعبود وإن حاروا، وكهنة طيبة ومنف أشادوا بذكرك، وجهدوا أن يقدروك حق قدرك، وبابل في زيغها لم تكن إلا بابًا لك[١] ونينوى في ثنيتها كانت معبدك. أقاموا من أجلك التماثيل، ولاح لهم نورك من خلال الأباطيل، واليونان ألّهوا آثارك، وأكثروا أسماءك. وما أثينا وزوس وأبولون إلا رموز حكمتك وقدرتك، وعلمك وعظمتك. ألفاظ شتى لمعنى موحد، وصور شتى لجوهر فرد، كالماء نبت منه الحلو والمرُّ، والعقيم والمثمر، ودلَّ عليه النجم والشجر، والشوك والزهَر.

ربِّ! وهل رتَّل البراهمة إلا فرقانك، وطلبوا في الكهوف إلا عرفانك؟! وهل انفتحت عن بوذا زهرة الكنج إلا لذكرك[٢]، وهل هجر العالم إلا لوجهك؟ وهل أملى كونفشيوس إلا تعليمك؟ وهل أراد زرادشت إلا ذكرك؟ وهل ضمن كتاب الأبستاق[٣] إلا حمدك؟ يزدانُ وأهرِمن رمزا نورك وظلالك[٤]، وهدايتك وإضلالك.

* * *

(١) أصل بابل: باب إيل ومعناه باب الله.

(٢) يزعم البوذيون أن بوذا انفتحت عنه زهرة على نهر الكنج فمنها كان مولده.

(٣) كتاب آوستا «أبستاق»: كتاب زردشت نبي الفرس القدماء.

(٤) يزدان خالق الخير وأهر من خالق الشر، في دين الفرس القدماء.

ربِّ! وموسى إذ لاح له ضياؤك في الغَلَس، وخلع نعليه في الوادي المقدس، لمع له بصيص في الطور فاهتدى، ودعا الناس إلى الهدى. بنورك ضرب بحر الظلمات فانفلق، ثم بهره جلالك فصَعِق. وعيسى أمددته بروحك وبِرِّك، وأطلعته على ذرة من مكنون سرك. ومحمد خاتم أنبيائك، وصفى أصفيائك، آنسه ذكرك في الغار، فرأى في الظلمات النهار، فأملى دينك وفرقانك، وأوضح محجتك وبرهانك، وترك على الدهر أثرك الأغر، ودينك الأبرّ.

ربِّ! ومن وراء ذلك سرك المكنون، وحماك المصون.

أنقذنا من الحيرة بهديك، واهدنا إلى جنابك برحمتك. اللهم منك وإليك، أنت الأول والآخر، والظاهر والباطن...

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إلى الرسول الكريم
في عيد مولده

مضت عشر وأربعمائة وألف سنة منذ ظهر في الجزيرة العربية نجم الصباح بشيرًا بطلوع الشمس، منذ طلع الكوكب المبشِّر بالغيث في الأرض المجدبة، منذ ولدت الأرض منبع النهر الذي فاض على الناس بالخير والبركة ولا يزال فياضًا، منذ سطرت في سجلِّ الأيام بسملة سيرة عظيمة، منذ كتبت على صفحات الزمان فاتحة كتاب دفَّتاه المشرق المغرب، وصفحاته تاريخ البشر في أروع وقائعه، منذ خطَّ الله القدير على أرض الجزيرة عنوان أعظم فصل في تاريخ البشر، منذ ولدت الخليقة قانونًا من قوانينها في صورة طفل، منذ استهل هذا الطفل الفقير في دار من دور قريش بمكة، منذ ولدت آمنة بنت وهب محمد بن عبد الله.

لم تُضرب البشائر لمولده، ولا سارت الأنباء، ولا تطايرت التهاني، ولا اجتمعت المحافل، ولكن الله سبحانه كان يعلم ماذا أخرج من غيبه، وماذا وضع على أرضه.

كان الله وحده يعلم أن قد ولد الرجل الذي أعدَّه ليُعلي التوحيد ويضع الوثنية، ويعز الحق ويذل الباطل، وينصر الخير ويخذل الشر، ويمحو العبودية ويُثْبِت الحريَّة، ويزلزل الجبارين، ويثبِّت الضعفاء والمساكين، ويبطل التمييز بين الناس، ويشيع المساواة بينهم، ويحقِّر الأحساب والأنساب، ويعظم العمل الصالح، ويحطِّم العصبيات، ويدعو إلى الأخوَّة العامة.

كان الله وحده يعلم أن قد ولد الرجل الذي يخرج الحق من الصوامع والمعابد إلى معارك الحياة، يقيم البر بألسنة الملوك وأيديهم بعد أن كان تعلَّة الفقراء

والمساكين، ويَقِف الملوك في صفوف الصلاة بعد أن كانوا في صفوف الآلهة، ويجعل الحياة جهادًا دائبًا للحق والخير، لا يضعف ولا يفتر، ويرى الناس كيف يجتمع الحق والقوَّة، ويلتئم الملك والنبوَّة.

يا رسول الله! أين نحن اليوم من شريعتك؟ وأين مقامنا من دعوتك؟ وأين سيرتنا من سنتك؟.

عَلَّمت المسلم أن يكون خليفة الله في أرضه، يقوم بالعدل بين خلقه، ويقسم الرزق بين عباده، ويهيمن على قانون الله بين الناس أجمعين، يقودهم إلى الحقِّ طوعًا أو كرهًا، ويسيِّرهم للخير اختيارًا أو اضطرارًا.

فأين هو اليوم من هذه الخلافة؟ وأين عقله من هذه السياسة؟ وأين نفسه من هذا السمو؟ وأين قلبه من هذا الطموح؟ وأين عزمه من هذه الهمة؟ وأين يده من هذا السلطان؟.

علَّمت المسلم أن يقوم بالقسط لله، ويجعل العدل بينه وبين الناس، لا يبغي ولا يحتمل البغي، ولا يظلم ولا يستكين للظلم، ولا يبخس الناس أشياءهم، ولا يبخس حق نفسه، ولا يأخذ ما ليس له، ولا يعطي ما ليس لغيره، وتلوت عليهم قول الله:

{يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون، يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله، ولو على أنفسكم، أو الوالدين والأقربين}.

تلك الدعوة الشاملة، والكلمة الجامعة، تلك سعادة الفرد والجماعة، وثبات

القانون والنظام، وقوام المعاملة العادلة والألفة العامة، تلك الدعوة إلى أن يسيطر الحق والعدل وأن يكون الإنسان لله وللناس أجمعين، لا لنفسه ومنفعته وهواه، وأن يعدل الإنسان في الرضا والغضب والمنشط والمكره، ومع القريب والبعيد، والعدوِّ والصديق، لأنَّه ينفذ قانون الله، وليس عند الله قريب ولا بعيد ولا صديق ولا عدو.

يا رسول الله! لو أن الأمم المتناحرة التي عَمَرت عقولها، وخَرِبت قلوبها، وقويت أيديها وضعفت سرائرها، وأضاءت ظواهرها وطفئت بواطنها، والتي حدَّت العدل بمنافعها، وسيَّرت الحق طوع رضاها وغضبها، وحبِّها وكرهها، ونفعها وضرِّها -لو أن هذه الأمم فقهت آيتك وعملت بها، فقام كل زعيمٍ بقسط الله في أرض الله بين عباد الله، يستوي في نصفته القريب والأجنبي، والقاصي والداني، ويسكن إلى صدقه ونصحه الناس كافة، لا يغشُّ ولا يخدع، ولا يَخْتِل ولا يزوِّر، ولا يعتدي ولا يظلم -لو أن كل زعيم أخذ بالعدل كلَّ فرد من أمته، وأخذ بالعدل نفسه، وجمع الأمَّة كلها على العدل، لعاشت الأمم مجاهدة في الحياة على شريعة من التناصف جامعة، وخُطة من العدل مؤلِّفة، ولتعاونوا على البرِّ بالإنسان وإسعاد الإنسان، لا على التدمير والتخريب، القتل والأسر، والغصب والنهب، والاحتكام إلى المهالك، والالتجاء إلى القوة، وويل للمغلوب!. ألا إن في العدل سعادةَ الفرد في نفسه، وسعادةَ الأمة في جماعتها، وسعادة الإنسانيَّة في أممها.

يا رسول الله! علمت المسلم أن يكون حرًّا لا يخيفه جبروت، ولا يأسره مطمع، ولا تملكه الأهواء ولا تعبده الشهوات، يسير في الأرض قانونًا لا يقهر، وسنة لا تتغير، يستمتع بما يمتِّعه به الحق، ثم الفتن والشهوات من بعدُ أهون من أن تغريه، وأحقر من أن تفتنه.

فما بال المسلمين تتنازعهم الأهواء فيتذبذبون، وتتجاذبهم الشهوات فيتهافتون؟

علَّمت المسلم أن يكون مالكًا قنوعًا، مسيطرًا مقتصدًا، قادرًا عفيفًا يملك الدنيا ولا تملكه، ويستعبدها ولا تستعبده، ويقدر عليها، ولا يهلك فيها.

فما بال هؤلاء المستكلبين تملكهم الأموال، فهم عبيدها، وتفتنهم المناصب، فهم صرعاها؟ قد ملك نفوسهم من الحرص والطمع، والنهم والجشع، ما لا تملؤه السموات والأرض، فذلوا من حيث أرادوا العزّ، وافتقروا من حيث حاولوا الغنى، وشقوا من حيث توهموا السعادة!

يا رسول الله! علمت المسلم أن يكون عزيزًا لا يذل، وأبيًّا لا يخنع، وموحدًا لا يشرك، يعبد الله وحده لا شريك له، والناسُ من بعدُ سواسية، ليس بعضهم أرباب بعض، فما بال هؤلاء الأذلاء الخانعين الذين يؤلِّهون كل قويٍّ ويخضعون لكل جبَّارٍ؟.

علمت المسلم أن يكون مجاهدًا لا يكلُّ، دائبًا لا يملُّ، يمضي في الحياة قدمًا كالنجم لا يقف دون الغاية، لا تصدُّه مشقة ولا يرده هول، ولا يقعد بهمَّته عبء، ولا يُوهِن عزيمته يأس، طمَّاحًا همامًا غلَّابًا مقدامًا.

فما بال المسلم يقعد ويحسب أنه يَعبد، ويكلّ ويظن أنه متوكِّل، وييأس ويتوهم أنه يقنع؛ حرَّفوا كلماتك، وجهلوا آياتك؟.

يا رسول الله!

علمت المسلم أن يكون على الخطوب جسورًا، وفى النوائب صبورًا، كأنَّه في معترك الحياة قدر لا يرتد، وقانون طبيعي لا يتخلف، على شفتيه بسمة الرجاء في ظلام المحن، وفي وجهة طمأنينة الثقة في عواصف الفتن، وفي قلبه الثقة بالله واليقين

بالظفر، تنكشف عنه الأحداث كما يقشَع السحاب عن النجم، وتنجلي الغمرة عن الدُّرة، وينحسر الغمد عن السيف، فما بال المسلم اليوم جزوعًا يائسًا، وخائرًا مُبْلِسًا؟.

يا رسول الله!

وقفت في حضرتك ساعة فلا معنى من العلاء والعظمة والحرية والحق والخير والبر والفضيلة إلا نزل على قلبي، ولا شية من الإسفاف والباطل والشرّ والرذيلة إلا طارت عن نفسي! وستبقى سيرتك نبراسًا يعشو إليه الخابط في الظلمات، وهديك منارًا يهتدي به الضال في الفلوات، وشرعك علمًا ينحاز إليه الأخيار، ودعوتك أذانًا يُصغي إليه الأبرار، ورسالتك رحمة للناس أجمعين.

إن انحرف الناس فما اعوجت سنتك، وإن ضلوا فما طمست شريعتك، وإن حاروا فما خفيت سيرتك، وسيردهم إلى الطريق هديك، وتهديهم إلى الغاية سيرتك، وترشدهم على الأجيال دعوتك.

ولن يزال مولدك هُدًى للناس وذكرى، وموعظة وعبرة، ودعوة لا تحول، ونورًا لا يزول.

يا رسول الله! صلى الله عليك.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أربع صفحات متتابعات
في سيرة رسول الله

١

هذا يوم العشرين من رمضان سنة ثمان من الهجرة، وقد أخذت مكة صولة الجيش الإسلامي، ودهمها جند التوحيد من أعلاها وأسفلها، خالد بن الوليد قائد الميمنة يدخل من الليط أسفل مكة يقود جموعًا من غفار وأسلم ومُزَينة وغيرها، والزبير بن العوام قائد الميسرة يدخل من كدى أعلى مكة، وأبو عبيدة بن الجراح في صفٍّ من المسلمين يدخل من أذاخر بين يدي رسول الله.

وقريش وألفافها حائرة، منها من يُعدُّ للقتال، ومنها من يدعو إلى السلم، ومنهم من ترددت به الفجاءة بين القتال والاستسلام، فناوش قليلًا ثم سكن...

ورسول الله على راحلته مطأطئًا رأسه كأنَّه ساجد على الرَّحل تواضعًا وشكرًا، قد غَضَّ بصره عن هذا الجيش الكثيف، وهذا الجند المطيع، وهذه السطوة المحيطة، ليفتحه على الحق الذي يدعو إليه، والعدل الذي يقوم به، والسلام الذي يبغيه، والألفة التي يريدها.

هذه هي القرية التي أخرجت الرسول وصحبه قبل ثماني سنين، القرية التي هاجر منها رسول الله وصاحبه يلوذان بالغار، ليختفيا عن الأبصار، القرية التي أبت على المسلمين الإقامة فيها والخروج منها، القرية التي آذت محمدًا في دينه ونفسه وصحبه عشر سنين؛ ثم أتبعته العداوة والحرب حيثما كان. وهذه قريش التي

سخرت بمحمد ودينه وآذت أصحابه، وعذَّبت المستضعفين منهم، وألجأتهم أن يهاجروا إلى الحبشة ثم إلى يثرب، ثم حاربتهم في بدر وأُحد وألبَّت عليهم القبائل في غزوة الأحزاب، فأحاطت بالمدينة تبغي استئصال المسلمين، ثم ردت المسلمين عن دخول مكة معتمرين عام الحديبية.

ليس في هذه البقعة -جبل ولا شعب ولا وادٍ ولا طريق إلا شهد بطش الباطل الكثير بالحقِّ القليل، والشرك العاتي بالتوحيد الناشئ، واستهزاء الجهلة الجفاة بالحكماء البررة، وضوضاء اللغو تطغى على ترتيل القرآن، وأصوات السخريَّة تحيط بتكبير الصلاة.

واليوم قد أخذت سورة الحق تهاويل للباطل، وزُلزِلَ الجبابرة لسطوة المستضعفين، وخرَّت الأصنام بكلمة التوحيد، إنه ليوم جزاء وانتقام وقصاص لمن يريد، وقد قال سعد بن عبادة وهو يحمل راية من رايات المسلمين داخلًا إلى مكَّة: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة».

كلَّا! كلَّا! إن محمدًا لا ينتقم لنفسه، ولا يقتص لأصحابه، ولكنه رسول توحيد، وداعية ألفة وسلام.. فقد لقي الجهل بالحلم، والذنب بالعفو، والإساءة بالإحسان، والبغضاء بالمودَّة.

رسول الله قائم بباب الكعبة يخطب ليعلِّم هذه الجاهليَّة شرائع الدين ومكارم الأخلاق، ويحطم في نفوسها أصنام الجهل والهوى والمعصية، كما أنزل عن الكعبة هذه الأصنام الذليلة؛ يقول:

«يا معشر قريش، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهليَّة وتعظُّمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خلق من تراب».

ويقول: «**يا معشر قريش، ويا أهل مكة! ما ترون أني فاعل بكم؟**» فيقولون: خيرًا. أخ كريم وابن أخ كريم؛ فيقول: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

٢

قبائل هوازن ترتاع لفتح مكة، وتخشى أن يمتد إليها سلطان الإسلام، فتخرج بقضّها وقضيضها عامدة لحرب الرسول، وتجتمع بوادي حُنين بين مكَّة والطائف، وتأتى الأنباء رسول الله فيخرج من مكَّة بعد دخولها بخمسة عشر يومًا، ويسير المسلمون للقاء العدو قبل أن يحيط بهم، عشرة آلاف أتوا مع الرسول إلى مكَّة، وألفان من أهل مكَّة، يسيرون للقاء هوازن! ها هو ذا وادي حنين تنحط إليه الجيوش في الغَلَسِ مُغترَّة بكثرتها، معتزة بقوتها، والعدو كامن في أنحاء الوادي، وأحشاء الظلام، يفجأ هذا الحشد العظْيم فيضطرب، ويموج بعضه في بعض، ويأخذ التيار من أراد الهزيمة ومن لم يردها.

وظن الذين لا يعرفون ثبات الإيمان حين يطغى به الكفر، وجلَد اليقيْن حين يحيط به الشك، وعزة الحق حين يثور به الباطل، ظن هؤلاء أنَّها هزيمة طوت فتح مكة وما قبل فتح مكَّة من جهاد المسلمين، وحسبوها حروبًا تأكل حروبًا، وغفلوا عما وراء الحروب من عقائد وأخلاق.

زُلزِل المسلمون زلزالًا شديدًا، ولكن القطب لم يَزُل من مكانه؛ ثبت رسول الله ونادى العباسُ أصحابَ بيعةِ الرضوان، فانثالوا إليه بين الجموع كما ينساب الماء القليل بين الصخور والرصَف.

وخَلَق ثبات الإيمان واليقين والحقّ من هذا التفرق اجتماعًا، ومن هذا

الاضطراب قرارًا، ومن هذا الفرّ كرًّا، فأخرج من هذه الهزيمة نصرًا مؤزرًا.

لم يَرُع رسولَ الله هذا الفزعُ، ولم تأخذه هذه الظواهر المائجة، ولكن ثبت ثبات الإيمان، ورسخ رسوخ الحق، وكان في المأزق الشديد يوم حنين كما كان في الموكب العظيم يوم الفتح، واثقًا بالله متوكلًا عليه، تجيش النفوس وهو مطمئن، وتموج الجموع وهو ساكن، توقّره عظمة لا يهزها نصر ولا هزيمة، ويقين لا يغيره أمن ولا فزع، ووقار لا تستفزه رغبة ولا رهبة.

٣

واجتمع المسلمون بالجعرانة، بئر بين الطائف ومكة، ومعهم من سبي هوازن وإبلها وشائها ألوف كثيرة.

وجاء وفد هوازن يسأل الرسول الكريم، أن يردَّ عليهم أولادهم ونساءهم، وقال رجل من بني سعد، قوم حليمة مرضعة الرسول: «يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللائي كنَّ يكفُلنك».

ولو شاء الرسول لجزى هوازن بما صنعوا، وإنهم لأهل للجزاء، ولكنه لقي جهلهم بحِلْمِهِ، وجرمهم بصفحه، كما فعل بأهل مكة؛ قال: **«أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم فإذا أنا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا»**.

فلما اجتمع الناس للصلاة جاء الوفد فتكلموا بما علّمهم الرسول؛ فقال: أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقال الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله، وأبى الأقرع بن حابس زعيم تميم،

وعيينة بن حصن زعيم فَزَارة، والعباس بن مرداس زعيم سُلَيم، أن يتركوا غنائمهم؛ فوعدهم الرسول أن يعوضهم عنها حتى رضوا، ورجعت هوازن بأبنائها ونسائها.

٤

وقسم الرسول الغنائم على أصحابها، وزاد فأجزل العطية لجماعة من رؤساء العرب: قرشيين غير قرشيين ليتألف قلوبهم، ولم يعطِ أحدًا من الأنصار، فعجب الأنصار، وتكلموا فيما بينهم، وجاء سعد بن عبادة سيد الخزرج، فقال يا رسول الله: إن هذا الحي من الأنصار قد وجِدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء.

- «فأين أنت من ذلك يا سعد؟!».

-يا رسول الله، ما أنا إلّا من قومي.

- «فاجمع لي قومك في الحظيرة».

اجتمع الأنصار في الحظيرة وهم عماد هذا الإسلام وجنده، اجتمعوا عاتبين على قائدهم العظيم، يرون أنه آثر عليهم جماعة من رؤساء العرب ليس لهم في الإسلام سابقة ولا في نصرته بلاء، فليت شعري ماذا يقول هذا القائد الكريم، وكيف يُرضي خُلَّص جنوده العاتبين؟!

استمع:

- «يا معشر الأنصار! ما قالة بلغتني عنكم، وموجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم

آتكم ضُلَّالًا فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟».

-بلى! لله ولرسوله المنُّ والفضل.

- «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟».

- وبماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنُّ والفضل.

- «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ثم لصدقتم: «أتيتنا مكذَّبًا فصدَّقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك». وجِدتم في أنفسكم، يا معشر الأنصار في لَعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم!! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذي نفسي بيده لولا هجرة لكنت أمرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا، وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال الأنصار -والدموع تبل لحاهم، وقد غسلت كلمات الرسول عَتْبهم، وأيقظت قلوبهم، وزادتهم حبًّا للرسول وطاعة، وأصابوا فيها ما يحقر كل ما أخذ الناس من مال، وما يأخذون؛ قالوا والدموع تبل لحاهم:

رضينا برسول الله قِسمًا وحظًّا.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الهجرة مولد تاريخ

تعمد الأمم إلى حدث جليل من أحداثها، يبرز بين خطوبها، ويثبت على مر الزمان في أنفسها، فتجعله ميقاتًا تبتدئ منه حساب الأيام، وعَلَما تعد من لدنه الشهور والأعوام، وربما يكون موتَ أحدٍ كبرائها، أو مصيبة من المصائب التي لا تفصل طورًا عن طور، ولا تميز عصرًا من عصر، ولا تكون حدًّا بين سيرة وسيرة، ولا برزخًا بين فساد وصلاح أو رشد وغي، أو عزة وذلٍّ، أو جهالة ومعرفة، ولا ينبوعًا يطرد منه في حياة الأمة نهر، أو ذكرى تفيض منها المواعظ والعِبَر، أو مبدأ تعطف إليه في الخطوب الذِّكَر.

وخير ما أرخت به أمة حادثٌ يلد لها تاريخًا، أو يغير لها وجهة أو يهديها إلى غاية، ويبقى على مرِّ الزمان خلَّاقا للعظائم، مدَّادًا بالفضائل، فيَّاضًا بالعظات، تنظر إليه الأمة كلما بعد بها المسير لتنظر أين هي من المكانة التي تراد لها، وأين سيرها من الطريق المبينة، وأين وجهتا من الغاية المرجوَّة!

وقد إلهامًا ما رآه ثاني الخلفاء الراشدين عمر الملهَم المحدَّث، حين أشار على المسلمين أن يجعلوا مبدأ لتاريخهم، وميقاتًا لأعمالهم، فما أعرف حدثًا ولد تاريخًا طويلًا، وخلق عصرًا مديدًا، واطَّرد في تاريخ البشر فيَّاضًا بالخير مترعًا بالحوادث كالهجرة، وما هي إلا سَفرة محسوسة قصيرة جعلها الله عنوانَ أسفار معنويَّة طويلة في نفوس الأفراد والجماعات والأمم، وما هي إلا نُقلة بين بلدين كانت انتقالًا من الوثنيَّة إلى التوحيد، ومن الفوضى إلى النظام، ومن الرذيلة إلى الفضيلة، ومن الباطل إلى الحقِّ، ومن الجهل إلى العلم - من الجاهليَّة إلى الإسلام.

بالهجرة عزَّ الإسلام وانتصرت دعوته، ونفذت شريعته وتألفت الجماعة الإسلاميَّة الأولى- الجماعة التي انتشرت فإذا هي أمة تجمع المشرق والمغرب، وجاهدت، فإذا هي ملء الزمان عزمًا وحزمًا، وإقدامًا وصبرًا، وثباتا ودَأبًا، وسيطرت، فإذا دولة تقوم على الأسود والأبيض بشريعة من الحقِّ الشامل والأخوة الجامعة، ثم استقرت وعملت فإذا الحضارة المؤمنة الرفيعة التي تحطم الحدود الفاصلة، وتمحق العصبيات الباطلة، وتسوِّي بين الناس إخوة عاملين متعاونين، كلهم لآدم، لا فضل لأحد على أحد إلَّا بالتقوى والعمل الصالح.

لقد كانت هذه الجماعة الإسلاميَّة القليلة التي أقرتها الهجرة في المدينة كالبذر الطيب يجمعه الزارع الصالح وينقيه ثم ينثره فيملأ الأرض خصبًا وبركة، وكبخار البحر يجمعه السحاب ثم يتفرق به في أرجاء الأرض حياة وطهرًا وخصبًا ونماء.

فَقِه هؤلاء الصحب الأجلاء عن رسولهم، ووعى هؤلاء التلاميذ الصالحون عن معلِّمهم، ثم انتشروا في أرجاء الأرض قوادًا فاتحين، ووُلاة راشدين، وقضاة عادلين، وعلماء هادين، وعبَّادًا خاشعين، فاجتمع السيف والكتاب، والعرش والمحراب، والسلطان والعلم، والقدرة والحلم، وما زال هذا البحر يمدُّ، وما زال هذا النور يشِعُّ، وما زال هذا الخير يشيع، وما زال هذا الحقُّ يسيطر، وما زال هذا الدين ينتشر، وما زال هذا العزم يمضي، وما زال هذا الجهاد يدأب، حتى شهد العالم أوَّل مرَّة أمَّة واحدة منتشرة بين الصين وبحر الظلمات، فنيت فيها الأجناس، وامَّحت الألوان، وصبغها لون وضَّاء من الأخوة والمودَّة، وتعاونت فيها العقول على فلسفة واحدة، وفقه واحد، وأدب واحد، وتضافرت الأيدي على نسج حضارة واحدة.

كم في تاريخنا من أعمال تمت إلى الهجرة بسبب؟ وكم فيه من أبطال يربطها بالهجرة نسب؟!

محمد بن القاسم الثقفي، ثم محمود الغزنوي، وظهير الدين بابر، كانوا في فتح الهند وإقامة الدول فيه من آثار الهجرة، وقتيبة وأسلافه وخلفاؤه في تركستان سهامٌ رمت بها الهجرة فأبعدت المكان والزمان، وعقبة بن نافع على فرسه على شاطئ بحر الظلمات، وطارق بن زياد في الأندلس، وعبد الرحمن الغافقي في بلاط الشهداء، كانوا يطوون الأرض والممالك، وينشرون العدل والأخوة مهاجرين على آثار الهجرة النبويَّة.

ثم ما وعى التاريخ من سِيَر فقهاء وعلماء، وكتاب وشعراء، ومتكلمين وفلاسفة، وصوفيَّة، وما شاد الزمان من مساجد ومدارس وقصور وقناطر.. كل ذلك للهجرة أثر فيه وطابع عليه!

كل ذلك كتاب.. الإسلام بيانه، والتاريخ برهانه، والهجرة عنوانه.

ولا تزال الهجرة على بعد العهد، وعرامة الزمان، وضراوة الفتن، وضعف المسلمين وتخاذلهم، وحيا يملأ النفوس آمالا، والقلوب إيمانًا، والأيدي قوة، والعزائم فتوة، ولا تزال نورًا في نفس كل مسلم، وحديثًا في ضميره، ودعوة في أذنه، وعزة في جوانحه، وسؤددًا في همته، لا تزال تدوي في الآذان والصدور، كما لا يزال الأذان الأول يدوي في أرجاء الأرض، لا يفتر ليلَ نهار، ولا يقرّ له في ساعات الزمان قرار[1].

ألا إن التاريخ الذي ولدته الهجرة لا يزال في ازدياد، والنهر الذي أجرته لا يزال في اطراد، والروح الذي نفخته لا يزال قويًا، والعزم الذي شحذته لا يزال فتيًا، والكتاب الذي كانت عنوانه لم تُقرأ صفحاته، ولم تنفَد كلماته، وإنَّ في ضمير الدهر

(١) إذا فكرنا في اختلاف الأوقات في البلاد الإسلامية عرفنا أن الأذان مستمر لا ينقطع ساعة.

لأحداثًا كبارًا، وإن في ثنايا الغيب لأسرارًا وأسرارًا.

قد أضاع المسلمون الزمامَ، ورضوا أن يكون غيرهم الإمامَ، وفقد كثير من المسلمين عقولهم في هذه الفتن المحيرة، وأضلوا رشدهم في هذه الخطوب المظلمة، وبَرِقت أبصارهم من هذه الأشعة، وصمَّت آذانهم في هذه الضوضاء، ورضوا بفضلات الأقوام لعقولهم وقلوبهم وأيديهم وألسنتهم، ولكن لا يزال وحي الإسلام يُسمَع من وراء الحجب، ونوره ينفذ في ثنايا الظلمات؛ ولا تزال هذه العقول تعرف غايتها، وهذه الوجوه تقصد قبلتها، ولا تزال هذه الهمم تسمو إلى سمائها، وهذه الأرواح تطمح إلى عليائها، ولا تزال هذه الإبر تعرف قطبها وتتجه وجهتها.

إنَّ التاريخ الذي ولدته الهجرة لم يمت، والمجد الذي بدأته لم ينقطع، والجذوة التي أوقدتها لم تنطفئ، ولا يزال في الأرض خِصب، وفى النهر ماء، وفى السماء سحاب، وفى السحب مطر ورعد وبرق.

وإن علينا أن نتذكر فنحسن التذكر، ونعتبر فنجيد الاعتبار، ونخلق من العسر يسرًا، ومن النقمة نعمة، ومن الضلال هدى، ومن الضعف قوة، مستبصرينْ بالوحي الذي لا يفتر، والنور الذي لا يخبو.

من كان يظن أن الأقلام جفَّت، والصحف طُويت، فليُصغِ ليسمع صرير الأقلام تخط في صفحات التاريخ الإسلامي فصولًا جديدة، ومن كان يحسب أن الينبوع نضب، فليمعن النظر ليرى أن الينبوع فياض، وإن حجبته الأدغال، أو تراكمت حوله الرمال، ومن أحسَّ همود الحياة في نفسه، وخمود الهمة في صدره، وضعف الأمل في قلبه، ومرض البيان في لسانه، فليرجع إلى الهجرة وآثارها، والإسلام وتاريخه، ليغترف من هذا الينبوع، أو يقبس من هذه النار، ويقرأ في هذا

الكتاب، ويستمع إلى هذا الخطاب، ليرجع إلى نفسه حياتها، وإلى همته وقدتها، وإلى أمله قوته، وإلى لسانه بيانه، وإلى عقله سلطانه.

فإنَّ الإسلام لا يعرف الموت ولا الضعف ولا الذِّلَّة ولا اليأس، وإنَّما هو العيش في عزَّة وكفاح، أو الجنَّة تحت ظلال الرماح، وإن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رسول الله في عرفات

أمَّا اليوم فتاسع ذي الحجة، وأما السَّنَة فالعاشرة من الهجرة، والحجيج يسيرون من مِنًى إلى عرفاتٍ، فما بال الناس لا يسيرون على السنَن المألوف، ولا يفعلون ما كانوا يفعلون؟ ما بالهم لا تفرقهم العصبيات وينحازون إلى الرايات؟ ما بال القبائل لا تلبِّي لآلهتها ولا تهيب بأصنامها؟ عجبًا، لا تُذكر الآلهة حتَّى اللات والعُزَّى ومناة، ولا تُسمَّى الأوثان حتى وَدّ وهُبل؟

كلا، كلا، قد تتابع القوم من سمت وخشوع، فأين الجلبة والضوضاء، والتفاخر بالآباء؟ وهذه قريش تتجاوز الزدلفة مع الناس إلى عرفات؛ فكيف سوَّت نفسها بالقبائل، ورضيت أن تسير إلى هذه المنازل؟ لست أرى ما يميز قريش من غيرهم، ولا الحمس ممن عداهم، وأين النَّسَأة من كنانة؟ لا ترى لهم شارة ولا موكبًا، ولا تبصر منهم أحدًا، ماذا دها العرب فغيَّر سُنَنهم؟ بل من ذا الذي جاءهم فجمع شملهم ووحَّد كلمتهم وأخلص لله دعوتهم إنَّ هذا لشيء عجاب، كنا قبل سنتين نسمع الضجيج والضوضاء، والتصدية والمكاء، ونرى كل قبيلة تنحاز إلى علمها وتنادى ربَّها، فمِن مُشيدٍ بالأوثان، ومن منادٍ: لبيك ربّ كنانة، أو لبيك ربّ همدان! فاستمع اليوم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك!

قد تغيرت الدعوة واختلف الشِّعَار، وتبدَّلت السيما والسيرة، وما عهدنا هذا من قبل!

والشيطان ذليل حسير، قد آوى إلى صخرةٍ على جانب الطريق يرقب الوفود المتآخية بل الأخوة المجتمعة، ويرمى الجموع بعينه خزيان، ويعَضُّ بنانه حيران،

يقول: «ويلي من محمدٍ، لقد أخلى بيوتى من هذه الأوثان، ومحا البغضاء من الشنآن، لقد ذهب النِّزاع والخصام وأفلت من يدى الزمام، ويلي من محمَّدٍ! ألم يكن بالأمس يغشي هذه المجامع وحيدًا، ويرتد عنها مخذولًا؟ ألم يكن يعرض نفسه على القبائل لتجيره، فيلقى الغلظة والجفاء، والهزء والسخرية؟ ويلى من محمَّدٍ! لست آسَى على الحجاز وحده ولا على جزيرة العرب فحسب، إنى لأوجس خيفة أن يجاوز هذا التوحيد الجامع، وهذه الأخوَّة الموحَّدة، حدود الجزيرة، فتدمِّر منازلي من معابد الوثنيَّة وقصور الجبارين، وتمتد إلى كل بقعة لي تزلزلها الفرقة، ويسيطر عليها الظلم، ويشيع فيها الفساد، وتغلغل فيها الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويُرفع فيها لواء الباطل فوق كلِّ لواء، ويلي لقد جاهدت محمَّدًا في داره ثلاثًا وعشرين سنة واستنصرت شياطين الإنس والجن، وحشدت جنود الباطل، وخيَّل إليَّ مرارًا أني أشرفت على الظفر، فما هذه الجموع التي تسير وراء محمد، وتدعو بدعوة محمَّدٍ، ويلي إنَّه يوم له ما بعده».

يسير رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في عشرة آلاف من الحجاج إلى عرفة وهذه قبة ضربت له في نمرة فينزل بها.

زالت الشمس فأمر رسول الله بناقته القصواء فرُحِلت فركب، حتى أتى بطن الوادي وادي عُرنَة فوقف واجتمع الناس وأصاخوا للخطبة التي لم يخطب رسول الله مثلها في مثل هذا الجمع الحاشد، واستمعوا للوصية العظمى التي يوصى بها الرسول أمته في حجة الوداع، والبلاغ الأكبر يوم الحج الأكبر يؤذن الناس بكمال الدين وتمام النعمة، وتمكن الإسلام[1]. ووقف ربيعة بن أمية بن خلف على مقربة من

(١) فى هذا اليوم نزلت الآية الكريمة: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا}.

الرسول يبلغ الحجيج بصوته الجهير مقال رسول الله.

ألهم الرسول أنَّه بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، وأن الدين قد كمل ونعمة الله قد تمت، فقال: «أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا».

وعلم رسول أن التوحيد الذي جاء به الإسلام كفيل بتوحيد الله على مرِّ الدهور، وأن الكتاب الذي بلَّغه ضمين ألَّا تُبعد الأوثان من بعد، وأن العقول التي حررها تستنكف أن ترتكس في أباطيل الجاهليَّة، فليس يخشى على أمته الشرك ولكن يخشى أن يستجيبوا للشيطان فيما عدا التوحيد في أمور يحسبونها هينة، وهي عظيمة الأثر في نظام الجماعة وأخلاقها، حرية أن توهى القوة، وتفرق الكلمة، وتحل العقدة الصالحة، وتلكم كل كلمة تؤدِّي إلى فرقة، وكل فعلة من الظلم والعدوان أو الرذيلة والمنكر، عرف هذا خاتم النبيين فقال: «إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك ممَّا تحقرونه من أعمالكم».

ثم وكدّ الرسول ما بلغه وعلمه ثلاثا وعشرين سنة من حرمة الدماء والأموال والأعراض، وكَّد ما أبطل به الحروب المتمادية، والغزوات المستمرة، والثارات المستعمرة، وما هدم به الجاهلية العرب هدمًا، وردها شرعًا من السلام والوئام، وسلطان القانون العام، فقال: «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا»... وإن كل دم في الجاهلية موضوع، وإن أوّل دم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فهو أول من أبدأ به من دماء الجاهليَّة.

ثم عمد الرسول الذي علَّم البر بالفقير وجعل له حقًّا في مال الغني، وعطف

القلوب بعضها على بعض، وأشعرها البر والمواساة، عمد إلى هذا الإثم الآثم، والجرم المنكر، الذي تتبرأ منه الأخلاق المروءة، هذه الشِّرعة الدنيئة التي تُحكِّم الغني في رقبة الفقير بدارهم معدودات، وتغلغل في الأخلاق والأموال تغلغل السوس، فأعاد ما وكده الكتاب والسنة من إبطال الربا، وأعلن أنه سواء منه ما تقدَّم وما تأخَّر، قد محقه الله ومحق آثاره، فقال: **«وإنَّ كلَّ ربا موضوعٌ، ولكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون، قضى الله أنه لا رِبَا، وإن رِبَا العباس بن عبد المطلب موضوع كلّه»**.

ولم ينسَ النساء وقد أنقذهن من الوَأد، وأشركهن في الإرث، وجعل لهنَّ مثل الذي عليهن بالمعروف، وشرع لهن الشريعة الكافلة سعادتهن وسعادة الأمة، لم ينسَ النساء في هذا الموقف العظيم الذي يوصي فيه بأصول شريعته قال:

«أما بعد، فأيها الناس فإن لكم على نسائكم حقًّا ولهن عليكم حقًّا... واستوصوا **بالنساء خيرًا، فإنهنَّ عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهنَّ بأمانة الله... فاعقلوا»**.

أيها الناس: «ليت النساء أخذن الحقوق وأدين الواجبات! ليت ثم ليت!».

ثم وكَّد نبيُّ التوحيد والأخوَّة ما بنى عليه شرعه من التراحم والتآخي والمساواة والمواساة، وأنَّ الناس سواسية كأسنان المشط سواء فيهم الأسود والأبيض كلهم لآدم وكلهم عباد الله وكلهم إخوة في الله، قال الرسول الأكرم: اعقلوا أيّها الناس واسمعوا قولي، فإني قد بلَّغت وتركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا: كتاب الله وسنة نبيِّه... أيّها الناس اسمعوا قولي فإني قد بلغت، واعقلوا، تعلمُنَّ أن كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه

عن طيبِ نفسٍ، فلا تظلموا أنفسكم. اللهم هل بلغت؟.

قال الحاضرون: نعم، قال الرسول: اللهم اشهد.

ذلكم ما أوصى به الرسول يوم الحج الأكبر في حجة وداعه، وتلكم حقوق الإنسان دوَّت بها أرجاء العالم قبل ألف وثلاثمائة وخمسين سنة.. تلكم وصايا الرسول لأمته تدوَّى بها الأجيال، وتسمعها الآذان، فأين منها الأعمال.

{إن في هذا لبلاغًا لقوم عابدين}

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

في مجلس رسول الله
ثقة الحُرِّ بالحُرِّ

دعوة الإسلام تخترق الآفاق، ونور الإسلام يمزِّق الظلمات، ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ماضٍ في جهاده دائب على إرشاده، يرى تباشير الصبح في أعقاب الليل، ويبصر بَسْمَةَ الحقِّ لهزيمة الباطل، ويتلقى وفود الإسلام بعد اثنين وعشرين عامًا لقى فيها هو وصحبه ما لقوا من جبروت الشرك وكبرياء القوَّة، وَعَنت الظلم ولجاجة الباطل، وهجوم الأهوال، وإحاطة المهالك.

وبنو سعد بن بكر في ديارهم شرقي الحجاز إلى الجنوب، سمعوا الدعوة الإسلاميَّة، وأحاطت بهم آياتها، وتريثوا حتى لم يبق للريث موضع، فأجمعوا أن يتعرفوا كنه هذا الأمر، وفيصل هذه القضية.

هذا رئيسهم ضمام بن ثعلبة يشدُّ رحله إلى المدينة ليلقى صاحب الدعوة ويتبين أمره، وها هو ذا يسير في المدينة يسأل عن الرسول حتى يدخل المسجد راكبًا، وينيخ جمله في فنائه، فانظر إليه في صراحة الرجل الحر يتقدم إلى النبيِّ وأصحابه غير متلجلج ولا متردد.

ضمام: «أيكم محمد؟».

الصحابة: «هذا الرجل الأبيض المتكئ».

ضمام: «ابن عبد المطلب!».

رسول الله: «قد أجبتك».

- إني سائلك فمشدِّد عليك في المسألة فلا تَجِد علي في نفسِك.

- «سل عمَّا بدا لك».

- أسألك بربك وربِّ من قبلك: آللهُ أرسلكَ إلى الناس كلِّهم؟.

- «اللهم نعم».

- أنشدُك بالله: آلله أمرك أن تصلِّي الصلواتِ الخمس في اليوم والليلة؟.

- «اللهم نعم».

- أنشدك بالله: آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟.

- «اللهم نعم».

- آمنت بما جئت به، وأنا رسول مَن ورائي مِن قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر[1].

لم يطلب ضمام بن ثعلبة: معجزة ولا آية ولا برهانًا، ولكنه رأى المعجزة والآية والبرهان في ذمَّة محمَّدٍ وصدقه، فتقدم جريئًا حرًّا.يسأل الرجل الحر الذي وثق به ويناشده الله، فلما أجابه آمن به غير مترددٍ ولا مرتابٍ ولا متريثٍ، سأل الرجل العظيم وناشده بربه فأجابه، وهو أكبر في نفسه وأعظم في رأيه من أن يكذبه أو

(١) الحوار كله منقول من البخاري بنصه.

يخدعه، هل وراء هذا للحرِّ برهان؟ وهل بعد الثقة بيان إن في هذا الحوار، لعبرة للأحرار!!.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

على ذكرى المولد النبوي

الذكَر العظيمة في تاريخ الأمم نجوم يُهتدى بها في ظلمات الأيام، وأعلام يستبين بها الطريق في ضلالات الزمان، ودعوات إلى الحق والخير تدوِّى على مرِّ السنين، والزمان بالناس دائر لا يفتُر، تعتورهم أحداثه وتتداولهم غِيَرُه، فمن لم يعتصم بسبب من الحق، ويستمسك بعروة من العمل الصالح، ضلَّ وانبهمت عليه السبل، والتبس عليه الحقُّ بالباطل، والهدى والضلال، ومن لم يجعل له قدوة من سير العظماء تردد وتحير، والزمان لا ينتظر المترددين الحيارى، أوْ ضلَّ وهلك، والدهر لا يشفق على الضُّلَّال والهلكى.

وإن لنا معشر المسلمين من سيرة رسولنا خاتم النبيين نجومًا نيرات، وأعلامًا واضحات، وأسى تهدى إلى الخير والبر، وإلى التي هى أقوم من أعمال الدنيا والدين، إن لنا من سيرة الرسول الكريم هدى في كل صغيرة وكبيرة من أعمال الفرد والجماعة.

فقد حفظ لنا التاريخ سيرته في بيته ومسجده، وفى سياسة الجماعات، وتربية الأمم، وقيادة الجيوش، وفى الإصلاح بين المتعادين، والقضاء بين المتخاصمين، وفى السفر والحضر، والشدة والرخاء، والحرب والسلم، والغضب والرضا. فما تلقانا حادثة من حوادث الزمان، أو عمل من أعمال الحياة خيرها وشرها، وحلوها ومرها، إلا وجدنا في سيرة سيدنا ونبيِّنا وحبيبنا محمَّدٍ، صلواتُ الله عليه وسلامه، مثلًا عاليًا، وأسوة حسنة، ورأيًا هاديًا، وقضاء فصلًا، يهدينا إلى ما فيه صلاح الدنيا والآخرة، كل فرد منا يجد في سيرة محمد وهديه شفاء دائه، والتحرر من أهوائه، وإصلاح خلقه؛ وكل فرد منا يجد في سيرة نبيِّه الجهاد في الحياة، والصبر على لأوائِها والطموح

إلى معاليها، والاستكبار على دناياها، والإباء على كلِّ ضيم والنفور من كل مذلَّةٍ.

وكل أمة من أمم المسلمين تدوِّى فيها ليل نهار الدعوة المحمدية تدعوها إلى أن تقوم في أرض الله على عباد الله بقانون الله، {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}.

وكل أمة على هذه الأرض تجد في هدى محمد ما يطب لدائها، ويقيم من عوَجها، وهل أودى بالجماعات إلا عصبيات باطلة، وأهواء جامحة، وشهوات مسلطة، واستكبار على الحقِّ، ونفور من العدل؟ هل كبَّ الناس في جهنم إلا ما استعر في قلوبهم من الضغينة، وثار في رءوسهم من الهوىٰ؟ وهل يعرف التاريخ كمحمد رسولًا جاء بالشرع الجامع، والأخوة العامة والعدل الشامل؟ هل يعرف التاريخ كمحمد هاديًا ألَّف بين منازع النفس على قانون من العفَّة والعدل، وألَّف بين الإنسان والإنسان على شريعة من المودة والأخوَّة، وألَّف بين الأمَّة والأمَّة على منهاج من الحقِّ والبر والعمل الصالح لخير الناس أجمعين؟

من رفع للناس لواء الأخوَّة لا يفرق بين الأبيض والأسود، ولا يميز بين المشرق والمغرب؟: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم}. من دعا الناس جميعًا إلى التنافس في الخير على اختلاف أديانهم ونحلهم وأنزِل عليه: {ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير}، {ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم تعملون}.

أين أنتم من هذه الأخوَّة الجامعة يا ضُلَّال البشر؟ أين أنتم من دعوة الخير

العامة يا دعاة الشرِّ؟ أين أنتم من هذه الرحمة يا قساة القلوب؟ أين أنتم من هذا الصلاح يا فَساد الشعوب؟.

المسلمون أحقُّ باللوم وأجدر بالتعنيف، فهم أهل هذا الدين وأولى الناس بهديه، وهم هم خذلوه وهجروه وحفظوا ظاهره وضيعوه. وقال الرسول: {يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا}، فإن ترهم اليوم في فرقة وشقاق فيما ضيعوا أخوة الإسلام، وإن ترهم في مذلَّة وهوان فيما فرطوا في عزَّة الإسلام، وإن ترهم أتباعًا فقد علمهم الإسلام شرعة السيادة فنبذوها، وأعطاهم أزمَّة القيادة فأضاعوها.

أيها المسلمون، هذه ذكرى نبيكم، وميلاد تاريخكم، ومبدأ مجدكم، ومنشأ سعادتكم؛ فإن شئتم لأنفسكم السيادة والسعادة فكونوا أهلًا لهذا الشرف. كونوا بأخلاقكم وأعمالكم جديرين بأن تسموا أمَّة محمَّدٍ، ولا تتخذوا الانتساب إلى محمَّدٍ هزوًا ولعبًا، وتحسبوا الإسلام أسماء وأقوالًا، فإنَّما هو الأخلاق والأفعال والجهاد الذي لا يفتر، فمن شاء أن ينتسب إلى محمَّدٍ فهذه سنته، ومن شاء مجد محمَّدٍ فهذه طريقته!!

{يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا}.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ذكرى الهجرة

١

يدور الفلك دورانه، ويجرى الزمان جريانه، وتكُرُّ الحادثات والعبر، وتسير الأمور على قدَر، ويطرد نهر الحياة في مجراه بين الأزل والأبد؛ والناس قوافل مجهودة تضرب في بيداء مجهولة، قد اشتبهت عليهم الأعلام، وانبهمت الغايات، لا يبلغون مدى، ولا يقيمون على منزل إلا ريثما يُعِدّون للمسير، ويتزودون للرحيل، مسير لا يفضي إلى نهاية، ومنازل لا تنتهي إلى غاية، إنَّما الغاية هذه الدأب المستمر، وهذا الكد المستحر.

والأعوام مراحل في هذا الطريق الأبدي، ومنازل في هذا السفر السرمدي، وقصارى الناس أن يقفوا كلّ عام وقفة لينظروا إلى الماضي فيقولوا فعلنا ولم نفعل، ويتطلعون إلى الآتي فيقولوا نخاف ونأمل، يحمدون الإنجاح، ويأسون على الإخفاق، ويرجون الخير، ويشفقون من الشرِّ.

وليس الناس سواء في سبيل الزمان، وتيار الحِدثان: منهم الضعاف المغلوبون، والعبيد الخانعون الذين تصرفهم الحادثات كما شاءت، ويجرى بهم التيار أنَّى توجه؛ لا يستطيعون ثباتًا ولا دفعًا، ولا يملكون ضرًا ولا نفعًا، كالغُثاء يسيل به الماء.. إن سئلوا: لم فعلتم؟ قالوا: سلطان الزمان القاهر، وإن قيل: لم لا تفعلون؟ قالوا: العصر القاسر.

ومن الناس الأباة الأحرار، أولو الألباب والعزائم الذين تثبتهم عقولهم وقلوبهم وهممهم، فيقومون المقام الذي يرضون، وينهجون النهج الذي يريدون،

يسخرون بالزمان وسلطانه، والعصر وحكمه، يمهدون الطريق للخير، ويسدُّون الطريق على الشرِّ، ويقفون في مجرى الخطوب كالصخرة في مجرى السيل يجيش الماء حولها ويزبد، ويصدمها فينشق عنها، ويمضي وهي مكانها راسخة، ويثبتون كالسدِّ في النهر يحبس ماءه ويصرفه عن وجهته، هؤلاء أحرار يعبِّدون الزمان ولا يعبِّدهم، ويصرِّفونه ولا يصرِّفهم، ويسيطرون على العصور ولا تسيطر عليهم، بل هم يخلقون العصور الأجيال ويذللون الزمان والمكان، لا يعتلّون بسلطان الزمان وحكم العصر، ولكن يحتجون بالحقِّ والخير، شاء الزمان أو أبى، ورضي العصر أم سخط، كأنَّما إرادتهم وعزائمهم وحي الله وسلطان القدر، لهم كل حين قول سديد، وعمل جديد، وجهاد في الحقِّ، ونصرة للخير، ورب فرد من هؤلاء قد خلق جيلًا وأنشأ أمَّةً، وبدَّل عصرًا بعصرٍ، وزمانًا بزمانٍ.

٢

والمسلمون ما مقامهم اليوم في حكم الزمان، وما شأنهم في مجرى الخطوب؟ إنَّهم في ذلك فرق شتى: فريق راعته الحادثات، وبهرته النائبات ودهمه التيار الصاخب، فجرى معه زاضيًا به أو مقهورًا عليه، أو يائسًا من مغالبته، أو استهوته الفتن، وسحرته الزخارف ومال به الهوى، فأعطى العصر عقله وقلبه، واندفع يمرح ويلعب، ويستمتع جهد هواه وشهوته وفتنته، وإن حاججته اعترف بضعفه ويأسه، وخنوعه وذلِّه، أو لقيك بملء هواه وفمه من حجج واهية، وآراء مأفونة، تدلُّ في جملتها وتفصيلها على أنَّه مغلوب على أمره مسحور، لا يثبِّته عقل حر، ولا نفس عزيزة ولا قلب همام.

ومن المسلمين فريق هالهم العصر الجديد، وأخافتهم فتنه، فأرادوا أن ينجوا

بأنفسهم ودينهم بأن يجتنبوا هذا التيار، وينتبذوا من هذه الحادثات مكانًا قصيًا، وأولئك لم يجاهدوا، فلم ينتصروا ولم يهزموا، وإن مد البحر مَدة لحقهم، وإن سال السيل بهم مرة جرفهم، بأنهم لم يعدوا للحياة عدتها ولم يتخذوا للحوادث سلاحها، والأعزل في هذا المعترك مغلوب، والغافل في هذا الخِضَمِّ غريق.

وفريق آخر من المسلمين لم تجرفهم الحادثات، ولا فروا منها، ولم تفتنهم الفتن، ولا بعدوا عنها، بل هم في مجرى الخطوب ثابتون، وفى معترك الفتن سالمون، عُدَّتهم عقول درَّاكة لا يشتبه عليها الحق والباطل، ونفوس أبيَّة لا تريم مكانها من العزة والكرامة، وعزائم هي كفاء الخطوب المدلهمة، والجهاد المديد، أولئك وثقوا بعقولهم وهممهم ودينهم وتاريخهم وسُنَنهم، يغالبون الحادثات ويشقون فيها طريقهم إلى غايتهم، ويمكنون لحضارتهم وأخلاقهم في هذه الأرض، لا يخشون قوة ولا يعرفون زمانًا قاهرًا، ولا عصرًا غالبًا، قد سمَو بأنفسهم فوق الجديد والقديم، والماضي والحاضر، والشرقي والغربي، يأخذون ويتركون مختارين، ويأمرون وينهون على هدى وبصيرة، لا استسلامًا للفتنة وخنوعًا للزمان ولا عصبية للقديم وغمطًا للجديد.

وهؤلاء الأباة الأحرار، والعقلاء الأخيار، يجدون في تاريخهم ما يهون عليهم الخطوب، ويذلل لهم الأهوال، ويعصمهم أن يضلوا، ويربأ بهم أن يستكينوا ويذلوا، فما تزال تتنزل عليهم من هذا التاريخ العزة والإباء والكرامة، الثبات في الحقِّ، والجهاد في الخير، والتكبر على الأهواء والتنزه علن الدنايا.. ما يزال تاريخ الإسلام يوحى إليهم العظمة بالحقِّ، والسيطرة بالصدق، والصبر لكلِّ نازلة، والظفر بعد الصبر، والعدل بعد الظفر.

ما يزال تاريخ الإسلام يجلو العزائم كلما صدئت عليها المصائب، ويضيء الآمال

كلما دحت عليها الكوارث، ويحرّر النفوس كلما همت الرغبة والرهبة أن تستذلها، ولولا هذا الوحي المستمر من هذا التاريخ المجيد ما استطاع مسلم أن يثبت في هذه الفتن، ويصبر على هذه المحن، ويرى الصبح في أعقاب هذا الليل، والظفر وراء هذه النكبات.

وإن الهجرة -هجرة الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم إلى المدينة- لميلاد عصر جديد عز فيه الحق وغلب الخير، وسيطرت الحرية، وخلص الإنسان من سلطان الضلال، وتحكُّم الباطل، وذل العبودية لسادته وأهوائه وشهواته.

إنَّ الهجرة لمبدأ تاريخ عرفت فيه الإنسانيَّة من معاني الحق والخير والحريَّة ما لم تعرف في غير هذا التاريخ، وما يزال هذا التاريخ علمًا مرفوعًا للفضائل والخيرات تنحاز إليه في عصور الرذيلة والشر، ما يزال علمًا مرفوعًا للأخوّة في أزمان يتناحر فيها البشر في كل حين، وتقتتل الأمم في كل بقعة، والمذاهب في كلِّ أمة، والفِكَر في كلِّ نفسٍ.

فيأيها المسلمون لا يهولنكم ما يحيط بكم، واتخذوا من الهجرة عيدًا يلد في كلِّ نفس معانيَ من العزة والحريَّة تثبت بها في هذا الجهاد، ومعاني من الحق والصدق تعيش بها على هذه الأرض، ومعاني من الخير والبر يسعد بها الناس.. استوحوا الهجرة كل معنى كريم يؤهل للحياة الكريمة، وكل خلق فاضل ينشئ الأمة الفاضلة، وكل خلق يجعل الإنسان إنسانًا، حرًّا، عزيزًا، برًّا، خيِّرًا، لا عبدًا ذليلًا، ولا وحشًا مفترسًا.

ألا إنكم أولى بالحقِّ والخير، والمجد والكرامة، وأجدر بحمل أمانة الإسلام، وتبليغ رسالة محمَّدٍ، فافعلوا، وإلا فلستم أهلًا للانتساب إلى الإسلام دين الحقِّ، ومحمَّد نبي الإنسانيَّةِ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الإسلام

بعد ١٣٥٥ سنة

مضت خمسة وخمسون وثلاثمائة وألف عام منذ هاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة، طوى التاريخ خمسًا وخمسين وثلاثمائة وألف مرحلة منذ خرج محمد وأصحابه يحملون دعوة التوحيد والأخوة، وكلمة الحق والعدل والحرية.

ركم الزمان على عام الهجرة ثلاثة عشر قرنًا ونصفًا، وما زال يخرق الحجب نوره، ويلوح من خلال الأجيال سناه.

مضت أربعة عشر قرنًا في جزر التاريخ ومدّه، وغيَّرَ الدهر وخطوبه. قامت دول وزالت دول، وقويت أمم وضعفت أمم، وحييت مذاهب، وماتت مذاهب، والأرض ترجف باعتراك البشر واحتراب الأديان، وتدوِّي بالآراء تتصادم، والأفكار تتقاتل، ومن وراء هذا خلق يغلب خلقًا، وسنة تميت سنةً، وآية تنسخ آيةً، وأثر يعفّى على أثرٍ.

فأين الإسلام اليوم من مبتدئه؟ أين بلغ المسلمون بعد أربعة عشر قرنًا؟

قال كاتب أوربيٌّ منذ سنتين: إن دعوة الإسلام قد انتهت، وإن الإسلام قد وهن، ولم تبق فيه قوة تحرك الأمم وتسير الأجيال.

أحقٌّ أنَّ الإسلام قد انتهت دعواته، ودرست آياته، ولم تبقَ إلا أسماء وأوهام، ورسوم وأعلام؟ هل الإسلام اليوم لا تنبض به القلوب، ولا تمضي به العزائم، ولا يقيم المثل العليا للعمل في هذه الحياة؟ أصار الإسلام تاريخًا دابرًا، وانقلب مجدًا

ماضيًا؟ هل طفئت النار، وأقوت الديار؟.

ما هي دعوة الإسلام؟ دعوات ذات شعب تنتظم العقائد والأعمال، وتهيمن على العقل والقلب، وتحيط بالجماعة من أقطارها، وتشمل الأمم جميعها، ولكنها في أصولها ترجع إلى أمرين:

التوحيد، توحيد الله وتوحيد النفس، بتخليتها من الأوهام المتنازعة والخرافات المتهافتة، وإقامتها على طريق بينة لا حيرة فيها ولا ضلال، ثم توحيد الأفراد في الجماعة بالعدل الشامل والتسوية التامة، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه، لا عبد ولا حر، ولا سائد ولا مسود ولا رفيع ولا وضيع، ثم توحيد الجماعات فلا شرقي ولا غربي ولا عربي ولا عجمي.

والأمر الثاني: العمل الصالح: أن يسير الفرد والجماعة والأمم إلى الخير، أن يجاهدوا لإقامة الحقِّ وهدم الباطل، ونشر العدل ومحو الجور، أن تمتلئ القلوب نارًا تحفزها للعمل، ونورًا يهديها السبيل، وأن تسمو النفوس عن الصغائر والدنايا، وتطهر من الأحقاد والضغائن، وتتحرر حتَّى تأبى على القيود، وتتسع على الحدود، وتنطلق في الكمال إلى أبعد غاية.

فهل انتهت هذه الدعوة الإسلاميَّة؟ هل أظلم قلب المسلم؟ هل ذلت نفسه؟ هل ذهب الخنوع بآماله؟ هل رده الدهر إلى الصغار، وأنزله اليأس إلى القرار؟ هل يئس المسلم من السيادة، ورأى أن يُسلم قِياده؟.

كلا كلا! إن في الإسلام من المثل والأخلاق والفضائل والعزة والإباء والسمو والتاريخ الوضاء ما يملأ المسلمين حياة وآمالًا وطموحًا واعتزامًا، لم تنته دعوة الإسلام ولكنها اليوم تقوى وتعظم، وقد تهيأ الزمان لها، ومهدت الحادثات سُبُلها،

بدأ الإسلام دعوته منذ أربعة عشر قرنًا ولكنها لم تبلغ غايتها وأجد بها اليوم أن تبلغها.

ما تزال النفوس الإنسانيَّة طماحة إلى السمو، نزَّاعة إلى الخير، مفعَّمة بحب الحقِّ والعدل، توَّاقة إلى الأخوّة والحرية، فلن تقف دعوة الإسلام.

ما يزال المسلم الحق يرى نفسه خليفة الله في الأرض، مكلَّفًا أن يقيم العدل بين الناس، موكلًا بنصرة الخير ومحاربة الشرِّ، أنىَّ كان ومتى استطاع، كل الأرض داره، وكل الزمان وقته، فلن تقف دعوة الإسلام.

ما يزال المسلم ينطوي على عزَّة تقهر الخطوب، وأمل يغلب الزمان، ونفس لا تسف، وقلب لا يذل، وما تزال سيرة محمَّدٍ في عقله وقلبه، ولا يزال مجد الإسلام ملء جوانحه، ولا تزال كلمة الحقِّ والعدل ملء ضميره، فلن تقف دعوة الإسلام.

إن دعوة الإسلام لا تقف حتى يموت الخلق العلي، والقلب الأبي في نفوس البشر.

وقل للذين يزعمون أنهم حماة الإسلام[1]: ما أذل الإسلام إن ابتغى في غير أولاده حماة! وما أذل المسلمين إن رضوا بغير حماية الله! يا حسرة على الحقِّ إن التمس من الباطل حاميًا، ويا خسران العدل إن ابتغى من الظلم واليًا، وويل لورثة محمد إن لم تحمهم سيرة محمد وخلفائه ومن أنجبتهم العصور من أئمته وأبطاله.

إنَّ في دين المسلم، وإن في قلب المسلم، وإن في خُلق المسلم، ما يربأ به عن كلِّ دنية، ويصمد به إلى كلِّ هول، ويثبِّته في كلِّ كارثة، ويسمو به إلى مقصد جَلَلٍ.

---

(١)روى عن موسوليني يومئذ أنه قال إنه حامى الإسلام أو المسلمين.

.أيُّها الحماة الأبرار! لقد أدرتموها على المسلمين حربًا طاحنة في المشرق والمغرب، وغزوتموهم بالسلاح والفتنة والفرية، وكدتم لهم في السر والعلانية، واستبحتم فيهم كل منكر، حتى إذا ظننتم أنهم هانوا وذلوا، ويئسوا وملُّوا، قلتم: هلمَّ أيُّها الضعفاء، فنحن الحماة الأقوياء!

أيُّها الحماة! شد ما قسوتم على المسلمين ثم شد ما رفقتم بهم!

أيُّها الحماة! لقد تعلمون أن بضعة ألوف من بني الإسلام ثبتوا لكم وسخروا بقواكم وفنونكم، وأساطيلكم وجيوشكم وطياراتكم أكثر من عشرين عامًا ولم يكن سلاحهم إلا عزة الإسلام ومجد الإسلام(1).

سلاحهم عزيمة الجهاد
وقوتهم ما سلبوا الأعادي
يصابرون الأكبد الصوادي
ويأكلون الجوع في البوادي
قد يئسوا يأسًا من الأمدادِ
إلا ثبات القلب في الجلادِ
ونصرة الرحمن للعبادِ

* * *

أبت لهم كرامة الإسلامِ

(١) أعني مجاهدي طرابلس.

أبـــى إبـــاء العـــرب الكـــرامِ
أن يـــسلموا الأوطـــان دون الهـــامِ
مُنْيـــتهم مـــشارع الحِـــمامِ

فلما تكسر في أيديهم كلّ سلاح، وأعوزهم كلُّ قوتٍ، وضاق على عزائمهم كلُّ مجال، خرجوا من ديارهم أنفة أن يروا الصَّغار في الديار، وإباء أن تجمعهم والمذلةَ أرضٌ، وهم اليوم مشردون في الأقطار، قد نالت الخطوب من أموالهم ونعيمهم ودَعتهم وجسومهم، ولم تنل من أنفسهم، فكلّ منهم عَلم جهاد، وصحيفة فخارٌ، وسجل مآثر، وشهادة ناطقة بما تتجاهلون من العزة الإسلاميَّة، والأنفة العربيَّة.

إلا إنَّ الإسلام لم تنته دعوته ولم تضعف كلمته، وسيبقى كلمةَ الله في الأرض، ودعوتَه إلى الحقِّ، وحجته على الخلقِ، في أمره بالتوحيد والأخوة والحرية، والعمل في الحياة على أقوم السنن، إلى أكرم الغايات.

ألَّا إنَّ الإسلام دعوة إلى الحياة لا تموت، ودعوة إلى الحريَّة لا تُستَعبَد ودعوة إلى العزَّة لا تذلُّ، ودعوة إلى العمل لا تفترُ.

ألَّا إنَّ الإسلام دعوة إلى السلام والإخاء، وإلى الصدق والوفاء، فإن دارت به الأكاذيب، واجتمعت عليه الأباطيل، وسيم الهوان، وقوبل بالعدوان، فهو دعوة إلى العزَّة والإباء، والصبر على اللأواء، والموت في سبيل الحق، والخلود من وراء الموت.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

لا غالب إلا الله..!

ذهبتُ البارحة إلى مسرح الحمراء، وقد سمى الأوربيُّون كثيرًا من ملاهيهم باسم الحمراء بعد أن حرَّفوه إلى الهمبرا، سألت نفسي في الطريق كيف حرف الاسم هذا التحريف؟ قالت: إنَّ الزمان ليطمِس الأعيان ثم يذهب بالآثار، فما إبقاؤه على الأسماء؟ أشفقت من هذا الحديث أن أتغلغل فيما وراءه من آلام وأحزان، فقلت: فيمَ الفِرار من الكدِّ والعناء إلى الملهى إن بدأتَ بالمراثي والمصائب؟.

أخذت مكاني بين الجالسين فسرَّحت طرفي في نسق عربي من البِناء والنقش، وإذا منظر يفتح لي من التاريخ فجاجًا ملأى بالأهوال والعِبر.

لبثت أتأمل البناء متحرزًا أن أجتازه إلى ما وراءه من خطوب التاريخ، وما زلت أصوِّب النظر وأصعِّده في المسرح حتى جمد البصر على دائرة في ذِروته لاحت فيها أحرف عربية، فكنت وإياها غريبين في هذا الجمع «وكل غريب للغريب نسيب» بل كنت وإياها نجيّين في هذا الحفل لا يفهمها غيري، ولا تأنس من الوجوه الحاشدة بغير وجهي، أجهدت البصر الكليل في قراءة الأحرف فإذا هي: «لا غالب إلا الله»

يا ويلتاه! شعار بني الأحمر الذي حلُّوا به قصورهم ومساجدهم، ويل لهذه الكلمة الجليلة الغريبة في هذا الملهى الأعجم؟ قرأت هذه الكلمة فإذا هي عنوان لكتاب من العبر قلّبته صفحةً صفحة ذاهلًا عما حولي فلم أنتفع بنفسي في مشهد اللهو واللعب، ولم تحس أذني الموسيقى والغناء، أغمضت عيني عن الحاضر لأفتحها على الماضي، وصمت الأذن عن ضوضاء المكان، لتُصيخ إلى حديث الزمان، وناهيك بجولان الفكر طاويًا الأعصار، منتظمًا البوادي والأمصار، واثبًا من غيب التاريخ إلى

الحاضر ومن الحاضر إلى غيب التاريخ.

شهدت في ساعة جيوش طارق غازية من الزقاق إلى البرتات، وشهدت مصرع عبد الرحمن الغافقي في بلاط الشهداء، وشهدت جِلاد الأجيال من المسلمين والأسبان، ورأيت عبد الرحمن الناصر في حربه وسلمه ملء العين جلالًا ورهبة، وملء القلب عدلًا ورحمة.

ورأيت البطل ابن أبي عامر يحالف الظفر في خمسين غزوة، ويُبعِد المُغار حيث نكصت الهمم والعزائم من قبله، ورأيت دولة الأمويين تزلزل، فتتصدّع، فتنهار، وأبصرت ملوك الطوائف يتنازعون البوار والعار، ويؤدون الجزية إلى الفونس السادس صاغرين.

ثم سمعت جَلَبة جيُوش المرابطين يَقدمُها يوسف ابن تاشفين، وشهدت موقعة الزلّاقة القاهرة، ثم رأيت راية المرابطين تَلقَف رايات ملوك الطوائف.

وهذه دولة الموحدين، وهذا المنصور يعقوب بن يوسف في موقعة الأرك يحطم جيوش الأسبان بعد الزلاقة بمائة عام، ورأيت موقعة العقاب وقد دارت على المسلمين دوائرها، والناصرُ بن يعقوب يفرُّ بنفسه بعد أن اقتحمت عليه المنايا دائرةَ الحراس.

ورأيت غرناطة وحيدة في الجزيرة يتيمة، قد ذهبت أترابها، وصارت كما قال طارق يوم الفتح: أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام؛ ولكنها على العِلات، ورثت مجد المسلمين وكبرياءهم، فجالدت الدهر عن نفسها مائتين وخمسين عامًا، وَحَمت حضارة المسلمين على رغم الوائب وكَلَب الأعداء، ثم رأيت أشراط الساعة:

رأيت أبا الحسن وأخاه محمدًا يتنازعان السلطان على مرأى من العدو ومسمع، ورأيت أبا عبد الله ينازع أباه الحسن ذلك الملك المائل، والظلَّ الزائل، ورأيت العِراك المديد بين أبي عبد الله وعمّه الزغَل كما تتناطح الخراف في حظيرة القصاب، وتلك جيوش فرديناند وإيزابلا تنيخ على مدينة بعد أخرى، وتدُكُّ معقلًا بعد آخر.

ومالقة تجاهد الكوارث جهاد المستميت، والزغلُ يشقُّ الأهوال إليها لينقذها فيقطع أبو عبد الله طريقه ويردّ جنده، مالقة في قبضة العدو وأهلها أسارى يباعون في الأسواق ويتهاداهم الملوك والكبراء، وها هو الزغل يُسلم وادي آش إلى العدو على منحة من الأرض والمال، ثم يعيا بأعباء المذلَّة والهوان فيهاجر إلى المغرب.

ثم شهدت يوم القيامة:

الجيوش محيطة بغرناطة وأهلها يغيرون على العدو جَهدَ البطولة والاستبسال، والصبر، ثم يُغلق عليهم الضعف أبواب المدينة، وهذا شهر ربيع سنة سبع وتسعين وثمانمائة، وأبو عبد الله يسير إلى فرديناند في كوكبة من الفرسان لا محاربًا ولا معاهدًا، ولكن ليسلم إليه مفاتيح الحمراء، نظرت الصليب الفضي الكبير يتلألأ على أبراج القلعة، وبكيت مع أبي عبد الله وهو يودع معاهد المجد وملاعب الصِّبا من الحمراء وجَنَّة العريف، وسمعت أمه عائشة تصرخ في وجهه: «ابك اليوم كالنساء على ملك لم تحتفظ به احتفاظ الرجال» فينهل دمعه، وتتصاعد زفراته على الأكمة التي يسميها الأسبان اليوم «آخر زفرات العربي».

وهذا أبو عبد الله، وهو الذي باء بأوقار من العار والذل، تأبى فيه بقية من الشمم العربي أن يقيم على الضيم فيهاجرُ إلى المغرب، ويرسل إلى سلطان فارس من بني وطاس رسالته الذليلة المسهبة يدفع عن نفسه ما قُرِف به في عرضه ودينه،

ويشكو إلى السلطان حزنه وبثه ويقول:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم رَعيًا لما مثله يُرعى من الذِّمم

بك استجرنا ونعم الجارُ أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم

عيّ رأسي وقلبي بهذه الأحداث الكارية، والخطوب المتلاحقة، وهالتني هذه المشاهد المفظعة، فخرجت من هذه الغمرة مرتاعًا كما يستيقظ النائم عن حلم هائل.

نظرت أمامي فإذا المسرح، وصعّدت بصري فإذا الدائرة: «لا غالب إلَّا الله!».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بلال يؤذِّن

كاد الليل ينسلخ عن النهار، وبشّرت بالصبح أنفاس الأسحار، والدجى مهوِّد وسنان، يخشى في المشرق ذَنَب السِّرحان[١] والناس هاجدون كأنهم أيقاظ وكأن آذانهم مصيخة تلقاء المسجد، تتحين دعاء المؤذن، وكأن قلوبهم إبر المغناطيس ترصُد قطبَها، وتتجه إلى إمامها، والإمام هاجد يرعاه ربه، تنام عيناه ولا ينام قلبه، وملء الأرض والسماء السكينة والسلام.

وسرى في أحشاء الليل سار كطيف الخيال في ظلمات الليالي، اتخذ من الليل إهابًا، وطوى من الصبح قلبًا وجَّابًا «آدم شديد الأدمة، نحيف طُوال أجنأ كثير الشعر، خفيف العارضين، به شمَط، تحمل جمَّته الشمطاء تباشيرَ الصبح الوضاء».

ويرتقي دار المجلس مقلبًا وجهه في السماء ثم ينتفض قائمًا، فيبعث في حواشي الظلماء صوتًا يجلجل في الأرجاء: الله أكبر الله أكبر - الله أكبر الله أكبر! أترى فلول الظلام مذءودة تلوذ بالباطل المنهزم، أم ترى الباطل مذعورًا يلتف في تلك الظُّلم؟ أترى ذلك النور المنبثق من الأفق الشرقي، بسمةَ الفجر الصادق لهذا الصوت الإلهي؟ أم ترى ذلك النور الوضاء، استجابة النهار لهذا النداء؟ ليت شعري أيهما الصباح، وأيهما أذان بلال بن رباح؟

ويمضي بلال يصدع قلب الظلام، بشهادتي الإسلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله. ثم يحيعل بالصلاة والفلاح ثم يعيد التكبير في تمديد، فيختم بكلمة التوحيد: لا إله إلا الله.

---

(١) ذنب السرحان الفجر الكاذب.

ويحسب بلال أن صوته لم ينفذ إلى القلوب، فلم تتجافَ عن مضاجعها الجنوب، فيثوّب بالقوم: الصلاة خير من النوم.

يتهلل وجه الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم لصوت الحق مدوّيا في أعقاب الباطل، يبسم لصوت الحق عاليًا طليقًا يملأ ما بين الأرض والسماء، والمشرق والمغرب، يبسم حين يسمع دعوة الحق في قلب الجزيرة العربيَّة على لسان عبد حبشيٍّ، وهل في شرعة الإسلام عبد وحر؟ وهل في سنَّة محمد عربيٌّ وحبشي؟ وتنبعث في كل أذن من هذا الصوت بُشرى، وفى كل قلبٍ من هذا النور إشراق، فيهبُّ الأصحاب من مراقدهم تقشعر جلودهم وتطمئن قلوبهم، فتستيقظ كل دار بأهبة الصلاة من الرجال والنساء والولدان.

وينزل بلال فيقف بباب الحجرة النبويَّة قائلًا: «حي على الصلاة، حي على الفلاح، الصلاة يا رسول الله».

ويسفر النهار وتنثال الجموع إلى المسجد، فانظر من ترى: يخرج نفر إلى المسجد من خوخات في دورهم؛ فهذا الآدم الربعة عظيم العينين ذو البطن، علي بن أبي طالب، يخرج من حجرة فاطمة، وهذا الطويل الجسيم الأصلع عمر الفاروق، وهذا الأسمر الرقيق البشرة ضخم المنكبين كثير شعر الرأس عظيم اللحية عثمان ذو النورين، والصديق كان في السُّنح هذه الليلة فيقدم مسرعًا فتراه أبيض نحيفًا مغروق الوجه غائر العينين خفيف العارضين أجنأ، ويقبل من دور بنى زُهرة بجانب المسجد ثلاثة: أحدهم قصير دحداح ذو هامة عظيمة شثن الأصابع، كثير الشعر، يخضب بالسواد هو سعد بن مالك بن أبي وقاص، والثاني آدم نحيف قصير له شعر يبلغ ترقوته، يلبس ثوبًا ناصع البياض، تضوع منه ريح الطيب، يمشى في وقار وسمت، هو عبد الله بن مسعود، والثالث ضخم طويل شديد الأدمة هو المقداد بن الأسود.

وانظر هذين الرجلين: هذا الطويل الجسيم خالد بن الوليد، وهذا القصير الأبلج الأدعج عمرو بن العاص، وفى أثرهما رجل جميل عظيم الهامة مكتحل يخطر في مشيته هو معاوية بن أبي سفيان، وبجانبه رجل نحيف طوال معروق الوجه خفيف اللحية أجنأ أثرم الثنيتين هو أبو عبيدة بن الجراح.

ويقبل من ناحية الحرة الشرقية رجلان: سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وهذا الرجل الطويل النحيف كثير الشعر الذي عليه سما الحزن هو سلمان الفارسي، ووراءه رجل ربعة أحمر شديد الحمرة كثير شعر الرأس، يخضب بالحنَّاء، هو صهيب الرومي.

وانظر بين الجمع طلحة والزبير وأبا موسى الأشعري، وأبا أيوب الأنصاري.

ويأتي بنو الصحابة: فهذا الغلام الطويل الأحمر عبد الله بن عمر، وهذا الغلام الطويل الأبيض المشرب بالصفرة الجسيم الوسيم الصبيح الوجه عبد الله بن عباس، وهذا الصبي الذي يشبه أبا بكر عبد الله بن الزبير.

ويخرج رسول الله صلوات الله عليه، فيقيم بلال الصلاة، فيسوي الرسول الصفوف، ويسد الفُرَج فيها ويكبر فيكبرون، ويذهب هذا التكبير نغمة متَّسقة بين ضوضاء العالم وجلبته، ودعوة للحقِّ بين أكاذيبه وأباطيله، يذهب هذا التكبير في الأرجاء طمأنينة لقلوب ورعدة لقلوب ورجاء لقوم، وخوفًا لآخرين، يبشر الضعفاء والمظلومين بملكوت الله في الأرض، وينذر الجبارين والظالمين بالقصاص العادل، إنما مزق شمل الظالمين هذه الصفوف لا صفوف القتال، وإنما زلزل عروش الجبارين ذلك التكبير لا وقع النبال، ويقرأ الرسول في الركعة الأولى آيات من سورة النور منها:

{وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون}.

ويقرأ في الركعة الثانية آيات من سورة الحج منها:

{إن الله يدافع عن الذين آمنوا، إن الله لا يحب كل خوَّان كفور، أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور}.

هذه جماعة يمحصها الله ليورثها أرضه، ويعلمها لتقوم بين الناس بعدله، هذا الصف من العبَّاد يجمع خلفاء الأرض وأمراءها ووُلاتها وقضاتها ومعلّميها وقوَّادها وجندها، تلك الشِّرذِمة من الزهاد ورثة العروش والتيجان عمَّا قليل، يقسم الله رزقه بأيديهم، ويصرِّف حكمه في الأرض بألسنتهم، جماعة تضمهم جُدُر المسجد اليوم ولا يسعهم العالم غدًا، جماعة تحويهم أرض ضيقة بين لابتين، ينتشرون بين المشرقين والمغربين، وستجف الأرض بحملاتهم وتقرّ بعدلهم وتضيء بإيمانهم.

قضيت الصلاة وانتشر المصلون.

لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده، قد فتُحت بهذه الجماعة الأقطار، وعُمِرت بهم الأمصار، هذا عمر في الشام، قد أزال عنها سلطان

الروم، ثم جاءها ليبرم العهود، ويتفقد الرعية، وهذا بلال في جيش المجاهدين غازيًا، ينظر عمر إلى بلال يوّد أن يسمع أذانه ويهاب أن يستمع لمؤذن رسول الله، ويقول الناس لعمر: لو أمرت بلالًا أن يؤذن! فيقترح عمر على بلال الأذان، فينهض الشيخ ابن السبعين تحت أعباء السنين، فيدوِّي في الأرجاء: الله أكبر الله أكبر.

لقد كان أذان الشام تصديق أذان المدينة... أجل أجل لقد صدق الله وعده ففتحت الجماعة الصغيرة الممالك، ودوَّى أذان المدينة في الآفاق.

ولكن انظر إلى عمر، ألا تراه ينشج؟ ألا ترى دموعه تبُلّ لحيته؟ ألا ترى القوم في بكاءٍ ونحيب؟ فما أبكاهم؟ لقد نصرهم الله ومكّن لهم في الأرض وأغناهم وأعزهم فما دهاهم وما أبكاهم؟

يبكون إذ رأوا المؤذن ولم يروا الإمام، يبكون إذ سمعوا مؤذن رسول الله، ثم نظروا فلم يجدوا رسول الله.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الكعبة

هذه البَنِيَّة المكرَّمة، هذا البيت المعظَّم، هذه الكعبة المشرَّفة، لا يعرف لها تاريخ البشر مثيلًا؛ بيت فيه أمارة التوحيد الخالص والحنيفيَّة السمحة، خلا من الأوثان والأصنام والصوز والزخارف والنقوش، وقام رمزًا لتوحيد الله، ولاتحاد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، تهفو إليه أفئدة المؤمنين حيثما كانوا وتخفق له قلوبهم أينما حلوا، وتتوجه إليه قلوبهم أنَّى توجهوا، فلو أنَّ بيتًا صُوِّر من سواد العيون أو سُوَيداوات القلوب لكان هذا البيت الكريم لا تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وآلاف الآلاف من الوجوه والقلوب متوجهة إلى هذا البيت، مرتفعة إلى ربِّه قراءتهم وتسبيحهم مرسلة إليه آمالهم وآلامهم، كذلك هو منذ أوحى الله إلى نبيِّه دينه، ودعا النبيّ إلى هذا الدين، واستجاب المسلمون لهذه الدعوة، فهل يعرف بيت آخر على هذه الأرض، وعلى طول التاريخ، تطمح إليه الأبصار وتَوجّه إليه الأفئدة بضراعتها ودعائها واستغفارها وبرجائها وأملها في كلِّ زمانٍ وفي كلِّ مكانٍ؟.

إنَّ كلَّ مغناطيس على الأرض يتَّجه إلى القطب أبدًا، إن أدرته عنه دار إليه، وإن صرفته جهد طاقتك لم ينصرف عنه، وإن أحطته بآلاف الحُجُب فهو موصول به نازع إليه، فما أشبه قلوب المسلمين في توجهها إلى الكعبة بالإبر المغناطيسيَّة التي تتجه إلى قطبها ليل نهار على بعد الأقطار، واختلاف الأمصار، وشتان بين القلوب النابضة والإبر الجامدة.

وقد جعل الله هذا البيت مثابة للناس وأمنا، حرَّمه وحرَّم البلد الذي هو فيه، وحرَّم أرضًا حول هذا البلد، جعلها أمنًا للإنسان والحيوان الأعجم والنبات، فزائر هذا البيت في حُرُمات مضاعفة، وقدسية موكدة وأمن مظاهر، وقد جعل حول

الأرض المحرَّمة مواقيت يحرم منها القاصد إليه فيتحرر من اللباس والزينة حتى لا يمتاز قوم من قوم، ولا غني من فقير ليدخل الناس إلى هذا الحرم، ثم إلى هذا البيت أمّة واحدة تعبد إلهًا واحدًا اتحدت ظواهرها وبواطنها، وعقائدها وعواطفها، واجتمعت على البرِّ أيديها وألسنتها وقلوبها وأعمالها، وإنَّ في ذلك لآيات.

وتؤم وفود المسلمين هذا البيت الذي اتجهوا إليه على بعد الديار، فيرون قبلتهم عيانًا، وبيتهم جَهرة، يصلُّون حوله في كلِّ جهة، قد امَّحت المسافات والجهات، فهم عند هذا البيت كإبر المغناطيس إذا بلغت قطبها، تدور في كلِّ جهة؛ لا شمال ولا جنوب ولا شرق ولا غرب، ومن دخل البيت صلَّى في مكانه إلى كلِّ الجهات، إذ بلغ المركز الذي تتجه إليه وجوه المسلمين وقلوبهم في الأقطار كلِّها، مركز الدائرة التي تجمع المسلمين على العقائد الحقَّة، والعمل الصالح والخلق البَر، والجهاد لخير الدنيا والآخرة، والأخوة والمودَّة، إنَّها الوحدة المحسّة، والأخوة المجسّمة، والمحبة الممثَّلة، لا يعرف لها حاضر البشر مثيلًا، ولا يذكر لها ماضيهم نظيرًا.

ما أبصرت هذه الكعبة الكريمة إلا تخيلت بناء من العقيدة المحكمة والتوحيد الخالص، وإلَّا تمثلت أدعية الداعين في المشرق والمغرب، وآهات الضارعين، بالليل والنهار تهوى عليها وتطيف بها في الغدو والآصال. والبكر والأسحار، مع أنفاس الطائفين ومع أشعة الشمس والقمر ونسمات الهواء.

وما طفت حولها إلا تمثلت هذه الدائرة الإسلاميَّة الجامعة تدور حول هذا المركز الحقّ الذي لا يتبدَّل ولا يتغيَّر.

وكم عبرة وذكرى في هذه الوجوه الطائفة بل القلوب الخائفة، بين غنيٍّ وفقير، وقويٍّ وضعيفٍ، وقادرٍ وعاجزٍ، أغناهم في هذا المقام أفقرهم، وأقواهم أضعفهم،

وأقدرهم أعجزهم؛ بل لا غني ولا فقير، ولا قوي ولا ضعيف، ولا قادر ولا عاجز، إخوة متساوون، وجماعة موحدون، وأفراد على الحقِّ يجتمعون، قد امَّحت بينهم الفروق، وضلَّت الأشخاص والأعداد وبقي الخضوع لله الواحد القهار.

{إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون}.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الحجُّ

{وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق}.

ما يزال هذا الأذان مدوِّيًا في الآفاق، تُصيخ إليه الآذان، وتستمع إليه القلوب، فتستجيب له أقطار الأرض باعثة بأفواجها تَفيض بهم السبل، يحملهم البر والبحر والهواء صوب الأرض المقدسة، شطر القطب الذي إليه تتوجه قلوب المسلمين، نحو مركز الدائرة الإسلاميَّة الذي يدور حوله المسلمون وإليه ينتهون.

ما يزال هذا الأذان مدوِّيًا يجلجل في جوانب الأرض فتُصيخ إليه الآذان والأفئدة، وتستجيب أفواج البشر ميممة أرض الحجاز، وما تزال هذه الدعوة مستجابة تهفو بها أفئدة المسلمين إلى هذه البقعة المباركة من هذه الجزيرة العظيمة جزيرة العرب.

هذه البواخر تمخر في اليم من أرجاء الأرض مشتاقة إلى الحرمين لا تبعد عليها غاية، ولا يَثنى من عزائمها هول.

وهذه الطائرات في أجواز الفضاء كالطير مسخَّراتٍ في جو السماء، تطير بالشوق والحب إلى مهوى الأفئدة ومطمح الأبصار.

وهذه السيارات تخد البراري والصحاري، تشق سهلها وحزنها وعامرها وغامرها، وجَردها ووَعثها، تذلل ما صعب وتقرِّب ما بعد، عليها وفود البيت الحرام يجوبون الفلوات، ويحتملون المشقات، ويستسهلون كل صعب إلى مقصدهم العظيم.

ثم هؤلاء المؤمنون الصابرون، أولو القوة والعزم، وأهل الجلد والصبر الذين لا يجدون ما يحملهم فتحملهم عزائمهم، ويحملون أوزارهم وهمومهم {آمين البيت الحرام يبتغون فضلًا من ربهم ورضوانًا}، غير مبالين بالشقة البعيدة، والفيافي القاحلة، هازئين بالجوع والعطش، والحر والبرد، والنصب والجهد، إيمانهم وآمالهم وعزائمهم أوسع من كل صحراء، وأثبت من كل هول، وأحر من كل بيداء محرقة، تراهم في السبل يحملون أزوادهم راجلين بالليل والنهار لا يفكرون في شيء ولا يبالون بشيء إلا المقصد العظيم والغاية الجليلة التي خرجوا إليها، إنَّه الإيمان لا يتزعزع، والعزم الذي لا ينثني، والصبر الذي لا يقهر.

إنَّ البصر والخيال ليريان هذه القوافل تشقُّ البرَّ والبحر والهواء شهورًا متوالية لا تخلو ساعة من ليلٍ أو نهارٍ من قُصَّاد الحجاز، حُجاج البيت، وفود الأرض المقدَّسة يحملهم الشوق على طائرة أو باخرة أو سيَّارة أو على الأقدام.

يؤم هؤلاء الحجيج على اختلاف أقطارهم وألوانهم، الأرض التي نشأ فيها دينهم، وعاش فيها نبيُّهم، ووُلد تاريخهم، ويقصدون القبلة التي يتجهون إليها على نأي الدار وبعد المزار، وتخفق لها قلوبهم وتهفو إليها أفئدتهم.

يدخلون إلى هذه البقاع وقد جمعهم توحيد الإسلام وربطت بينهم أخوته وأخلصوا دينهم لله وتجردوا من أزياء الأوطان وشارات الأقوام، سواء قريبهم وبعيدهم، ومشرقيهم ومغربيهم، وأسودهم وأبيضهم، وغنيهم وفقيرهم وقويهم وضعيفهم، فإنَّما هو التوحيد الخالص والأخوَّة الجامعة، والقلوب المجتمعة، والمقاصد المتفقة لا تشغلهم ديار ولا أهل، ولا تفرقهم منازع ولا عصبيات {إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون}.

هنا الإسلام الحق الذي وحَّد الله، وسوَّى بين خلقه، وآخى بين عباده، إنك لا ترى أجسامًا ولكن معاني يجمعها كلها توحيد الله وأخوة المؤمنين.

ولو ترى هذه الوفود طائفين بالكعبة ليل نهار، مصلين حولها صباح مساء وتخيلت الجماعة الإسلاميَّة من ورائهم متلاحقة متوالية وقلوبهم ووجوههم إلى هذا البيت، لتمثلت الأمَّة الإسلاميَّة كلُّها جماعة واحدة قائمة تصلِّي شطر البيت الحرام، وعرفت جلال هذا الدين، وعظمة هذا الحج، وحكمة هذه القبلة، وتوحُّد هذه الأمَّة، وتبينت غفلة المسلم الذي لا يبصر هذه الجماعة، ولا يدرك هذه الأخوَّة، ولا يقدُر هذه الشعيرة، بل غفلة المسلمين جميعًا حين لا يبلغون بالحج مقصده ويسيرون به إلى غايته من التأليف بين المسلمين، والجمع بينهم، والائتمار فيه بما ينفعهم، والتشاور فيما يحزُبهم، والعمل لما يسعدهم في دينهم ودنياهم.

وتمثلهم وقوفًا في عرفات حاسرين خاشعين، ملبين داعين، تكاد تتفق خفقات قلوبهم اتفاق كلماتهم ونياتهم، تتمثل المسلمين كلهم في صعيد، والإسلام جميعه في موقف، قد اجتمعت أوطان المسلمين في هذه البقعة، وحشر تاريخهم في هذه الرقعة، أليست هذه الوقفة تجمع أوطان الإسلام جميعها؟ أليس هذا الاجتماع حلقة في سلسلة من التاريخ أولها وقوف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه قبل سبع وستين وثلاثمائة وألف سنة اتصلت بها حلقات لا تنقطع، وعرى لا تنفصم، حتى يومنا هذا، هنا الإسلام حاضره وماضيه {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب}.

إن هذا الحج لجدير أن يجرد المسلم من عصيانه وأهوائه، ويصفِّي نفسه، ويطهر قلبه ثم يربطه صافيًا طاهرًا بأخواته، ويؤلف بينه وبين غيره في جماعة المسلمين المؤتلفة، وأخوَّة المؤمنين المحكمة، ولكن هذه الجموع المحتشدة من أقطار الأرض، وهذه الأفواج المجتمعة من آفاق البلاد لا ييسر لها التعارف والتعاون إلا نظام محكم

وخطة جامعة يتسنى بها التزاور والتعارف والاجتماع والتشاور في أمور المسلمين وأحوالهم.

فلا بد أن يعمل المسلمون لهذا، ولا بد أن يتهيأ لخاصتهم الاجتماع بعد الحج لينظروا في أدواء المسلمين ويَطبّوا لها، ويتعرفوا الصالح والفاسد من أمورها فيتوسلوا إلى حفظ ما صلح وإصلاح ما فسد، ويطلعوا على المسلمين كل عام بالرأي السديد والدواء الناجع فيما يحزبهم في هذا العالم المضطرب التي تُمتحَن فيه العقائد والسنن الإسلاميَّة بالآراء الفاتنة، والمذاهب الضالة، والفتنة الفاشية التي لا يثبت لها إلَّا من ثبته الله بعقل حكيم وخلق قويم.

إن المسلمين اليوم في غمرة من الفتن المحيطة، والمكايد المحدقة، والأهواء المضِلّة، فلينظروا لأنفسهم، وليسارعوا إلى العمل لصون عقائد الإسلام وشرائعه وسننه وآدابه.

إن موسم الحج لأجدر المجامع أن ينتفع به المسلمون، وأنجع الوسائل للتشاور فيما يهمهم والعمل لما ينجيهم فليعملوا ثم ليعملوا والله يهيء لهم الرشدْ، ويهديهم سنواء السبيل.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

يوم عرفات

أترى الحجيج زرافات، يُهْرَعون إلى عرفات، بعثتهم الأرجاء البعيدة إلى ساحة القُرب، وأرسلتهم البلاد المختلفة إلى أرض الوحدة، قد خلعوا ثيابهم فخلعوا الفرقة والخلاف، وطرحوا كل ما صنعوا لأنفسهم من عظمة وحقارة، وسيادة وعبوديَّة، ونبذوا ما خاط عليهم الزمان من عداوة وبغضاء، ونزعوا ما في صدورهم من غلٍّ، وما في نفوسهم من شهوات، والتفُّوا في ثوب من المساواة واحد، وصيغوا جميعًا صوغ إنسان فرد، عبيدًا لله وأخوة في الله، هذه الإنسانيَّة في أبهر حقائقها وأخفى أسرارها.

اتحد الفكر في رءوسهم والشوق في ضمائرهم، تكاد تتفق خفقات قلوبهم، ويتحد تردد أنفاسهم، فهم نغمات موزونة، ولحون منظومة، وقصيدة موحدة الرويّ، مؤتلفة القريّ، بل هم واحد ذو أسماء متعددة، أو ظلال لحقيقة واحدة، ليس في أفئدتهم وعقولهم إلَّا الله الواحد، وليس في نزعاتهم إلا الأخوّة الشاملة.

أتسمع التلبية يسيل بها كل واد، وتُنزع بها الوهاد، وتدوّى بها النجاد، ترفعها الأدوية إلى الهضاب، وتسيلها الهضاب إلى الأدوية، فما الهواء إلا نبرات هذه القلوب، وزفرات هذه الصدور، والأرض راجفة خاشعة كأنما اختلاج الناس على جلدتها، قُشَعريرتها ورِعدتها.

أترى الناس على عرفات ألفاظًا كثيرة من أحرف قليلة، أو كلمات عدة ترادفت على معنى واحد، وقد تجلَّى هنالك الله وحده فلست ترى هنالك إلا عبده.

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. اللهم هذا جنابك الذي يهفو إليه

الناس، فيصيح العصاة حتى أبو نواس:

إلهنا ما أعْدَلَكْ　　مليكَ كلّ من ملكْ
لبّيْكَ قد لبّيْتُ لكْ (١).
لبيْكَ إن الحمدَ لكْ　　والمُلْكَ لا شريكَ لكْ
ما خابَ عَبْدٌ سألَك　　أنْت له حيثُ سلَكْ
لولاكَ يا ربّ هلَكْ
لبيْكَ إن الحمدَ لكْ　　والمُلْكَ لا شريكَ لكْ
كلّ نبيٍّ وملَكْ　　وكلّ عبدٍ سألَكْ
سبّحَ أوْ لَبّى فَلَكْ
لبيْكَ إنَّ الحمدَ لكْ　　والمُلْكَ لا شريكَ لكْ
واللّيْلَ لمّا أن حلكْ　　والسابحاتِ في الفلَكْ
على مجاري المنْسلَكْ
لبيْكَ إنَّ الحمدَ لكْ　　والمُلْكَ لا شريكَ لكْ
يا خاطئًا ما أغفلكْ　　إعمل وبادر أجلكْ
واختم بخير عملكْ
لبيْكَ إنَّ الحمدَ لكْ　　والمُلْكَ لا شريكَ لكْ

لبيك ربنا قد تركنا الأقوام والشعوب، ونبذنا الأضغان والحقود، وطرحنا الباطل وزخارفه، والزور ووساوسه، والتكالب على الحطام، والاعتراك على الشهوات والخصام، وتركنا الأنيس يفترس الأنيس، والناس يقودهم إبليس، وجئنا إلى ساحتك بأبصار كليلة تبغي نورها، ونفوس عليلة تطلب بُرءها، وقلوب صدئة

(١) تلبية نظمها أبو نواس حينما حج.

تلتمس جِلاءها وعقول مظلمة ترجو ضياءها، جئنا بأوقار من الذنوب، وأوزار من العيوب، فامحق الأوزار وارجعنا من الأطهار، اللهم بصيصًا من هداك ينير الظلمات، وقبسًا من علمك يكشف الشبهات، وقطرة من رحمتك تحيي الموات.

اللهم وهذا مقام رسولك الأمين، وهذا صوته المبين، لا يزال يرن في الآفاق ويخترق السبع الطباق «أيُّها النَّاسُ إنَّ دماءَكم وأموالَكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومِكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت اللهم اشهد».

«أيُّها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعْبَد في أرضكم هذه ولكنَّه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم».

«فلا ترجعُنَّ بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنِّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلُّوا بعده: كتاب الله، ألا هل بلغت اللهم اشهد».

«أيُّها النَّاس إنَّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربيٍ فضل على عجميٍّ إلَّا بالتقوى ألا هل بلغت، اللهم اشهد»[1].

اللهم هؤلاء الحجيج عطاش وردوا شِرْعتك، فانقع غلتهم، وسَفر لوَّحتهم الشمس، ولفحتهم السموم فهُرِعوا إلى ظلك فأظِلّهم، وضُلَّال انبهمت عليهم السبل فأرهم الطريق لاحِبَةً، والصُّوى واضحةً، وأعداء فألف بين قلوبهم، ومختلفون فوحِّد كلمتهم، ومتناكرون فعرف بعضهم بعضًا.

اللهم هذا ثجليك فماذا تغني الكلِم، اللهم قد عيّ اللسان ووقف القلم.

---

(١) جمل مقتبسة من خطبة الوداع.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

من مؤتة إلى اليرموك

- ١ -

في العام الثالث بعد الستمائة من الميلاد، وذلكم قبل بعثة الرسول بستٍّ سنين، اشتعلت الحرب بين الروم والفرس، وهي حلقة من سلسلة طويلة من الحروب بُدِئت منذ ظهور الرومان في غرب آسية، واستمرت بين الرومان والأشكانيين، ثم ورثها الساسانيون والبيزنطيون حتى شغلت من التاريخ سبعة قرون بين الاشتعال والخمود، هذه الحلقة الأخيرة التي سبقت البعثة واستمرت بعد الهجرة سبع سنين، وقد اهتمم بها العرب ونزلت فيها آية من القرآن: {غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون* في بضع سنين* لله الأمر من قبل ومن بعد* ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله* ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم}. انتصر الفرس في عهد كسرى برويز على الروم زهاء عشرين سنة متوالية فسلبوهم كل ما ملكوا في آسية، وفتحوا بيت المقدس وأخذوا الصليب الكبير، ثم غلبوهم على مصر، وظهرت جيوش الفرس على أبواب القسطنطينيَّة مرات، وظن الناس أن الروم لا تقوم لهم قائمة.

ثم أجمع الروم أمرهم، وقادهم هرقل من ظفر إلى ظفر خمس سنين أتت على كل ما ناله الفرس في الحروب المتمادية، وخلع كسرى برويز بعد أن أخرجته الهزائم من دار ملكه، ومات ذليلًا حزينًا وخلفهُ ابنه قباذ الثاني فصالح هرقل على أن يرد على الروم كل ما سُلبوه في آسية ومصر وأن يرد الصليب المقدس، وسار هرقل في أعظم مواكبه إلى بيت المقدس ليضع الصليب موضعه في ديسمبر سنة ٦٢٩م، وبلغ هرقل من العزة والهيبة والصيت ما بلغ.

- ٢ -

في جمادى الأول سنة ثمان من الهجرة بعد غزوة خيبر بشهرين وجه رسول الله ثلاثة آلاف من أصحابه إلى الشام وجعل القيادة لزيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة، وكان هذا إيذانًا ببعد الشقة، وجسامة المطلب، عظيم الخطر.

لماذا سير الرسول صلوات الله عليه جيشًا لحرب الروم في أرض بعيدة؟ يقول المؤرخون أن الغسانيين قتلوا رسوله إلى أمير بصرى؛ ولكن أحسب الأمر أوسع من هذا فقد أراد المسلمون أن يرهبوا الطامعين فيهم ويعرفوا موقف القبائل العربيَّة الضاربة في سلطان الروم: أحرب هم أم سلم؟؟.

سار المسلمون إلى معان فإذا هرقل الذي حالفه الظفر خمس سنين حتى رد إلى سلطان الروم ما أخذه الفرس وزلزل سلطان كسرى في ديار كسرى قد جمع في مآب جموعًا حاشدة من الروم والعرب- وتشاور المسلمون وهموا بأن يكتبوا إلى الرسول ولكن ابن رواحة قال: «يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم له؛ خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة، ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا، فإنَّما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة».

التقى الجمعان عند مؤتة وهى قرية في البلقاء التي تسمَّى اليوم شرق الأردن إلى الشرق من الطرف الجنوبي للبحر الميت، واستعرت الحرب وقاتل زيد بالراية حتى قُتل، وتقدم جعفر للشهادة فقاتل حتى نالها، وتلاه ابن رواحة فقتل، فاجتمع الناس على القائد المحنَّك المظفر خالد بن الوليد، فقاتل كما يقاتل خالد حتى تراجع بالجيش الصغير فأنقذه من الجموع المطبقة عليه، فعلَ القائد الحازم لا يُهلك جيشه في معركة خاسرة.

- ٣ -

ثم شُغل المسلمون بفتح مكة وما تلاه من الأحداث، وبعد سنة من موقعة مؤتة دعا الرسول إلى غزو الروم «في زمن عسرة من الحر، وجدب من البلاد» زمن تدعو فيه إلى الحرب ضرورة لا بد منها، وعلم الناس إنهم يُدعَون لغزو الروم، غزو بني الأصفر، وهم يعلمون من سلطانهم وقوتهم وانتصارهم على الفرس ما يملؤهم هيبة، حتى قال بعض المنافقين: «أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم!؛ والله لكأني بكم غدًا مقرنين في الحبال».

سار الجيش إلى تبوك، وكانت على حدود البلاد الخاضعة لسلطان الروم في الشمال، فأقام بضع عشر ليلة وصالح الرسول صلوات الله عليه أهل دومة الجندل وأيلة وجرباء وأَذْرُح، ورجع المسلمون وقد صالحوا من صالحوا وأرهبوا القبائل الضاربة في الشمال، وأعلموا الروم أنَّهم غير عاجزين عن الجمع والسير للقتال، وكانت غزوة ذات أثر في تمكين هيبة المسلمين في القبائل الشماليَّة، ومحو ما أصاب المجاهدين في مؤتة، والتمهيد لإقامة سلطان الإسلام في تلك الأرجاء.

- ٣ -

ثم أعد الرسول جيشًا للمسير إلى البلقاء حيث تراجع المسلمون في غزوة مؤتة، وجعل عليه أسامة بن زيد أول قائد للمسلمين في تلك الغزوة، وتوفي الرسول واشتعلت الفتنة في الجزيرة، وسأل الناس أبا بكر أن يبقى الجيش ليقي المدينة غارات القبائل المرتدة، ولكن خليفة رسول الله أصرَّ الإصرار كله على أن يُنفذ الجيش الذي أعدَّه رسول الله، فسار الجيش إلى حيث أمر الرسول، فغنم وسلم، وذلكم في السنة

الحادية عشرة، وهو تدبير عظيم لم يلقه الروم ومن والاهم من العرب بكفايته من الاهتمام والتفكير.

- ٥ -

وبعد سنة وأشهر من رجوع جيش أسامة، وذلكم أوائل السنة الثالثة عشرة، عزم المسلمون على فتح الشام، وسير أبو بكر جيوشًا أربعة لهذا الفتح... وتتابعت الوقائع إلى الموقعة الحاطمة موقعة اليرموك، التي جعلت هرقل يودع الشام وداعًا لا لقاء بعده، وقد أدار هذه الموقعة الفاصلة خالد بن الوليد، القائد الذي شهد مؤتة، وانحاز بجيشه فخلصه من براثن الموت.. ولولا ضيق المجال لفصلت القول وسردت الحوادث، مُبينًا عن الصلات الجامعة والقرابة الواشجة، بين هذه الأحداث.

تلكم صور متفرقة في كتب التاريخ، شتيتة في رأي مطالعيه؛ ولكنها في الحقِّ أوجه لحقيقة واحدة، أو أمواج من بحر واحد، أو فصول متتابعة من كتاب، أوجه من هذا اليقين الذي ملأ قلوب العرب المسلمين، وأمواج من هذا الجهاد الذي اعتزمه العرب المسلمون، وفصول من هذا المجد الذي سطره العرب المسلمون قصته، أولها خالد ينحاش بجيشه ليقيه غائلة الروم، وآخرها خالد يقدم بجيشه ليمحو سلطان الروم، ويمد سلطان المسلمين على الشام، وما وراء الشام.. وفى ثناياها حقائق من الأخلاق، والسنن، والتاريخ، هي التي تجلَّت سريعًا فجمعت في سلطان العرب المشرقَ والمغرب و{إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب}.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أيام العروبة تبدأ في سورية..!

سورية الكريمة العزيزة.. سورية الجميلة، الجليلة.. سورية العربيَّة الأبيَّة.. سورية الشجاعة، الجريئة، المجاهدة.. تغسل عنها العار، وتستقبل الكرامة، وتبسم للحرية بعد أنْ طال عبوسها للعبوديَّة، وتطوى صحيفة لعدوِّها سوداء، لتنشر صحيفة لنفسها بيضاء، وتختم جهاد المعتدين لتبدأ جهادًا في الحياة السعيدة المجيدة، وتستأنف سيرتها العظيمة لتصل حاضرها الكريم وماضيها الخالد، بمستقبلها الوضَّاء.

دمشق العتيقة، الحديثة.. دمشق الماضية الحاضرة.. التي ثبتت للخطوب ثبات «قاسيون» وابتسمت للمحن ابتسام مروجها وجنانها:

دمشق! مجتمع الأحداث قد زخرت فيها كما اندفقت في البحر أنهار

دمشق، قد استدار لها الزمان، وردَّ عليها الدهر مجدها المنشود، فهي اليوم ظافرة، فرحة، تأسو جراحها، وتُعْد للمستقبل عدتها، قد انجلت عنها الغمرات، كما ينجلي النقع عن البطل المرزأ يعصب جراحه، ولواء النصر في يده.

مرزأ بتلقي الخطب منصلتًا تنشق عنه من الأهوال أجفان

ليت شعري، كيف الغوطة والربوة ودمَّر والهامة، اليوم؟!

أترى أشجارها تتمايل طربًا، وأوراقها تصفق فرحًا!! وكيف قاسيون ذو القمة الجرداء والسفح الأخضر.

نَسر يرى اللوح منه هامة عُطُلا لكنَّه ذَنَب الطاوس جرَّار!!

كيف هذا النسر اليوم؟ أتراه شمخ برأسه عزة، بعد أن رمى عنه آثار المذلَّة، وحلَّق على الرياض فرحًا في هذا النهار، بعد أن وقع كئيبًا في ذلك الليل!

وكيف «بَرَدى» ذو الفروع السبعة؟! أهو اليوم جذلان مطَّرد يصفق ماؤه بنسيم الحرية، وتمحو جريته الظلالَ البغيضة التي تراءت على صفحته في سني الاستعباد؟!.

وليتني أرى الآن جامع بني أمية، هل نطقت جوانبه تسبيحًا وتهليلًا؟

وهل تهم قبة النسر بالتحليق كما يحلق الطائر الوحشي، قطع الشرك أو انفتح عنه المحبس؟![1]

وكيف أبطال تاريخنا في المدينة وحولها؟! كيف معاوية، والوليد؟ وكيف نور الدين، وصلاح الدين؟! وكيف الظاهر، والعادل؟!

وكيف أبطال الجلاد في عصرنا، الذين نازلوا الباطل المدجج.. عُزَّلًا فزلزلوه حتى هدموه؟!

وليت شعري؛ هل انبعث الأذان من قبر بلال، في مقبرة الباب الصغير، إيذانًا بالفجر من هذا العهد المبارك؟..

وحلب الشهباء، مدينة سيف الدولة، والمتنبي.. حلب التي أمدَّت الثغور بأبنائها قرونًا؛ ودفعت الروم عن الشام عصورًا، كيف جذلها اليوم وأين متنبيها، ينشد قصائد المجد ليرويها الدهر؟؟

(١) قبة المحراب في الجامع الأموي تسمَّى قبة النسر.

وكيف قلعة حلب اليوم، وقد لفظت المذلَّة، واعتزت بما فيها من آثار المجاهدين الأولين..؟

لقد دخلتها أول مرة -قبل خمسة عشر عامًا- ورأيت جنود السنغال فيها يخطرون، وينهون ويأمرون، فأنشدت؛ وفى النفس ما فيها من حسرات:

سادات كلِّ أناس من نفوسهم   وسادة المسلمين الأعبد القزم

فقد رفع اليوم عليها لواء الحريَّة، ورخَّص عها عار العبودية.. فحالت بناء جديدًا، ومرأى حميدًا، وكأن كلّ شيءٍ فيها قد استحال!!

ليت شعري، هل نطقت فيها الآثار الصامتة، وضحك على بابها الأسد الباكي[1]..

وليتني اليوم في حمص أقف في روضتها كما وقفت من قبل أستمد من ضريح خالد بن الوليد كل معنى جليل!!

ليتني اليوم على قبر خالد أبشره، أنَّ الزمان قد استدار، واستقلت الشام بأبنائها الأحرار!!

فليصفق نهر العاصي طربًا، وليزهر الديماس فرحًا، فقد أقبل الربيع بربيع الحرية الناضر، وعهدها الزاهر:

يا دار هذا أوان السَّعد فاغتبطي   لا عادك النحْس بعد السعد يا دار

وحماة المجاهدة.. هل تبدل أنين نعيرها غناء، واستحالت دموعها في البساتين

(١) فى مدخل القلعة صورتان من الحجر لأسدين. يقال: إن أحدهما يضحك، والآخر يبكى.

ماء؟! ما أجمل غناء النواعير في حماة اليوم!!

قد مضى عهد البكاء، فليدم اللهم هذا الغناء!!

وكيف أبو الفداء في قبره اليوم؟

يا أبا الفداء لقد طال الهجود، فقم وأضف إلى تاريخك هذا الفصل الجديد!!

يا سوريتنا الجميلة الحبيبة؟ حيًا الله فيك كل مدينة وقرية، ونضر كل دارة وبقعة، وحباك السَّعد مطَّردًا مع الزمان، دائرًا مع السنين.

ورحم الله كلَّ مجاهدٍ أمدَّك بحياته وسقى ترابك بدمه، وثوى في الأرض.. كلمة باقية في سطور تاريخك الخالد.

ونضَّر الله وجوه المجاهدين الأحياء، الذين صبروا وصابروا وبسموا للخطوب السُّود في الظلام المكفهر، حتَّى تبلَّج الصباح:

«فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعُفُوا وما استكانوا»!!

وحيا الله هذا الرئيس الأمين، الطاهر القلب، المبارك الناصية «شكري»؟ شكر الله مساعيه، وحيًّا أصحابه الكرام، وحيًّا كل من شارك في تحرير سورية، بيده أو لسانه.

وبعد: فيا سوريتنا العزيزة؟. قد رفع الزمان الأعباء، عن كواهل الأعداء، فوضعها على كواهل الأبناء، فليحملوا أعباء الواجب، وليؤدوا تكاليف المجد.. وليبنوا مستقبلهم بأيدهم لأبنائهم.. وليعلموا أن حاضر العرب يؤمل فيهم، وماضي العرب ينظر إليهم.. ومستقبل العرب ينتظرهم.. فليجمعوا القلوب والأيدي،

وليحسنوا البناء.

ألذَا إنَّه قد فتحت لهم صحائف في التاريخ جديدة، فليجيدوا الكتابة في هذه الصحائف التي تخلد كل شيء؟.

إنهم يبنون أجيالًا، ويكتبون تاريخًا، فلينظروا كيف بناء الأجيال وكتابة التاريخ؟

يا سورية الجميلة، إنَّ أبناءك اليوم قد رجعوا من الجهاد الأصغر، إلى الجهاد الأكبر.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مكانة العرب بين الأمم

تخلد الأمم على وجه الأرض، وتحيا على مر الدهور، وتثبت في صفحات التاريخ، بأسباب وقوانين، ويختلف حظها من الخلود ومن المجد باختلاف هذه الأسباب المواتية، والقوانين السارية، قوة وضعفًا، وإبطاء وإسراعًا، وضيقًا واتساعًا، وهي أسباب متصلة متشابكة، يؤدي بعضها إلى بعض، ويمسك بعضها بعضًا، من هذه الأسباب صلاحية الموطن، والقوة الحسيَّة والمعنويَّة، والثبات للحادثات، والاحتفاظ بالخصائص، والاعتداد بالنفس والثقة بها، وحضارة الأمة وأثرها في العالم، وقدرتها على الأخذ والإعطاء في معترك الأمم، والمكانة بين الناس، وعظم التاريخ على مرِّ الدهور.

فأمَّا الوطن فقد منح الله العرب موطنًا فسيحًا وسطًا بين المواطن، فيَّاضًا بالخيرات، بعيدًا من الآفات الطبيعيَّة المدمرة، موطن العرب جزيرتهم التي ولد فيها تاريخهم، ومثواهمْ القديم الذي عرفهم فيه التاريخ منذ تحدث عن البشر، بين نجد إيران، وجبال طوروس إلى البحر الأبيض، ثم متقلبهم الذي نشرهم فيه الإسلام إلى بحر الظلمات وأواسط إفريقية، وهو موطن شاسع الأرجاء، يقع معظمه في الإقليم المعتدل، وقليل منه في الإقليم الحار، وتجرى فيه ثلاثة من أعظم أنهار العالم: النيل ودجلة والفرات، وتتقسمه السهول الخصبة، والبراري والصحاري والجبال، وتمتد سواحله على بحر العرب، والبحرين الأحمر والأبيض، هذا الموطن العظيم يكفل الحياة القويَّة، والعيشة الغنيَّة، والثبات على الخطوب، والبقاء على الزمان، وقد جعل الله مهد العرب جزيرة ممتازة محدودة بالبحار من معظم جهاتها، فحفظت هذا الجنس القوي بمعزل من تقلب الجماعات، بعيدًا من طرق المهاجرات، فبقي يطبع الأجسام

القويَّة، والطباع السليمة، والفطر الخالصة، ثم يمد بها أجزاء الموطن العربي الكبير، كلما نالت الخطوب من أهلها، أو أترفتهم الحضارة، وما يزال يقذف بهم موجة بعد موجة كالنهر العظيم المتدفق من قنن الجبال، بعد ينبوعه من الشوائب، واطرد مجراه إلى الغاية المقدورة له، ونبتت على عبريه الزروع والأشجار، وحَيَّت الأمم.

ما تزال جزيرة العرب خلاقة ولادة فياضة ممدة لأقطار العرب بالقبيل بعد القبيل، فإن بليت الأمم فهذه الأمة لا تبلى، وإن أفنت الأقوام الحوادث فالعرب لا تفنى، وإن نضب معين الأمم فلن يغيض الدم العربي الخالص ما دامت أنهار الله جارية في أرض الله، وما دامت شموسه وهواؤه وأرضه تنمي الأجسام، وتطبع الأقوام.

وأما الثبات للحوادث الطبيعيَّة والإنسانيَّة، فما دام هذا الوطن العظيم يعرف بعضه بعضًا، ويتصل بعضه ببعض، فستجد كل ناحية في النواحي الأخرى ما يسعفها بمطالبها إن قحطت، وما يدرأ عنها الأحداث إن طغت عليها، ومحال أن تعمها كلها الحوادث إلا أن يكون حادث القيامة حين يرث الله الأرض ومن عليها.

وأما احتفاظ الأمَّة بخصائصها فعلى قدر ما في أجسامها وعقولها من قوَّة، وعلى قدر ما فيها من اعتداد بالنفس وثقة بها، والعرب من أقوى الأمم أجسامًا وعقولًا، وأكثرها أنفة وأباء، وعجبًا وفخرًا، والعربي منذ العصور الأولى يغْلو في الاعتداد بنفسه، ويأبى أن يسويها بالأمم، ويربأ من مصاهرتها، وقديمًا أَبَى النعمان أن يزوج كسرى، وحديثًا قال أحد مجاهدي العرب في طرابلس الغرب، وقد عقد صلح بين أهل طرابلس والطلْيان، وامتن هؤلاء على العرب بأن سووهم بأنفسهم في الحقوق، قال هذا العربي المجاهد وهو ليس رئيسًا ولا زعيمًا: «وا سوأتاا!! أأسوى أنا بالرومي.. إنَّه لذلٌّ عظيمٌ». بل كان من آفات العرب الغلو في هذه الكبرياء، فصعب

أن ينقادوا ويسلسوا القياد، فبهذا الشعور بالعلاء والعظمة يعتزون بأنفسهم، ويمتازون بخصائصهم، ويتمسكون بأخلاقهم، وقديمًا قال شاعرهم:

وإني لمن قوم كان نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وقديمًا رهن حاجب بن زرارة التميمي قوسه لملك الفرس ضمانًا لما التزم من خراج، وحارب بنو شيبان الفرس إباء أن يسلموا سلاح النعمان بعد أن قتله كسرى، وقال أبو تمام يمدح بني شيبان:

إذا افتخرت يومًا تميم بقوسها وزادت على ما وطدت من مناقب
فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس

والمثل أكثر من أن تذكر في هذا المقام، وأبين من أن تبين إذا حاطت الأمَّة القوية أنفسها وخصائصها بأخلاق قويَّة، كفلت دفع الخطوب عن حوزتها ولا سيَّما الأخلاق الإنسانيَّة العزيزة، التي تأبى للأمَّة أن تخضع، فتذل فتفنى.. والعربي في جاهليته وإسلامه أبى حر، يأنف أن يَستعبد أو يُستعبد، وقد أمدَّه الإسلام بفضائل سيرته على وجه الأرض كالنَّجم: لا يضل ولا يكل، وجعلته قانونًا من قوانين الله يسير إلى غايته مسير الشمس والقمر في حبك السماء.

وكلما أخرجت الأمَّة من عمل أيديها، وأظهرت من نتاج عقولها، ونشرت من ثمرات أخلاقها وآدابها، زادتها صناعاتها وعلومها وآدابها رسوخًا على الأرض، وثباتًا على مجرى الخطوب.

ولا يعرف التاريخ أمَّة أثرت على وجه الأرض، وشادت في الآفاق وفي الأنفس أكثر من العرب..

لا يعرف التاريخ أمَّة حَمَّلته أكثر مما حملوا، أو جملته أحسن مما جملوا، أو سيطرت

عليه أعظم مما سيطروا أو سطَّرت صفحاته أجل مما سطَّروا.

فإذا تركنا التاريخ القديم: من معين، وسبأ، وحمير، ومن بابل، وآشور، فهل يحدثنا التاريخ عن أمَّة طلعت على العالم بمثل ما طلع العرب؟ همة ذللت المشرق والمغرب في سنين؛ ونية تريد الخير للناس أجمعين، وعدلًا يسوِّي بين الجبَّارين والمستضعفين.. بل يمحو من الأرض كلَّ جبَّار ومستضعف، ويقف الناس جميعًا إخوة على سَنَن من العدل المطلق، والمساواة الكاملة، والأخوَّة الشاملة.

هل يعرف التاريخ أمَّة جمعت في سلطانها ما جمع العرب من أمم وأقطار، ثم آخت بينهم، وحفزتهم إلى الفضائل والآداب والعلوم والصناعات، فإذا معظم العالم المتحضر متعاون على نسج حضارة واحدة عظيمة، كلُّ أمَّة على قدر مواهبها وقواها!! فوصلت ما انقطع من سير الحضارة، وقطعت ما اتَّصل من سير الجبروت والاستعباد، والشر والفساد، وما فعلوا هذا كلَّه إلا ابتغاء وجه الله، وقصدًا إلى إصلاح الناس، وعمران الأرض، وقد ربط التاريخ ذكرى العرب وتاريخ العرب بهذه المآثر، وتلك الفضائل والأخلاق والمكارم.. وضمن لهم الخلود ما بقي للناس سيرة في الفضائل والمعالي.

لا أقول إن الإسلام صنع العرب، فالإسلام صنع الله، ولكن العرب كانوا أول من حملوا هذه الأمانة فحملوها، ودعوا إلى هذه المعالي ففقهوها، وكلفوا نشرها فنشروها، فكأنما خلقت لهم، أو خلقوا لها، وكانوا أحقّ بها وأهلها.. وللأمم الإسلاميَّة بعد هذا فضل لا ينكر.. ثم أدب العرب، هل يعرف العالم أعظم منه سعة رقعة، وطول مدة؛ وجمالًا، وجلالًا؟

وإذا ثبتت الأمم بنيانها على كرِّ العصور بالسير المجيدة، والمثل العالية، فعند

العرب سير رجف بها الزمان، وأقر لها الحدثان!

وإن مكنت الأمم لأنفسها بالصناعات، والعلوم، والآداب، فعند العرب ما يكفل لهم التمكن في الأرض، والخلود في سجل التاريخ!!

وحسب المجادل أن يسير فكره بين هضب إيران وبحر الظلمات وجبال البرانس، وغابات إفريقيَّة، ويعبر التاريخ في هذه المواطن كلها أربعة عشر قرنًا، ليرى مجد العرب، ويبصر حجَّة العرب؟

ولا نقول: إنَّ العرب خلقوا ولم يقلدوا، وابتدعوا ولم يتبعوا، وأعطوا ولم يأخذوا، وأعاروا ولم يستعيروا، ولكنَّا نقول: إنَّهم أحسنوا الخلق والتقليد، وأجادوا الابتداع والاتباع، والأخذ والعطاء، والإعارة والاستعارة، والأمم تدل عل فضائلها بالأخذ، كما تدلُّ عليه بالعطاء، وتثبت حياتها بالمحاكاة كما تثبتها بالخلق، وإنَّما حياة الأحياء على قدر ما تؤثر في غيرها وتتأثر، الذي لا يأخذ ولا يعطي جمادٌ، والنبات يأخذ قليلًا ويعطي قليلًا، وانظر بعد هذا الحيوان الأعجم والإنسان، ثم اعتبر هذا في تاريخ الأمم، يصح الاعتبار، ويطرد القياس.

تخلد الأمم بأفعالها وآثارها، ويقينها في أنفسها، ويزيدها مكانة وتمكينًا في الخلود، أن يزيد على مرِّ العصور مجدها، وتعظم على كرِّ الدهور بين الأمم مكانتها، حتى تعلو على أحداث الزمان، ومطامع الإنسان، فتقر لها الأمم بالفضل، وتخلي لها سبيلها في الحياة.

وللعرب من هذا كله نصيب موفور، وسعى بين الأمم مشكور، إلَّا من ضلَّ به الهوى، أو جار به الجسد، وهم جديرون اليوم بتاريخهم، حقيقون بسيرتهم، ولن يكونوا إلا كما كانوا من قبل دعاة حرية وأخوة، وهداة مدنيَّة وعمران، وأئمة أخلاق

وآداب، وأنصار فضيلة وحقٍّ، ولن يكون نهوضهم اليوم إلا خيرًا للبشر، وسلامة للناس أجمعين.

ولهذه الأمَّة الكريمة الخالدة لغة كريمة خالدة، أنضجها الزمان المتطاول في البقاع الشاسعة من الجزيرة، وأخرجتها الفطرة السليمة، والإحساس المرهف، والإدراك النافذ، لغة كاملة معجبة عجيبة، تكاد تصور ألفاظها مشاهد الطبيعة، وتمثل كلماتها خطرات النفوس، تكاد تتجلى معانيها في أجراس الألفاظ، وتتمثل في نبرات الحروف، كأنَّما كلماتها خطرات الضمير، ونبضات القلوب، ونبرات الحياة، فالمعاني المحسة والمعقولة مبينة في ألفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الأشياء المتشابهة، فتضع للشبيه لفظًا غير ما وضعته لشبيهه، إدراكًا للفرق الدقيق بينهما، فإذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلًا كلمة واحدة، وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف آلة الضرب وموضعه من الجسم.. وإذا دلت اللغات على صفات الوجه الإنساني مثلًا بكلمات مركبة لكلِّ صفة، دلت العربية على كلِّ حلية في الإنسان، وكل صفة في عينه وحاجبه وأنفه وفمه وأسنانه وغيرها، بأسماء خاصَّة، وليس هذه مقام التمثيل والتفصيل.

ثم هذا الإحساس الحاد الدقيق المتمثل في المفردات، يتجلَّى في التركيب مدهشًا، فكلُّ كلمة لها في الجملة، مكانة يحس بها المتكلم، أو تحس بها الكلمة نفسها، لتعطي صوتًا مكافئًا لهذه المكانة، فالكلمة الأصليَّة لها أقوى الأصوات وهو الضم، والأخريات لها الفتح والجر، وما أرى هذا إلا ضربًا من الحياة في الألفاظ والتركيب، يبين عن أدق الإحساس وألطفه.

وإذا اشتملت اللغات على كلمات هي مادتها، ففي اللغة العربيَّة مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة، فيها مادة ووزن، فخذ المادة أو اخلقها أو استعرها

من لغة أخرى، وضعها في قالب من قوالب الأسماء والأفعال، وصورها بالقوالب والأوزان ما تشاء، فلغتنا تدل بالمادة والوزن وبالصيغة والهيئة.. فمن سمع فاعلًا أو مفعولًا أدرك أن هذا الوزن في حركاته وسكناته له معنى يلازمه في المواد كلِّها، وبهذا حدت اللغة، واستبانت خصائصها، حتى نفت عن نفسها كلَّ كلمة أجنبية ما لم تخضع لأوزانها وقوانينها.

للأسماء أوزان وللأفعال أوزان، فما لا تزنه هذه الأوزان فهو أجنبي، وبهذا بقيت على الدهر المتطاول خالصة نقية، صحيحة قويَّة.

قيل: إنَّ لغتنا صعبة بهذه المفردات وبهذه التراكيب والأوزان، وإنَّها تكاد تأبى على دارسها، وتعجز طالبها! وهذا حقّ لا ندفعه، وإن عد عيبًا، فلا ننكره.. ولكنَّه ليس من نقصان في خلقها، أو اختلال في بنيتها، أو عجز في موادها وأوزانها، ولكن نتيجة التطور الكامل، والنمو التام، فأدنى الأشياء في هذا العالم أيسرها وأقلها تركيبًا.. والكمال يصحبه التركيب والتفصيل، والأشكال والإعضال، اعتبر هذا في النبات والحيوان، وفي الحيوان ذي الخلية الواحدة والإنسان، ثم انظر المراتب بينهما، واعتبر هذا في البداوة والحضارة، وفى أنواع الحضارات التي تجدت النقص بساطة ويسرًا، والكمال تركبا وصعوبة.. الكمال في هذا العالم لا ينال إلا بتطور تلده الأحقاب بعد الأحقاب، وتنوء به العزائم بعد العزائم، فلغتنا صعبة، ولكنها كاملة حيَّة دقيقة مؤاتية؛ حيَّة حساسة، موسيقيَّة متلائمة!!

وقد امتحنت هذه اللغة الحضارة الواسعة، واختبرها التاريخ الطويل، فلم تعجز ولم تعي، ولم تضق بكل ما أدركه الإنسان من علم، وثقفه من صناعة، بل وسعت حضارة القرون المتطاولة، والأمم المختلفة، غير كارهة ولا مكرهة.

وقد أراد الله لها أن تكون لغة كتابه، وترجمان وحيه، وبلاغ رسالته، فاشتملت على العالم الحسي والعقلي مصورًا كلمات وآيات، وجزيت على هذا خلودًا ما خلد في الإنسان عقل وقلب، وما استقام له إحساس وإدراك، وتقلب الزمن وتوالت المحن، وثارت الفتن وهي ثابتة ناضرة، رائعة ثبات قوانين الله وروعة كواكبه، خمسة عشر قرنًا محت لغات، وخلقت لغات، وبدلت لغات، وحرفت لغات، والعربيَّة هي العربيَّة لم تمح ولم تُبدل، ولم تغيَّر وما آية الخلود بعد هذا؟

ولم تبق هذه العربيَّة لغة العرب وحدهم بل ثقفتها الأمم الأخرى، وأولتها من الحفاوة والعناية أكثر مما أولت لغاتها أحيانًا، فصارت لغة العلوم والآداب للعرب وغير العرب حقبًا طويلة، ما بين أقصى المغرب وأقصى المشرق.

وقد حوت على مرِّ العصور أدبًا لا تحويه لغة أخرى، أدب موطنه ما بين الصين إلى بحر الظلمات، وزمانه أربعة عشر قرنًا، ولا نعرف في آداب العالم قديمها وحديثها أدبًا اتسعت به المواطن هذا الاتساع، أو امتد به الأعصار هذا الامتداد!!

فالعربيَّة بأهلها، وموطنها، وخصائصها، وآدابها، وتاريخها، والعربيَّة بقرآنها خالدة باقية على الخطوب والعصور لغة دين، وعلم، وأدب، وحضارة، وإنسانيَّة..

فهل تنصرها همم أبنائها؟ وتستجيب لها عزائمهم؟

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

وديعة مدينة سالم

– ١ –

محمد بن أبي عامر، شاب عربيٌّ، آباؤه من مَعَافر، وخئولته في تميم.. دخل جده عبد الملك بن عامر الأندلس في جند طارق بن زياد.. وارتقت بأسرته الأمور، حتى عدت في أسر الوزارات في الأندلس.

نشأ محمد نجيبًا طموحا، همامًا، تبشر مخايله بنباهة شأنه، وتعد همته بعظيم مستقبله، بل تكفل آماله سؤدده، ويضمن عزمه مجده.. سهر ليله وهو طالب علم، يفكر فيمن يوليه القضاء إذا آل إليه أمر الأندلس.. والمرء حيث يضع نفسه.

صار من أعوان قاضي «قرطبة»، محمد بن السليم، ثم وكيلًا لولى العهد، هشام بن الحكم المستنصر، وتداولت كفايته وحزمه المناصب إلى أن ولي شرطة «قرطبة» سنة إحدى وستين وثلاثمائة.. فضبط الأمور، وقمع الأشرار.. ثم دعاه الغزو فلبَّى.. فاجتمعت له الشرطة وقيادة الجيش.

فأمَّا حزمه في الشرطة، فقد قال فيه صاحب «البيان المغرب»: ..«فضبط محمد المدينة ضبطًا أنسى أهل الحضرة من سلف من الكُفاة، وأولي السياسة.. ولقد كانوا قبله في بلاء عظيم، يتحارسون الليل كله، ويكابدون، من روعات طراقه ما لا يكابد أهل الثغور من العدو، فكشف الله عنهم –بمحمد بن أبى عامر وكفايته وتنزهه– فسد باب الشفاعات، وقمع أهل الفسق والدعارات، حتى ارتفع الباس، وأمن الناس، وأمنت عادية المتجرمين من حاشية السلطان، حتى لقد عثر على ابن له فاستحضره في مجلس الشرطة وجلده جلدًا مبرحًا كان فيه حمامه، فانقطع الشر في

أيامه جملة».

وأما الغزو فكان قائده المظفر، وبطله المحبب، وسيأتي حديثه.. ما زال ابن أبي عامر يرقى منصبًا إلى منصب ويعلو مجدًا إلى مجد، كالنسر يعلو مرقبًا إلى مرقب، حتى يوفى على القنَّة، فلما تُوُفِّي الحكم المستنصر وآل الأمر إلى طفله هشام، اجتمع له الأمر كله، وظفر بأعلى مناصب الدولة، حجابة الخليفة، ثم وكله إلى ابنه عبد الملك، وجعل له القيادة العليا وسائر مناصبه، وجعل ابنه عبد الرحمن وزيرًا، وسما هو إلى السلطان الأعلى، وتسمى المنصور، وأمر أن يكتب عنه: «من المنصور بن أبي عامر وفقه الله».. ثم كتب إليه باسم: «الملك الكريم»..

- ٢ -

ملك ابن أبي عامر الأندلس ستة وعشرين عامًا يدبر شئونها بعدله ويعمرها ببره، ويجملها بأبنيته، ويضرب أحسن الأمثال في البأس الذي لا يخالطه جور، والعدل الذي لا تشوبه هوادة، والإنصاف الذي لا يميز قريبًا من بعيد، والحكم الذي لا يعرف إلَّا النصفة والمساواة، والنفاذ على كل الناس، في كل الأحوال.

ولم تكن سياسته العادلة الحازمة، أعظم من قيادته المظفرة، حتى لقد جاوزت غزواته أقصى غزوات الناصر، وحارب حيث لم يحارب قبله أمير من أمراء الأندلس.

غزا خمسين غزوة، كانت الثامنة والأربعون منها إلى «شنت ياقوب» على البحر في أقصى الجزيرة إلى الشمال والغرب، ولم يحاولها قبله ملك عربي في الأندلس.

قال صاحب «البيان المغرب»:

«ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينكب قط في حرب شهدها، وما توجهت قط عليه هزيمة، وما انصرف عن موطن إلا قاهرًا غالبًا، على كثرة ما زاول من الحروب، ومارس من الأعداء، وواجه من الأمم، وإنّها لخاصة ما أحسب شركه فيها أحد من الملوك الإسلاميَّة، ومن أعظم ما أعين به سعة جوده، وكثرة بذله، فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان.

- ٣ -

هذه سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة من الهجرة، والمنصور بن أبي عامر يعزم على غزو «جليقية» في أقصى الشمال والغرب، وهو مريض ولكنه كما قال أبو الطيب:

وقد علمت خيله أنه ... إذا هم -وهو عليل- ركب

وسار من «طليطلة» إلى «قشتيلة»، فأبعد الغارات فيها، ودوخ بلاد «شانجه» زعيم الأمراء المناوئين هناك.

وازداد بالبطل مرضه، «فاتخذ له سرير خشب، ودع عليه أعضاءه، وسوى مهاده، متطاول الشكل، يمكنه الاضطجاع عليه متى خارت قواه، وكان يحمل سريره على أعناق الرجال، وسَجفه منسدل عليه، وعساكره، تحف به وتطيع أمره[1]، وكانت تحمل سريره السودان الرقاصة، للين مشيهم، بذلك قطع أربعة عشر يومًا حتى وصل إلى مدينة سالم[2]».

المنصور في قصره من «مدينة سالم»، قد استولى على الأمد من مجده، وأوفى على

(١) في أحد متاحف أوربا صورة ابن أبي عامر محمولًا على سريره.
(٢) ما بين الأقواس منقول عن «الذخيرة» عن أبي حيان المؤرخ الأندلسي.

الغاية من عمره، ينظر إلى الحوادث الجسام قد اتخذها درجًا إلى المعالي، ويتمثل الزمان رخاءه وشدته وسلمه وحربه، ويرى الأندلس كلها وأصقاعا من المغرب طوع حكمه، وتحت أمره، ويشفق من تبعات هذه التاريخ المتطاول، وأعباء هذا السلطان العظيم، ويرى كل شيء وراءه ولا يرى أمامه إلا الموت، يقول:

«إنَّ زمامي يشتمل على عشرين ألف مرتزق، ما فيهم أسوأ حالًا مني، وددت أن أقال زلتي، وأنا كبعض هؤلاء السودان الحاملين لسريري، وأخذ الرجل العظيم يوصي أمراءه وجنوده وخلا بولده عبد الملك يوصيه ويودعه، ويقبض على يده، وكلما ذهب عنه استرده مستدركًا بوصيته، وعبد الملك يبكي، فينكر عليه ذلك ويقول: هذا أول العجز والفشل[1]».

أوصى عبد الملك وصية الخبير المحنك.. الأريب المجرَّب، وأفرغ في أذنه وقلبه تجاريب عشرات السنين، ولم يترك عظيمًا من أمور مملكته وأسرته إلا بيَّنه.

ثم أمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن، على العسكر، ويعود هو إلى «قرطبة» ليتدارك أمور الملك..

— ٥ —

ابن أبي عامر في «مدينة سالم» في أقصى الجزيرة الأندلسيَّة، كالأسد أبعد في مسراه، والنسر غالى في تحليقه، يختم مجده مجيدا، وينهي جهاده مجاهدًا، ويختم قصيدة ظفره ببيت رائع، وسجل مجده بسطر بليغ، قصيدة مطلعها الطموح، ومقطعها الظفر، وسائر أبياتها الهمة التي لا تقهر، والعزيمة التي لا تنثني، وسجلٌ مقدمته

(١) عن «الذخيرة».

طموح طالب علم في «قرطبة»، وخاتمته ملك حازم، وقائد مظفر، ومجاهد غازٍ في أقصى الثغور.

ليلة الاثنين لثلاث بقين من رمضان عام ثلاثة وتسعين وثلاثمائة في «مدينة سالم» مات الرجل النابغة، والعبقرى الداهية، ودفن في قصره هناك، وكان أوصى أن يدفن حيث يقبض ولا ينقل تابوته، وأراد أن يجعل قبره في هذه الثغر القصي دعوة إلى الجهاد دائبة، ومثلًا في المجد سائرًا، وحرزًا على الثغور حريزًا، ورباطًا على الحدود مشهودًا!

ليت شعري؛ أين قبر المنصور من قصره من «مدينة سالم»؟ بل ليت شعري؛ أين تاريخ ابن أبي عامر من صدور شبابنا، وكتب مؤرخينا، وأقلام كتابنا، وقصائد شعرائنا؟

يا شعراء العربيَّة؛ من ينظم القصيدة الرائعة التي عنوانها: «وديعة مدينة سالم»؟!

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

لا تحزن...! [١]

هذه أبيات لحافظ الشيرازي الشاعر الفارسي، ترجمتها نظمًا، وحافظت فيها على وزن الأصل وقافيته، لأجعلهما مثلًا لما في الشعر الفارسي من أوزان وقوافٍ.

فأما الوزن: فهو الرمل المثمن، أي ذو التفعيلات الثماني؛ والمعروف في العربية، أن الرمل لا يزيد على ستِّ تفعيلات...

وأما القافية: فهي المردوفة.. والرديف في العروض الفارسي كلمة، وكلمات تكرر في أواخر الأبيات، فيلتزم قبلها رَوِيًا يعتمد عليه النظم:

يوسف -المفقود في أوطانه- لا تحزنن	عائد يوما إلى كنعانه، لا تحزنن
بيت الأحزان تراه عن قريب روضة	يضحك الورد على بنيانه، لا تحزنن
رأسك الأشعث -يوما- سوف يلقى	ويفيق القلب من أحزانه، لا تحزنن
هذه الأفلاك إن دامت على غير المنى	لا يدوم الدهر في حدثانه، لا تحزنن
أيها البلبل يأتيك ربيع ناضر	تستظل الورد في أغصانه، لا تحزننْ
لست تدري الغيب في أسراره، لا	كم وراء الستر من ألوانه، لا تحزنن
وإذا جزت إلى الكعبة يومًا مهمها	فدهاك الشوك من سعدانه، لا تحزنن
ومحيل الحال يدرى حالنا بين العدى	والهوى والحب في هجرانه، لا تحزنن
يا فؤادي إن يسل بالكون طوفان	«فُلْك نُوح» لك في طوفانه، لا تحزنن
منزل جد مخوف ومراد شاحط	لم يدم فج على ركبانه، لا تحزنن
حافظ! ما دمت في الفقر وليل حالك	في دعاء الله أو قرآنه، لا تحزنن

(١) بيت الأحزان: بيت اتخذه يعقوب ليعتكف فيه حزنًا على يوسف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

في معترك الخطوب

الحوادث في عراك دائم، والتاريخ في سيل مستمر، وإنما تبقى الأمم في معترك الحوادث، وتثبت في سيل التاريخ، بعقل يرشدها، وخلق يثبتها، وعمل تدفع به عن حياتها، وتؤثر به على الأرض آثارها، وتسطر به في التاريخ ذكرها، كم أمة جرفتها الحادثات، وذهب بها الزمان كما يذهب السيل بالغثاء! وكم أمَّة ثبتت في مجرى الأحداث كالصخور ينشق الماء عنها، ويذهب وهي باقية راسخة!

والأرض ترجف اليوم بخطوب جسام، وتزلزل بأهوال لم يشهد التاريخ مثلها، تتصادم فيها الأمم بعددها من العلم والصناعة والخلق المتين، والنظام المحكم، والجد الدائب؛ تحترب الأمم في معارك على الأرض، وفى الماء والهواء، وتحترب في المدن والقرى، وفى المصانع والدور، ووراء هذا كله تتحارب بعلمها وخلقها، وقد خرت بعض الأمم على قوتها وكثرتها، في هذا الجلاد، وثبتت أمم لا تزال تتناحر وتتفانى بكل ما عرف العقل والعلم والصناعة، وبكل ما أدرك الشيطان من وسائل التدمير والتخريب والقتل والفتك، ترسل بنيها إلى الوقائع حطبًا لهذا الجحيم، ويصب عليها العذاب من السماء صبًّا، وكم تحطمت طائرات وسفن، ومدافع ودبابات، وخرت حصون، وتهدمت بيوت؛ ولكن إرادة الإنسان، وعزيمة الإنسان، وعناد الإنسان، لم تتحطم أو تكل.

وقد دلَّت بعض الأمم في هذه الحرب على أن صبر الإنسان لا يهزم، وخلق الإنسان لا يدمر، فهزئت بالحوادث وهى هائلة، واستخفت بالهزائم وهى ماحقة، واستنارت بالأمل والظُّلَم مطبقة، واستمسكت بالصبر والخطوب مزلزلة،

واعتصمت بالعزة والإباء، في العواصف الهوجاء، وما زالت حتى أخرجت من الهزيمة نصرًا، ومن القلة كثرة، ومن الضعف قوة، وأثبتت للجاحدين، أنَّ الله مع الصابرين.

وما تزال الخطوب متصادمة، والأخلاق متلاحمة، والحوادث متلاحقة، عبرة لمن يعتبر، ومثلًا لمن يمتثل، وذكرى لمن كان له قلب، ما يزال الزمان يشهد أعظم وقائعه، ويرى أكبر عبره، وينطق بأكبر عظاته، وفي الأمم من اتعظت بنفسها، وفيها من اتعظت بغيرها، وفيها من مرت بها العظات وفي غافلة، وزلزلت الأرض تحتها وهي راقدة، كأن الذي حولها أحلام هائلة.

وهذه الأمم المتناحرة المتفانية تلقى عينًا على الحاضر، وأخرى على المستقبل، تدبر هذه الواقعات المدمرة، وتعد لما بعد الحرب الخطط المعمرة، وتقبس من هذه النار الحاطمة، لتنير المستقبل المرجو، ولا يذهلها، يومها -وهو مذهل- عن غدها، ولا يشغلها حاضرها -وهو شاغل- عن مستقبلها، ولا ينسيها العالم الشقي صورة العالم السعيد الذي تنشده.

ونحن نحمد الله في عافية مما ابتلى به غيرنا، نسمع ضوضاء المعارك وأنباءها، وتحيط بنا خططها وآثارها، ولا ندفع في مضايقها، ولا نصلى بنارها، ولا نحمل مصائبها، نحمد الله على هذا، فهل نحمده كذلك على أننا في غافية من عناء التفكير والتدبير، والتشاور، والقطع برأيٍ في حاضرنا ومستقبلنا؟! وفي عافية من أن نشارك العاملين للمستقبل برأيٍ نشير به، أوْ خطة نضعها، أو مطلب نصرٌّ عليه؟ لعلنا أوفر أمم العالم نصيبًا من الفراغ في هذا الوقت، فلماذا لا نكون مثلهم تفكيرًا في المستقبل، وشغلًا بالحاضر؟ لماذا لا نأتمر بيننا، وندبر الرأي فيما عسى أن نلقى بعد الحرب من مشاكل ومصاعب، إننا ننتظر القضاء قضاء الناس لا قضاء الله!

«وفى الناس من يُقْضَى عليه ولا يقضي»

وقد رضينا أن نصدق قول الشاعر:

ويقضى الأمر حين تغيب كعب ولا يستأمرون وهم شهود

أقول: نحن، وأريد الأمَّة العربيَّة كلَّها، نحن لا نلقى الحوادث بعدتها وكفايتها من التفكير والحزم، وجمع الكلمة، لا يجتمع أهل المملكة الواحدة على رأيٍ جامعٍ، وخطَّةٍ عامَّةٍ تلتقى عندها مطالبهم أو أمانيهم، ولا يسارع أهل الأقطار كلها إلى البت برأيٍ فاصلٍ فيما يحزبهم من أمور الحاضر، وما يهمهم من قضايا المستقبل، وحسبي مثلٌ واحد من أمثال.

تشعر البلاد العربية بحاجتها إلى التعاون والتقارب، والسير على خطة واحدة في الأمور التي تعمها، وقد أوحى إليها هذا الشعور معرفتها أنَّها على اختلاف الأقطار أمَّة واحدة، يؤلف بينها ما يؤلف بين الأمم الواحدة على هذه الأرض، والحقائق الماثلة تصدق هذا، والتاريخ يؤيده، والضرورات والحاجات تدعو إليه، وقد فكر قادة الرأي في الأقطار العربيَّة في أن يحققوا هذه الأماني، فيوحدوا بين العرب، ويجمعوهم على نظام واحد، أو نظم متقاربة في أمورهم المشتركة، ولا ننكر أن الإنكليز نبهونا إلى هذا مرة بعد مرة، وقد مضت سنوات، وأوشكت الحرب أن تنتهي، فماذا فعلنا؟ لا أدري! إنَّ الأمر فيما أرى أوضح من أن تضطرب فيه الآراء، وأيسر من أن تقعد دونه الهمم، والزمان ضنين بفرصه، والحوادث لا تعرف الهوادة، إننا لا نصطنع أشياء، ولا نلفق أمورًا تصادم الحقائق، أو تخالف الرغبات، ولكنَّا نعالج حقائق ماثلة معترفًا بها، نريد أن ننظمها وننتفع بها، ومن تنصره الحقائق، وتواتيه الرغبات، لا يجد عسرًا فيما يحاول، لو اجتمع ممثلو البلاد العربيَّة الرسميون، أو أتيح للقادة غير الحكوميين أن يجتمعوا، ثم وضع هؤلاء أو هؤلاء خطة، وجعلوا

للعرب ميثاقًا لا يقبل جدلًا ولا ردًا، لو فعل هذا للقينا الحادثات بما تطلبه، وأعطين الفرص ما تستحقه، ولأخذنا السبيل، على القال والقيل، ولا سترحنا من الرجم بالظنون والأقوال.

إنَّ لنا الثقة كل الثقة بمن تصدوا لهذا الأمر، واضطلعوا بهذا العبء، واحتملوا مختارين هذه التبعة العظيمة في الوقت الحرج، ورأوا في أنفسهم الكفاية لحمل هذه الأمانة، التي تسألهم عنها الأجيال الحاضرة والآتية، ولكننا نسألهم سؤال الحريص على طلبته، ونستعجلهم استعجال القلق على أمنيته.

إنه لا يجدر بنا أن ننام والحوادث يقظى، ونبطئ والخطوب تسرع، ولا نلقى الحادثات بعدتها من التدبير والعزم، وجمع الكلمة، وإجماع الرأي، وسرعة الفصل!

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التأليف والنشر في مصر

حدثني أحد الأصدقاء أن أحد أصحاب المعالي وزراء الدولة في الحكومة القائمة، دعا إليه جماعة من الكتاب، وحدثهم في تنشيط التأليف في مصر، ومكافأة المؤلفين، ووعد في هذا وعودًا حسنة، إلخ.

وهذا رأي محمود نرجو ان يتلوه العمل، فيؤتى ثمراته بعد حين، وهذه فرصة أنتهزها للتنبيه إلى أمر طالما أهم المفكرين من قراء العربية في الشرق والغرب، وطالما ترددت منه الشكوى، وأخذت به مصر قبل الأقطار الأخرى، ذلكم أمر النشر، نشر الكتب القديمة والحديثة، التي مات مؤلفوها، فهو أمر تتحكم فيه الفوضى. يستطيع الواحد من تجار الكتب أن يعمد إلى كتاب من الأمهات في الأدب أو في التاريخ أو غيرهما، ويعهد به إلى من يصححه ويقدمه للطبع. وحسب هذا المصحح أن يستطيع قراءة الكتاب قراءة يتصرف فيها خياله وحظه القليل من العلم، ونشاطه الذي تحده المكافأة القليلة التي ينالها من الناشر، ووجدانه الذي لا يحفل بالأمانة العلميَّة كثيرًا.

وأحيانا يتصدى لنشر الكتب بعض العارفين بأساليب النشر الحديثة، فيعهد في تصحيحه إلى بعض الأسماء النابهة، ويتخذ من وسائل الترويج ما يشاء له طمعه في الربح والصيت؛ فيستبشر الأدباء ويرجون خيرًا، ويتربصون على قلق حتى يظهر الكتاب، فيكبوا على قراءته، فإذا الأمر لا يعدو ما ألفوه من طرق النشر، التي لا تصوب غلطًا ولا تزيل شكًا ولا تنال طمأنينة القارئ....لا يعوز الباحث أن يتابع الأدلة من الكتب المشوهة، أو الكتب التي بذل في تصحيحها جهد قليل قصر بها دون الغاية.

نشرِ بعض الناشرين كتابًا قديمًا في الفرق الإسلاميَّة، فمرَّ على أغلاطه لم يعرض لها، وحرف بعض عبارات ظنها غلطًا وهي صواب. وحسبي أن أذكر من فعلاته هذه الواحدة:

ذكر المؤلف رجلًا فنسبه إلى قبيلة وقال: إنَّه «من ثور همدان» أي قبيلة ثور إحدى قبائل همدان، لا من قبيلة ثور الأخرى إحدى قبائل مضر. فحرف الناشر الكلمة إلى «ثغور همذان»، وامتن على القراء في الحاشية بأنه أدرك الحق في هذه الجملة المحرفة!.

وأذكر أن ناشرًا عمد إلى ترجمة كتاب «كلستان للشيخ سعدي الشيرازي» الشاعر الفارسي العظيم، فطبعه وكتب على صفحة العنوان: «كتاب جلستان: بقلم العلامة جلستان الفارسي».

وليس العهد بعيدًا بكتاب «معجم الأدباء» وما أهمل من غلطاته، وحرف من عباراته، وزيد عليه من شرح يتجلى فيه الخطأ والفضول. وقد أخرج للناس في موكب من التشهير والترويج، وهو في الحقِّ حري أن يكون عيبًا لمن أخرجه وعارًا على وزارة المعارف التي احتملت التبعة فيه، فكتبت على صفحة العنوان: «راجعته وزارة المعارف».

وكنت كتبت خمس مقالات في نقض الجزءين الأول والثاني، ثم وعدت القارئ أن أعود إلى النقض بعد أن تطبع الأجزاء الأخرى، لأبيِّن أهي خير من هذين الجزأين أم مثلهما؟! ولعلي أَفِي للقراء بهذا الوعد بعد هذا المطال الطويل.

بل كتب الأدب التي بأيدي الطلاب في مدارس الوزارة فيها كثيرة من الغلط!! وإذا وقع الغلط والتحريف في مثل هذه الكتب، فماذا يرجى من الكتب السوقيَّة التي

يتولَّى نشرها تجار، أكبر همهم النفقة القليلة والربح الكثير؟

كان أسلافنا يكتبون الكتب بأيديهم، إذ لم يكن عندهم من وسائل الطبع والتصوير ما عندنا. فكان عليهم أن يصححوا كلَّ نسخة من كل كتاب، وقد اضطلعوا بهذا العمل الفادح، جهد طاقتهم، وبذلوا فيه من فكرهم وعافيتهم ونومهم وراحتهم ما تشهد به آثارهم وأخبارهم!

كان المتأدب منهم يقرأ الكتاب على أديب ثقة، ويكتب عليه أنه قرأه على فلان، ويغلب أن يكون الشيخ الذي قرئ عليه الكتاب قد قرأه على آخر، وهكذا حتى تنتهي القراءة إلى المؤلف أو الشاعر أو الكاتب. ويكتب هذا السند المتصل على الكتاب فيعلم قارئه أن بيده كتابًا عمدة يطمئن إليه، بل فعلوا هذا في الدواوين المتواترة التي يتداولها الحفظ والنسخ كل حين، كديوان المتنبي، وعندنا اليوم نسخ منه تحمل سندها من أبي الطيب إلى سبعة قرون أو أكثر من بعده.

وهذا العكبري[1] شارح الديوان في القرن السابع، لم يجز لنفسه أن يشرحه حتى قرأه على شيخين من شيوخ الأدب: مكي بن ريان بالموصل وعبد المنعم بن صباح التميمي بمصر.

وقد وضع أسلافنا أصولًا اصطلحوا عليها وسموها «أصول السماع»، بينوا فيها كيف يثبت راوي الخبر أو راوي الكتاب حتى يتحرز عن الغلط جهده.

ومن عجيب ما يروى في هذا، ما حدثني به بعض الثقات، أن القاضي عياضًا ذكر في كتابه «الإلماع في أصول السماع» أن أبا علي القالي صاحب الأمالي أعار الحكم

(١) نشر مقال طويل في مجلة المجمع العلمي العربي في سنة ١٩٤٦-١٩٤٧ يثبت فيه كاتبه أن هذا الشرح لابن عدلان المصري، وليس للعكبري الكوفي هذا، فإن لزم التنبيه على ذلك فليرجع إلى هذا المقال.

المستنصر الأموي خليفة الأندلس كتابًا من كتبه، وطالت غيبة الكتاب عنه. فلما رد إليه أبطل الرواية به، وقال: لا آمن أن يكون قد أصابه تحريف وهو في يد غيري.

ذلكم جهد السلف ودأبهم في التثبت، على حملهم هذا من عناء ونصب. فكيف وقد تيسر طبع الكتب بما خلقت المَدَنِيَّة الحاضرة من وسائل -كيف نتهاون في التصحيح والتحقيق، فنخرج كتبًا تنوء بأغلاطها؟ إن ناشر الكتاب اليوم يكفيه أن يصحح نسخة واحدة لتصح له آلاف النسخ، فيتواتر الكتاب، ويؤمن عليه الغلط والتحريف، والزيادة والنقص من بعد. ليت شعري بأي عذر نعتذر، وبأي تعلة نتعلل؟ لا عذر ولكنَّه التهاون والكسل أو القصور والجهل، وفيها خيار لمتخير.

فالذي نرجوه أن تؤلف الحكومة، أو تكل إلى الجامعة، تأليف جماعة لمراقبة النشر، وبخاصة نشر الكتب القديمة، فلا يؤذن لناشر أن ينشر كتابًا حتى تستوثق هذه الجماعة أنَّ القائمين على تصحيح الكتاب أهل لتصحيحه وإخراجه على حال يسكن إليها أولو العلم والأدب. ولهم في لجنة التأليف والترجمة والنشر أسوة حسنة، ومثال صالح؟

ذلكم أقرب إلى التحقيق، وأبعد من الفوضى، وذلكم أجدر بنا وأولى بسمعتنا، وأحفظ لتاريخنا وآدابنا، فإن توهم متوهم أن الخطب في هذا أمر يوكل إلى الزمن إصلاحه، ولا يحتاج إلى عناية الأمر والحكومة، فليسأل الباحثين من علمائنا وأدبائنا، ليشكوا إليه ما قاسوا من الكتب المحرفة، والنصوص المضلِّلة، وإنا لراجون أن تبادر الحكومة إلى تبشير الأدباء بما تعتزمُ في هذا الأمر العظيم، ثم تتبع البشرى العمل والوعد الإنجاز.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

زواج أمير عربي من أميرة هنديَّة

١

ماذا يخطُّ القلم في هذا الفرح المتلألئ، والسرور المزدهر، والقلوب الخافقة، والأيدي الصافقة، والزينات الساحرة، والأضواء الباهرة؟!

ماذا يخط القلم في أمّة بل أمم خفقت قلوبها حبًّا، وانطلقت ألسنتها دعاء، وتوجهت إلى هذا الوجه الأغر، والطلعة المباركة، إلى الملك الشاب الصالح، جلالة الملك «فاروق»؟!

ماذا يخط القلم، إلا أن يشارك العيون متعتها، والنفوس بهجتها، والقلوب أدعيتها، فيجول في مجال واسع من الفرح الحاضر، أو يقلب صفحات التاريخ عن صفحة من الجمال والسرور لألاءة، أو يطمح في المستقبل إلى حقب من المجد وضاءة، تظللها السعادة واليسر، والصفاء والبشر.

قلبت صفحات التاريخ، فعبرت من عرس إلى عرس، حتى وقفت على عرس كان في الهند في القرن الثامن الهجري. ورأيت من غرابته وطرافته ما يؤهله؛ لأنَّ يعرض على قراء «الرسالة» في هذا الأسبوع المبارك.

٢

كان السلطان محمد بن غياث الدين تُغْلُق شاه، يملك «دهلى» وما يتصل بها،

وبلاد «الدكن»[1] في ربيع الثاني من القرن الثامن الهجري ٧٢٥-٧٥٢هـ وكان ملكًا ذكيًّا سخيًّا، عظيمَ البطش، جبارَ السطوة!

وكان يحتفي بالغرباء الوافدين عليه، ولا سيما العرب، وخاصة من انتمى منهم إلى بيت النبوَّة، كان يبذل لهم من ماله، ويوطئ لهم من كنفه، ويبلغ من إكرامهم وإجلالهم ما يملأ النفس عجبًا!

٣

وكان آل ربيعة من طيِّئ أمراء على قبيل عظيم من العرب في أطراف الشام، في عهد الدولة الأيوبية، ودولة المماليك... كان ملوك مصر يستنجدونهم في اللزبات، ويفوضون إليهم الرياسة على القبائل، ويبالغون في إكرامهم إذا وفدوا عليهم، وقد قدم منهم: فرج بن حية على المُعِزِّ «أيبك»، فأنزله بدار الضيافة أيَّامًا، وأنفق على ضيافته وهداياه ستة وثلاثين ألف دينار! وكان من أمرائهم في القرن السابع والثامن آل مُهَنى بن عيسى. «وكلهم رؤساء أكابر، وسادات العرب ووجوهها، ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة، وصيت عظيم، إلى رونق في بيوتهم ومنازلهم»[2].

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

٤

قدم الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مُهَنى، على السلطان محمد فأكرم

(١) دكهن، ومعناه الجنوب: القسم الجنوبي من بلاد الهند.

(٢)صبح الأعشى ج٢.

وفادته، وأنزله بقصر في «دهلي» يسمَّى «كشك لعل» أي القصر الأحمر، وجزل فيه العطايا، وأكثر الهدايا، ثم زوجه أخته الأميرة فيروز.

وكان الرحالة ابن بطوطة إذ ذاك مقيمًا بدهلي في كنف هذا السلطان، فشهد العروس العظيم، وتولى بعض شئونه، ووصف زفاف الأمير سيف الله والأميرة فيروز.. فانظر كيف وصف:

«ولما أمر السلطان بتزويج أخته للأمير غدا، عين للقيام بشأن الوليمة ونفقاتها «الملك فتح الله»، وعينني لملازمة الأمير غدا، والكون معه في تلك الأيام، فأتى «الملك فتح الله» بالصيوانات، فظلل بها المشورين[١] بالقصر الأحمر المذكور، وضرب في كلٍّ واحد منهما قبة ضخمة جدًّا، وفرش ذلك بالفرش الحسان.

وأتى شمس الدين البريزي أمير المطربين، ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص، وكلهن مماليك السلطان.

وأحضر الطباخين والخبازين والشوائين والحلوانيين، والشربدارية والتنبول داران[٢]، وذبحت الأنعام والطيور، وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يومًا، ويحضر الأمراء الكبار والأعزة ليلًا ونهارًا.

فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين[٣] من دار السلطان ليلًا إلى هذا القصر، فزينه وفرشنه بأحسن الفرش، واستحضر سيف الدين، وكان عربيًّا غريبًا لا

---

(١) المشور: كلمة يستعملها ابن بطوطة في معنى فناء الدار.

(٢) الشر بدارية: القيمون على الشراب. والتنبول: نبات هندي أحمر يؤكل كثيرًا ويقدم للضيوف. والتنبول دار: من يتولى تقديم التنبول.

(٣) الخواتين: جمع خاتون، وهي السيدة باللغة التركية.

قرابة له، فخففن به، وأجلسنه على مرتبة معينة له، وكان السلطان قد أمر أن تكون أم أخيه مبارك خان مقام أم الأمير غدا، وأن تكون امرأة أخرى من الخوانين مقام أخته، وأخرى مقام عمته، وأخرى مقام خالته، حتى يكون كأنه بين أهله. ولم أجلسنه على المرتبة، جعلن له الحناء في يديه ورجليه، وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن، وانصرفن إلى قصر الزفاف.. وأقام هو مع خواص أصحابه.

وعين البسلطان جماعة من الأمراء تكون من جهته -الأمير- وجماعة يكونون من جهة الزوجة، وعادتهم أن تقف الجماعة التي من جهة الزوجة على باب الموضع الذي تكون به جلوتها على زوجها، ويأتي الزوج بجماعة، فلا يدخلون إلا أن يغلبوا أصحاب الزوجة أو يعطونهم آلاف الدنانير إن لم يقدروا عليهم.

ولما كان بعد المغرب أتى إليه بخلعة حرير زرقاء مزركشة مرصعة، قد غلبت الجواهر عليها، فلا يظهر لونها مما عليها من الجواهر، وبشاشية مثل لك، ولم أر قط خلعة أجمل من هذه الخلعة، وقد رأيت ما خلعه السلطان على سائر أصهاره مثل: ابن ملك الملوك عماد الدين السمناني، وابن ملك العلماء، وابن شيخ الإسلام، وابن صدرجهان البخاري، فلم يكن فيها مثل هذه!

ثم ركب الأمير سيف الدين في أصحابه وعبيده، وفي يد كل منهم عصا قد أعدها، وصفوا شبه إكليل من الياسمين والنسرين، وله رفرف يغطي وجه المتكلل به وصدره، وأتوا به الأمير ليجعله على رأسه، فأبى ذلك، وكان من عرب البادية، لا عهد له بأمور الملك والحضر، فحاولته وحلفت عليه حتى جعله على رأسه.

وأتى باب الصرف، ويسمونه باب الحرام، وعليه جماعة الزوجة، فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية، وصرعوا كل من عارضهم، فغلبوهم، ولم يكن لجماعة الزوجة

من ثبات، وبلغ ذلك السلطان، فأعجبه فعله.

ودخل إلى المشور، وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج، مرصع بالجوهر، والمشور ملآن بالنساء والمطربات، وقد أحضرن أنواع الآلات المطربة، وكلهن واقفات على قدم إجلالًا له وتعظيمًا، فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر، فنزل وخدم[1]. عند أول درجة منه. وقامت العروس حتى صعد، فأعطته التانبول بيدها. فأخذه وجلس تحت التي وقفت بها. ونثرت دنانير الذهب على رءوس الحاضرين من أصحابه ولقطتها النساء والمغنيات يغنين حينئذ، والأطبال والأبواق والأنقار تضرب خارج الباب.

ثم قام الأمير وأخذ بيد زوجته، ونزل وهي تتبعه، فركب فرسه يطأ به الفرش والبسط، ونثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه، وجعلت العروس في محفة، وحملها العبيد على أعناقهم إلى قصره، والخواتين بين يديها راكبات، وغيرهن من النساء ماشيات. وإذا مروا بدار أمير أو كبير خرج إليهم، ونثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همته، حتى أوصلوها إلى قصره.

ولما كان من الغد بعثت العروس إلى جميع أصحاب زوجها الثياب الدنانير والدراهم. وأعطى السلطان كل واحد منهم فرسًا مسرجًا ملجمًا، وبدرة دراهم، من ألف دينار إلى مائتي دينار، وأعطى -الملك.فتح الله- للخواتين ثياب الحرير المنوعة والبدر، وكذلك لأهل الطرب- وعادتم ببلاد الهند ألا يعطوا أحدًا شيئًا لأهل الطرب، إنما يعطيهم صاحب العرس، وأطعم الناس جميعًا ذلك اليوم.. وانفض العرس.

(١) خدم: حيا بالانحناء.

وأمر السلطان أن يعطي للأمير غدا بلاد المالوة والجزرات وكنباية ونهر والة، وجعل فتح الله المذكور نائبًا عنه عليها، وعظَّمه تعظيمًا شديدًا...»اهـ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

على حافة الفجر وشاطئ النيل

الليل قد مضت ساعاته، ودارت دورتها نجومه، بين بعيد عن القطب قد غرب أو كاد، وقريب منه تزاور عن الأفق الغربي شطر الشمال والشرق. هذه بنات نعش الصغرى طائرات صوب الشرق، والفرقدان يتطلعان إلى أشعة اليوم الوليد وراء الأفق:

فاسأل الفرقدين عمن أحسا ... من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار ... وأنارا لمدلج في سواد

وبنات نعش الكبرى كادت تلامس الأفق، وكأنها جواد محضر على حافة الأفق، يبغي مستقره قبل الصبح.

وها هي الثريا جاوزت جوز السماء، نازعة إلى أفقها البعيد في المغرب، تذكر بقول ذي الرمة:

وردن اعتسافا والثريا كأنها ... على قمة الرأس ابن ماء محلق[1]

ووراء الثريا الدبران يحث قلاصه، ليدرك خطيبته بهذا الصداق، لم ييأس منها على طول إعراضها، ولم يمل على تمادي المسير[2].

(١) ابن الماء: الطائر.

(٢) في أساطير العرب أن الدبران خطب الثريا، وساق إليها مهرها من الإبل، وما يزال يتبعها بهذا المهر وهذه الإبل نجوم تظهر بين الدبران والثريا.

وهناك المجرة نهر السماء الذي لا يسبر لجه، ولا يدرك غوره بل نهر الزمان يسيل بالعصور والدهور، يحسر الفكر على شاطئه، ويعيا الوهم دون منبعه وغايته، عالم وراء العالم، وفلك فوق الفلك.

وصور أخرى رائعة هائلة تتجلى بها السماء، في هذا الصفاء.

يرقى الفكر إلى هذه المشاهد العلوية، فيوغل فيها ثم يوغل حتى ينبهر، فيهوي حسيرًا مرتاعًا كشيطان الرجم، يلتمس مكانه على الأرض، يهول الفكر هذا العظم الذي لا يحد، والجلال الذي لا ينتهي، والغور الذي لا يبلغ، والحجاب الذي لا يخترق، ويفزعه جو تتحطم فيه الأجنحة، ومدى يعيا الطيران في أوله، فيفر من هذه السعة الهائلة التي يفنى فيها المكان إلى الأرض، ثم إلى مكانه الصغير منها، ويعتصم من هذا الكون الفسيح الذي يتيه فيه الزمان، إلى الزمن، ثم إلى ساعة منه، يحتمي بهذه الحدود، ويأنس بهذه القيود.

ثم تطمح النفس الإنسانيَّة، بل الشعلة الإلهيَّة، إلى العلاء، طموح النسر إلى متقبله من جو السماء، فتقطع قيدًا بعد قيد، وتجتاز حدًّا بعد حدٍّ، وتخرج من دائرة بعد دائرة، فإذا هذا الجسم المحدود، والعقل المكدود، هاجم فيما وراء الحدود، يحاول الأمر الذي لا ينتهي، والعلم الذي لا يُنال.

ثم يعيا وينبهر، فيهبط إلى أرضه ومكانه، ووقته وزمانه، ولكن بصره إلى السماء، وهمته إلى العلاء، وطموحه إلى الإدراك، في الأفلاك وما وراء الأفلاك.. وهكذا يعلو ويسفل، ويقدم ويحجم، وينزع ويرجع، حائرًا بين كونه المحدود، وطوقه المجهود، وبين طموحه الذي يأبى القيود، مترددا بين عالمه الأصغر، والعالم الأكبر، بين نفسه الصغرى، والحقيقة الكبرى، بل بين الإنسان والله.

أفزعني هذا المراد، وهالني هذا الجهاد، فأويت إلى الحد بعد الحد، والستر من وراء الستر، حتى أمنت على نفسي في موقفي الضيق، على هذه البقعة الصغيرة، فوق هذه الأرض المحدودة، فنزلت من الحقائق الواسعة، إلى الدوائر الضيِّقة، من الوجود المطلق، إلى الوجود المقيد، وما زلت أجتاز أجناسًا إلى أجناسٍ، وأنواعًا إلى أنواعٍ، فإذا أنا مطل من داري على شاطئ النيل، في ليلة من ليالي رمضان وقت السحر.

وأشفقت أن ترفعني صور النجوم في الماء، إلى حقائقها في السماء، وأن يسلمني نهر النيل إلى نهر المجرَّة، وأن تردني إلى حيث فررت، هذه الصلات الوثيقات بين الصغير والكبير، والمطلق والمقيد، وبين الذرة والشمس، فألححت على الفكر أن يحبس، في هذا المشهد المحدود، وألزمت العقل الأخلاد إلى هذه الأرض.

ثم كدت أسير مع النيل إلى منتهاه، فيصلني بالأبد، أو أرجع معه إلى منبعه، فيسلمني إلى الأزل، فحبست عياني على ما أمامي، وفكري في مرآى، كما يحبس الطائر الوحشي في قفص، ويلهي بالحب عن أطباق الجو.

* * *

رأيت النيل رهوا تتراءى في صفحته مصابيح ساكنة خافتة مطلة من شاطئ الجيزة، ورأيت الزرع نائمًا تمسحه نسمات الفجر رفيقة مشفقة، كأنا أم توقظ طفلها، وآنسني الليل الساجي، والمنظر الصامت، والمشهد المُصْغِي، والطبيعة النائمة، بل الخليقة الحالمة.. لا أسمع ركزًا إلا صيحات متفرقة من ديكة متباعدة، كأنَّها قبل صيحاتها للفجر، نغمات متقطعة يمهد بها الموسيقى لألحانه المتصلة، وإلا نقيق ضفادع قليلة مشتتة، وإلا صرير الجنادب بين الزروع موحدًا متصلًا خافتًا، لا يقطع الفكر، بل يسايره مطردًا كأنه مرور الزمان.. ثم انغل الفكر في الناس، فإذا هم بين

يقظان انطوت على البر جوانحه، وعمر بالخير قلبه، ونطق به لسانه، يسبح الله، ويفكر لخير نفلسه وخير الناس في مثواه، وآخر يقظ يقظة الصل، ينساب في مجاثم الظلام إلى الآثام. وإذا هم بين نائم يستجم بالرقاد، ليستأنف الجهاد، ونائم أنامته البطالة، وأماتته التخمة، لا يفتقده نائمًا عمل ولا أمل، ولا تحمد يقظاته حركة ولا سكون، وإذا هم بين حالم سوَّدت أعماله أحلامه، ينشره النهار للضر، ويطويه الليل للشر، ويسلمه النهار الأثيم إلى الحلم الأثيم، وآخر أضاءت رؤياه نيته، وازدهرت بالحلم الطيب طويته، فهو خير اليقظة والنوم، طاهر الحقائق والرؤى، وضروب أخرى من البشر طاف بها الخيال، واسع المجال، ثم انثنى قلقًا مضطربًا.

وكاد يخل هذا التفكير المتنافر، بهذا المشهد المتآلف، ويقطع الهم المضطرم، هذا النغم المنسجم، فعدت إلى النيل أطالعه، والزرع أراقبه، والخليقة آنس بها، وأسكن إليها، وأتغلغل فيها وأناجيها.

ودوت الأرجاء بالصياح، من ديكة الصباح، وانبجست النواحي بالأذان، يتجاوب في القلوب والآذان، وسرت في الخليقة قشعريرة هزت يقظانها وهاجعها، وأنعشت حيها وهامدها، وتوهمت أشعة الفجر الخفية، تخالط هذه الأصوات الندية، بل خلت الأشعة استحالت أصواتًا، أو الأصوات تحولت أشعة.

استحال العالم كله معبدًا، وبدا كل شيءٍ راكعًا أو ساجدًا. فهذه الأضواء وهذه النسائم، وهذه المياه، وهذه الزروع، والديكة المؤذنة، والجنادب الصارة، كلها في خشوع وقنوت، وتسبيح وتهليل، والنجوم الغاربة على الأفق ساجدة، والسماء المحدودبة الخاشعة، لجلال الخالق راكعة. سمعت من الخليقة ومن قلبي ومن لساني الآية الكريمة، تفسيرًا لما أرى، وأسمع وأتوهم: {تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم}.

لم أجد غيري خاليًا من الصلاة، ولم أر سواي شذوذًا في هذا النغم، فرددت نظرات في العالمين، ثم أسرعت لأكون من الساجدين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

وديعة ميافارقين

سيف الدولة علي بن حمدان أمير حلب والعواصم، يخط بسيفه مملكة في ثغور الروم، ويقرها على الزلازل، ويثبتها على الأهوال، ويمكنها في مضطرب الأمواج، ومدارج السيول.

لبث الرجل عشرين عامًا يغزو الروم، ويدفع غزواتهم ويجاهد وحده هذا العدو الذي جاهده العرب وجاهدهم، منذ زال سلطان الروم عن الشام، لا تفتر همة علي بن حمدان، ولا يكل عزمه، ولا تفل شباته، وجيوش الروم وأتباعهم تطغي على البلاد العربيَّة، موجة بعد موجة، فتتكسر على هذه الصخور من الشجاعة والعزم، والجهاد والصبر، ويسيل السيل بعد السيل، فيصده هذا السد الذي مكنته شجاعة سيف الدولة وجنده القليل، وكم نكبت جيوش سيف الدولة، فما وهن ولا استكان، ولاساير الزمان، ولا أخلد إلى السلامة، ولا آثر العافية، ولكن الحوادث انجلت عن هذا الوجه الوضاء بساما للخطوب، وهذه العزة القعساء راسية على الأهوال:

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنَّـك في جفـن الـردى وهـو نـائم
تمـر بـك الأبطـال كلمـى هزيمـة ... ووجهـك وضَّـاح وثغـرك باسـم

وبنو بويه في بغداد، والأخشيديون ثم الفاطميون في مصر، بمعزل عن هذه الحوادث، أسلموا الأمير الحمداني لهذا الجلاد الدائب، والعراك المتواصل:

أنـت طـول الحيـاة للـروم غـاز ... فمتـى الوعـد أن يكـون القفـول
وسـوى الـروم خلـف ظهـرك روم ... فعـلى أي جانبيـك تميـل

قعد الناس كلهم عن مساعيـ ... ـك وقامت بها القنا والنصول
ما الذي عنده تدار المنايا ... كالذي عنده تدار الشمول

٢

هذه سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة والسيف العربي الذي قارع الروم عشرين عامًا لم يفل، والعزم الذي استكبر على الغير حقبة طويلة لم يضعف، ولكن سيف الدولة مريض، عرضت علة لجسده، وكبرت عن العلل روحه، وقد حاصر الروم طرسوس، واستغاث أهلها الأمير العليل، فلم يقعد به مرضه، ولا بعث للعدو قائدًا غيره، بل ركب في الجيش المرزأ بالسيوف المفللة، يجيب الصريخ، ويغيث أهل الثغور:

وغر الدمستق قول العدا ... ة إن عليًّا ثقيل وصِب
وقد علمت خيله أنه ... إذا هم وهو عليل ركب

وخاف الروم لقاء الأمير الذي عرفوه، وقتال الجيش الذي خبروه، فتركوا طرسوس، وقفلوا إلى ديارهم، وانفرجت الغمة عن طرسوس وما يليها:

سبقت إليهم مناياهم ... ومنفعة الغوث قبل العطب
فخروا لخالقهم سجدًا ... ولو لم تغث سجدوا للصلب
وكم ذدت عنهم ردى بالردى ... وكشفت من كرب بالكرب

وبقى الأمير العليل يستقل بأعباء الجهاد، ويحمي وحده الثغور:

أرى المسلمين مع المشركيـ ... ـن إما لعجز وإما رهب
وأنت مع الله في جانب ... قليل الرقاد كثير التعب

علي ابن حمدان مريض، يحارب عدوًا شديدًا، ويلقى خطوبًا سودًا ولكن على الأسد أن يحمي غيله، والفحل يحمي شوله معقولًا. يمضي الرجل في جلاده على العلات وعلى رغم العلل والحادثات، وأمراء العرب والمسلمين من خلفه كما قال أبو الطيب لهذا الأمير العظيم:

ألهى الممالك عن فخر قفلت به   شرب المدامة والأوتار والنغم

٣

في شهر صفر سنة ست وخمسين وثلاثمائة في مدينة حلب، يمرض ابن حمدان البطل مرضه الأخير، وينظر وراءه إلى ثلاث وعشرين سنة من المجد والكد، ويتمثل الخيل المغيرة والنقع المثار، والسيوف المتضاربة، والرماح المتطاعنة، والكر والفر، والهزيمة والظفر، ويتذكر من ثبت ومن فر، ومن وفَّى ومن غدر، كما يتمثل الشعراء أمامه يسجلون وقائعه، ويخلدون مآثره، والعلماء والأدباء يأتونه من كل صوب، ينشرون العلم في كنفه، ويحتمون من الحوادث في جانبه، وتمر بخياله الحوادث حلوها ومرها، والأيام خيرها وشرها، فيبسم بسمة الرجل أدى واجبه، ووفى بعده، وترك وراءه صيتًا بعيدًا، وذكرًا حميدًا.

وهذه الساعة الثالثة من يوم الجمعة لخمس بقين من صفر سنة ست وخمسين وثلاثمائة، والأمير العظيم على فراش الموت، يود لو جمع تاريخه في كتاب، وأحصيت وقائعه في سجل يأخذه بيده في ساعته الأخيرة، ليلقى ربه بما قدمت يداه، وبما جاهد في سبيل الله! بل يود لو صورت الخطوب، ومثلت الحوادث، وطوى التاريخ في صورة مجسمة ليصحبه في قبره، ويؤنسه في وحشته، ويمضي معه حجة ناطقة، وشهادة ناصعة، وكيف تصور الخطوب! وتمثل الحوادث، ويطوي التاريخ مجسدًا؟!

يقول سيف الدولة: هاتوا اللبنة، قد نفضت دروعي بعد الوقائع، وجمعت ما عليها من الغبار، وصنعت من الغبار لبنة، علي بهذه اللبنة لأراها، فإذا مت فضعوها في لحدي تحت خدي[١].

ونقلت جثة الأمير الكبير، ولبنة الرجل المجاهد إلى ميافارقين، فدفنا في التربة التي دفن فيها سيف الدولة والدته.

فيا ليت شعري أين في ميافارقين قبر سيف الدولة، وأين من تربتها تلك اللبنة؟ تلك الهمة المجسمة، والمجد المجسد!

أين تلك اللبنة التي يشاد عليها صرح من المجد منيف، وينبي بها ملك من العزة شامخ، تلك الحجة التي لم يدل بمثلها بطل، ولا ظفر بنظيرها مجاهد!!

لقد صور سيف الدولة من غبار الوقائع لبنة، فليصور كتابنا وشعراؤنا هذه اللبنة جهادًا، وعزمًا، وعزة ومجدًا، وليجعلوها في المفاخر مثلًا سائرًا، وفي الأدب نثرًا بليغًا، وشعرًا رائعًا[٢]. ليقرءوا فيها شعر أبي الطيب في سيف الدولة، أو فلينشدوا فيها شعرًا أروع من شعر أبي الطيب، فما أنفدَ شاعرنا مجد أميرنا وإن قال:

شاعر المجد خدنه شاعر اللفـ ـظ كلانا رب المعاني الدقاق

(١) ابن خلكان.

(٢) سمعت من الشاعر الأديب رفيق الخوري أبياتًا في قصة هذه اللبنة ونحن في مهرجان أبي العلاء.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

على قبر الزهاوي (١)

بعد أن ووري في التراب شيخ الشعراء وفقيد العرب، وقف على قبره الدكتور عبد الوهاب عزام، فنثر عليه هذه الزهرات:

اليوم يقع هذا النسر بعد طول تحليقه!

اليوم يصمت هذا البلبل بعد طول تغريده!

اليوم يظفر هذا الجواد بالجمام!

اليوم يستريح هذا الفارس من الآلام!

اليوم تسكن هذه النفس الثائرة!

اليوم يرقد الزهاوي في قبره!

كل نفس ذائقة الموت. وإن لله وإنا إليه راجعون.

وإنما الخالد من خلدته آثاره وسيبقى شعر الزهاوي مدويًا بعد مماته كما كان مدويًا في حياته، ليبعث العزائم الراقدة. ويشعل النفوس الخامدة.

ستتلقى مصر والبلاد العربية نعي الزهاوي كما تلقى العراق والعربية نعي شوقي، فتتجاوب بلاد العرب بالرثاء، وتتبادل العزاء، ونسأل الله أن يعوضها في شاعر العربية خيرًا.

---

(١) نشرت في ص٣٤٨ العدد ١٣٩ السنة ٤ سنة ١٩٣٦ من مجلة الرسالة الغراء.

أيها الشاعر العظيم ستذهب وذكراك بيننا خالدة!

أجميل لا تبعد فذكرك خالد ... الذكر للإنسان عمر ثان

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أوراق (١)

شرعت منذ ساعتين أقلب أوراقي، في خزانة كتبي وأرتبها وأمزق ما لا أحتاج إليه. وأنا وأمثالي من الأوراق في جهاد دائم، إن أغضيت قليلًا تراكمت على المكتب والكراسي، وكان منظرها همًّا، والتفكير فيها ألمًا، ونغصت علينا العمل. فلا بد أن يتعد الإنسان أوراقه بين الحين والحين، وإلا غلبته وتراكمت حوله تراكم الهموم.

وفي طبعي إلف يدعوني إلى الاحتفاظ بأوراق لا غناء فيها، وكلما طال عليها الزمن، وبعد العهد بما فيها، زادت قربًا إلى نفسي، وحبًّا إلى قلبي، وعزت على عزة الذكر القديمة، والحوادث التي تؤرخ الحياة الماضية.

وقد عثرت -وأنا ماضٍ في نقد الأوراق وتمزيق بعضها وقد غلبني التعب والملل، فهان على تمزيق أوراق ضننت بها زمنًا طويلًا- على ظرف فيه وريقات شتَّى، فجلست بها أقلبها، وأتسلى بذكرياتها، فإذا هذه الوريقات تمثل تقلب الإنسان في هذه الدنيا بين أعمال مختلفة، وشواغل شتَّى. إن جمع بعضها إلى بعض كانت مفارقات مضحكة، أو عظات مبكية.

هذه الوريقات في هذا الظرف الصغير، ترجع إلى سفري في تركيا قبل تسع سنوات.

فهذه أثبات فيها كتب تركية في موضوعات شتَّى، ومعها بيان أثمانها. بين هذه الكتب نسخة عربية مخطوطة من «أمثال الميداني» ونسخة جليلة من كتاب «المثنوي»

---

(١) نشرت في ص٣٠١ العدد ٧١٥ السنة ١٥ سنة ١٩٤٧م من مجلة الرسالة الغراء.

أغلب الظن أنها كانت في يد العالم الشاعر، والصوفي العظيم الشيخ عبد الرحمن الجامي.. ذكرتني هذه الورقة بمجالس لي عند الوراقين في «حي بايزيد» من أحياء أسطنبول، وهو أحب أحيائها إلى نفسي.

وورقة أخرى فيها أسماء أربع عشرة من خزائن الكتب في هذه المدينة العظيمة: «أسطنبول» وقد دخلتها كلها، ونعمت بالقراءة والبحث عن الكتب القيمة فيها.

وأوراق أخرى من هذا الضرب الذي شغلنا في السفر والحضر، واليقظة والنوم.

وورقة فيها قطع من الشعر التركي. خطها أديب عالم تركي، ظفرت بصحبته في تلك الرحلة، هو المرحوم «فريد بك» وكان رحمه الله متشائمًا كثير السخرية.

ومن هذه الأبيات، وأحسبها من نظمه:

كجدى دنيادن آداملق دوره سى

اعتماد إيت كل بو قول راجحه

شمدى حيوانقلده درفيض ورواج

روح إنسانية الفاتحة

وترجمتها:

مضى من الدنيا دور الإنسانية، اعتمد على هذا القول الراجح. والحيوانية الآن في فيض ورواج، فلروح الإنسانية الفاتحة.

وبعدها ورقة فيها بيان بكتب مخطوطة قديمة محلاة، رأيتها عند واحد من ولاة

التركِ السابقين. ورأيت كيف يعتز بها ولسان حاله يقول:

وقـد تخـرج الحاجـات يـا أم عـامر كـرائم مـن رب بهـن ضنين

ثم ورقة تذكر بزيارتي بيت الشعب في «أنقرة» وما لقيت هناك من رجال وآراء، وتحف وآثار.

وبطاقة فيها ذكر كتب وآثار رأيتها في مدينة «قونية» حينما زرت ضريح جلال الدين الرومي، ودار المولوية التي صيرت اليوم متحفًا. وكم لي في دار المولوية من وقفات، وعظات وكم لها في النفس من ذكريات.

وصورة صغيرة لرجل كريم رافقته في طريقي من «إسكيشهر» إلى «قونية» وسايرته في قونية ساعات، فحفظ الود، وأهدى إلي صورته، وعلى ظهرها كلمة تعرب عن أخوته وصداقته، وتاريخها ١٣ أيلول سنة ١٩٣٧، وقد افترقنا ولم يعلم أحدنا عن صاحبه من بعد شيئًا. ورحم الله حافظ الشيرازي، يقول:

«اغتنم الصحبة، فإننا حين نفترق من هذا المنزل ذي الطريقين، لا نستطيع أن نلتقي أبدًا!!».

وكل منازل الحياة ذات طريقين، بل طرق، إن افترقت بالمجتمعين، لم يكونوا من اللقاء على يقين.

وبيدي الآن صفحة كتبت بخط نسخيٍّ جميل وباللغة التركيَّة، وهي رسالة من أحد أدباء الترك إلى آخر يعرب عن تحسره على الشاعر الكبير الصديق المرحوم محمود عاكف. ولست أتذكر الآن المنشئ ولا الكاتب.

وهي صحيفة جديرة أن تترجم إلى العربيَّة وتنشر، تجديدًا لذكرى شاعر

الإسلام عاكف، الذي سعدنا بصحبته في مصر سنين.

وهاتان ورقتان نشرتهما، فإذا أبيات لي في وصف دمشق إحدى ذكرياتها مسطورة بالرصاص، وللمداد فيها إصلاح وتغيير كالتمثال، ولا يزال يعمل في جوانبه إزميل النحات، وأول الأبيات:

دمـــشق يـــا قـــرة العيـــون وبـــسمة القلـــب والجبـــين
لله يـــــوم خلـــــست فيـــــه ساعا مــن الـدهر ذي الـشجون
دخلـــت خلـــف العـــصور دارا عـــاد بهـــا غـــابر الـــسنين
رأيـــــت تاريخنـــــا تجـــــلى يفـــيض يالـــشعر والفنـــون

... إلخ

وهي أبيات كثيرة، وصفت فيها دارًا قديمة من دور دمشق ذات الحدائق والنوافير، والنقوش، والزخارف، التي تمثل تاريخنا يوم كنَّا نبني بأيدينا وعقولنا لأنفسنا، قبل أن نسلب الاستقلال في كلِّ شيءٍ، ونعني بالتقليد في كلِّ شيءٍ.

وآخر الأبيات:

خرجـــت منهـــا يقـــول قلبـــي للرَّجْـــل: بـــالله أنظرينـــي

ومن الأوراق كتاب من «النادي العربي بدمشق» يتضمن شكري على محاضرة ألقيتها فيه، موضوعها: النهضة العربيَّة.

وأوراق غير هذه، فيها حساب الفنادق، ومالي وللحساب؟!

* * *

هذا ظرف صغير نشرت منه هذه الذكر كلها؛ وقد مضت عليها تسع سنين، وكأنها وقعت أمس.

وكل حياتنا ملأى بالوقائع، والفكر والعبر. ولكنَّها تمر سريعة مر الزمان، وينحى عليها الزمان المحَّاء بالمحو النسيان. فهل من مدَّكر؟!

* * *

أثارت هذه الوريقات ذكريات في نفسي، تتصل بها ذكريات، وكشف النسيان عن حوادث عفى الزمان على آثارها، فسارعت بكتابة هذه الكلمة قبل أن يمحو الزمان الذكر، ويفجع بعد العين بالأثر.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكن الله الفردوس
www.moswarat.com

عبرة الحادثات

المدنية الأوربيَّة -على خيراتها- وما أجْدت على النَّاس من علمها ورفاهيتها؛ مدنية مادية، دعائمها المعادن، والأحجار... يصاغ قلبها من الذهب والحديد وأشباههما، ويُغذِّي بالفحم والنَّفط وأخواتهما، وتدور بها دواليب المصانع والمغازل والمناسج.

قد استحكمت فيها الآلات، وأتقنت الصناعات، حتى أغنت عن الإنسان أدواتها، ونافسه عتادها، فثارت العداوة بين الآلات وصانعيها، وعُمَّالها ومالكيها... وقد أوحى ذلك إلى بعض الأمريكيين، فاخترعوا إنسانًا آليًّا، يخدم خدمة الإنسان، ويتحرك حركاته.

وهل الإنسان في المصانع إلا آلة سريعة العطب؟!

طبع إنسان هذا العصر آليًّا دائرًا لا يألف الاستقرار، ولا يعرف السلام، ولا تتمكَّن في قلبه المحبة، ولا تستقر في سريرته الشفقة.

واستكلبت هذه الآلات على غذائها، وتنافست في أقواتها، وأحس كل أنَّها القوة، لا العدل، والغلبة لا الإنصاف... فنفخوا في الأمم روح العصبيَّة، وغرور العنجهيَّة... وزعم كل قبيل... أن أوله خير الأولين، وأنَّه سيد الحاضرين، وأن بنيه سادة الآتيين... وأن الأرض كلها له... وأن الويل لمن جادله... ثم ما شئت من أناشيد مثيرة، وتربية هائجة... وإيقاظ الوحشية في النفوس، وإشعال البغضاء في الأفئدة... حتى صار الناس -على رغم العلم والفلسفة، وعلى ما قربت بينهم الوسائل الحديثة- أميل إلى الحرب والجلاد، وأحب للتخريب والتدمير... من أناسي

القرون الخالية.

فبينا تراهم في ظاهر من السلام والوئام... يتغنون بحضارتهم، ويعكفون على دراستهم... ويتكلمون في العدل والحرية والأخوة... إذ تحكهم التجارب قدح الزناد... فإذا النار تحت الرماد... تغلب عليهم الطباع الحربيَّة، وتسيطر عليهم الحياة الآليَّة... فإذا الأمم كلها جنود ومصانع للسلاح والمدمرات... وإذا الأوربي كالذئب الذي لبس جلد الشاة... ثم خلعه!!

ومهما يكن حظ القوم من العدل والنصفة، ونصيبهم من المودة والألفة، فذلك فيما يشجر بينهم من خلاف... فأمَّا أهل الشرق سكان أسيا وأفريقيَّة، من الأمم الملونة، فليس لهم في العدل حماية، ولا في القانون نصفة.. {ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل}.

وما يزال صدى الأحداث يدوي في آذاننا... وحسبك حروب طرابلس والبلقان. والريف... فإن ساغ لأروبي أن يطمئن إلى عدل أوربة وإنصافها، وقوانينها وجماعة أممها.. فليس للشرقي أن يسكن إلى ذلك! فهو مال مباح، ودم مهدر!!

وتلك أمَّة ينفخ قادتها فيها الغرور والعجب، ويذكرونها مجد الرومان، وغابر الزمان.. حتى انتفخت أوداجها، وورمت أنوفها.. ثم صاحوا فيها: قد بطشنا بطرابلس، عشرين عامًا.. حتى دوّخناها، وذللنا دانيها وقاصيها.. ولكنَّها لا تفي بحاجتنا، ولا تسد مطامعنا.

ونظروا فإذا في أفريقية دولة واحدة مستقلة، حفظ عليها استقلالها من دون أمم أفريقية. إنَّها دولة نصرانيَّة، لم يستبح المغيرون أن يجعلوها كالمسلمين ولكنَّها -على نصرانيتها- أمة سوداء، ضعيفة، تسكن أرضًا واسعة. صاح زعيمهم: هلم إلى

الحبشة. فانبرت العقول تخترع الأوهام والتَّعلَّات، والألسن تفتري الكذب، والأقلام تخطُّ الأباطيل. وطفقوا يعيدون قصة الذئب والحمل حينا. ويصرِّحون بمكنن ضمائرهم حينًا. وسار الشُّر إلى الحبشة في جيوشه ومفترياته.

ويشفق بعض الدول من هذه الغارات، ويخاف عقابها، فيستغيث الحق والعدل، وحماية الضعيف، والاقتصاص من القوي. وتتوالى نذر الحرب، وتطيف بمصر مقدماتها، وتقف مصر بين دولة محتلة وأخرى مجاورة، تشقها الطريق بين الحبشة وإيطالية.

تهيب مصر بجيشها، فإذا جيش ضئيل، وسلاح كليل! وتدعو بنيها، فإذا نفوس أبيّة، وسواعد قويَّة.. ولكنَّها لم تدرب للقتال، ولم تعد للنضال، ولم تشهد الزخرف، ولم تعتد التعرض للحتوف، لم تحمل السلاح، ولم تتمرَّس بآلات الكفاح، أنفس عزيزة، وأمَّة ذليلة. ويقول من أبى على الأمَّة أن تأخذ للأيام أهبتها، وتعدَّ للخطوب عُدَّتها: لا تراعوا، هأنذا أدفع عنكم. فاشكروني ولا تكفروني.. ولو ترك لنا من قبل: أن نعبئ جيوشنا، ونعد سلاحنا.. لكان شكرنا أعظم وأجدى، وكنا في أنفسنا أعزُّ وأقوى. وأني يُعز من يدفع عنه في عقر داره، ولا يعول عليه في حماية نفسه:

ودرى من أعزَّه الدفع عنه فيها أنَّه العزيز الذليل

هذا موقف الذِّلة والمهانة، والضعة والاستكانة.. موقف من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا يجلب لها خيرًا ولا شرًّا:

رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمام

ذلكم درس للحادثات مبين، وعظة للخطوب بليغة. فعلى المصريين راعيهم ورعيتهم، ودهمائهم وقادتهم أن يفهموا الدرس ويعوه ويتدبروا الموعظة وينتفعوا بها

ومهما تنجل عنه السحب المكفهرة، وتتكشف عنه الحادثات المنذرة، فليعملوا برأيٍ واحدٍ، ويدٍ واحدةٍ. ويتوسلوا بالعزم والحكمة، حتى لا يقفهم الزمان هذا الموقف مرة أخرى. {إن في ذلك لذكرى}.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

لمعات

إلى الفيلسوف الشاعر محمد إقبال

جوابًا لكتابيه: «أسرار خودي» و«رموزبي خودي»

١

للصوفيَّة فلسفة عالية في العالم والإنسان والخالق. ولهم آراء حكيمة في الأخلاق والاجتماع. وقد صاغوا كثيرا من آرائهم في صور شعريَّة جميلة، تجلَّى فيها القلب الإنساني في أرقى مداركه، وأصفى منازعه. وصور فيها خفايا النفس الإنسانيَّة.

وفي العربيَّة كثير من الشعر الصوفي مفرق في الكتب، وفيها دواوين خصت بهذا الضرب من الشعر. أسيرها ذكرًا ديوان ابن الفارض، ودواوين ابن عربي، وديوان النابلسي.

ولشعراء الفارسيَّة المقام الأسمى في الشعر الصوفي.. وقد حاكاهم فيه شعراء التركيَّة والأرديَّة. وأعظم شعراء الفارسية في هذا مجد الدين سنائي، وفريد الدين العطار، وجلال الدين الرومي وهو زعيم شعراء الصوفيَّة وفلاسفتهم جميعها.

٢

وكأن الله سبحانه أراد أن يبعث مولانا جلال الدين في هذا العصر مزودًا فلسفته وعلومه، إلى فلسفة الصوفيَّة وصفاء نفوسهم، فبعثه في صورة شاعر الإسلام

وفيلسوفه: محمد إقبال الهندي.

ولإقبال منظومات كثيرة معظمها بالفارسيَّة، وبعضها بالأرديَّة، وقد ضمنها من الفلسفة والتصوف والأخلاق والاجتماع والسياسة ونقد المدنية، ما يملأ القارئ إعجابًا. والرجل حر يكره التقليد، ويحذر منه، فعقله وقلبه ظاهران في كل ما يكتب.

ومن منظوماته كتابان سماهما: «أسرار خودى» و«رموزبى خودى» أي أسرار الذاتيَّة ورموز اللاذاتية، ومدار البحث في الأول أن العالم قائم على «الذاتية» وأن حياة الإنسان بإبراز ما أودع فطرته من المواهب، وتقوية نفسه. ومدار البحث في الكتاب الثاني بيان ائتلاف الأفراد في الجماعة، وما تقوى به الجماعات. وقد شرح ذلك شرحًا مبينًا. وضرب الأمثال، واستشهد التاريخ، وسما إلى الدرجة العليا في الشعر.

وقد ترجمت في مجلة «الرسالة» صفحات من هذين الكتابين، ومن ديوانه «بيام مشرق» الذي جعله الشاعر جوابًا للشاعر الألماني جوته.

٣

وقد بدا لي أن أنشر في الرسالة منظومة أهديها إلى إقبال، وأجعلها صدى لكتابيه المذكورين آنفا.

وأريد مع هذا أن أنهج بها في العربية نهجًا جديدًا، وأجعلها مثلًا للمعاني السامية التي يتناولها الشعر إذا أطلق من عقاله، وحرر من الموضوعات الضيقة التي اعتاها جمهور الشعراء، ولا سيما المعاني التي تكثر في أشعار الصوفيَّة العظام. ثم أريد أن أجعلها مثالًا للقافية المزدوجة، التي قصرها شعراء العربيَّة على الرجز المشطور، كما

قصروا الرجز على نظم العلوم كالألفية والجوهر المكنون والتاريخ كمنظومة ابن عبد ربه في أمراء بني أميَّة، والقصص ككتاب كليلة ودمنة، والصادح والباغم. وينبغي أن يسري هذا الضرب من التقفية إلى أبحر الشعر الأخرى، حين تعالج الموضوعات الواسعة. فهذا الذي سنى لشعراء الفارسيَّة وغيرهم أن ينظموا عشرات الآلاف من الأبيات في قصة واحدة أو كتاب واحد..

وقد اخترت وزن الرمل، ليسره وخفته، واقتداء بجمال الدين في المثنوي، ومحمد إقبال في بعض كتبه، ولا سيما «أسرار خودى» و«رموزبى خودى».

٤

ثم التفعيلة الثالثة في الرمل تأتي تامة «فاعلاتن» ومقطوعة «فاعلاتْ» ومحذوفة «فاعلا». والقافية المزدوجة تجعل كل شطرين متفقين في الروي منفصلين بعض الانفصال عن غيرهما.

فينبغي أن يسوغ الجمع في المنظومة الواحدة بين أبيات على فاعلاتن، وأخرى على فاعلات، أو فاعلا؛ تيسيرًا للناظم، ولكن الجمع بين فاعلا وفاعلات حسن لا عيب فيه؛ لأنَّ الحرف الأخير في فاعلات لا يتأتى إلا بعد مد. وبهذا المد يتم الوزن، فيأتي الحرف بعد المد نهاية للصوت، فلا يشعر المنشد باختلاف النغمة بين فاعلا وفاعلات. مثال هذا البيتان الآتيان:

ربَّ معنى في ضمير يكتم ... ليس في الناس عليه محرم
وقلوب رمسها هذي الصدور ... أتراني مسمعًا من في القبور

البيت الأول بني على فاعلًا، والثاني على فاعلات. لكن الراء في كلمتي الصدور

والقبور واقعتان بعد مد، فتأتيان في نهاية الصوت كأنهما لا تحسبان في وزن البيت، وليس الأمر كذلك في الجمع بين فاعلاتن وغيرها، ففي البيتين الآتيين:

كـــان لي الليـــل مـــدادًا فنفِـــدْ   وطغـــى قلبـــي بمـــدٍّ بعـــد مـــدّ
جاشـت الظلـماء موجًـا بعـد مـوجْ   وغـزاني الوجـد فوجـا بعـد فـوجْ

إذا سكنت الجيم في موج وفوج يبنى البيت على فاعلاتْ، فتجده قريبًا جدًا مما قبله، وإذا حركت الجيم يبنى على فاعلاتن، فيبعد عمَّا قبله بعض البعد. فينبغي أن يجتهد الناظم ألا يجمع بين فاعلًا أو فاعلات، وبين فاعلاتن في منظومة واحدة، رعاية لانسجام النغمات.

وإني أدعو أدباء العربية إلى العناية بهذا المثال الذي أقدِّمه في المعاني والقوافي، ليقبلوه على بينة، أو يردُّوه بالحجة، والله ولي التيسير.

أيّهـــا الليـــل إليـــك المفـــزعُ   كـــم حنـــت منـــك علينـــا أضـــلع؟
كـــم خفينـــا في غيابـــات الـــدجى   وملأنـــا الليـــل همّـــا وشـــجا؟
كـــم ألفـــتُ الليـــلَ أمـــا حانيـــة   وكرهـــت الـــنجم عينـــا راثيـــة؟
كـــم ألفـــت الليـــل وحـــشا راقبـــا   في شـــعاع الـــصبح ســـهمًا صـــائبًا؟
كـــم بثثـــت الليـــل سرًّا كـــتِما   فوعـــاه الليـــل عنِّـــى ألمـــا؟
كانـــتْ الظلـــماء لوحـــا لـــلألمْ   خطـــتْ الآهـــات فيـــه كـــالقلمْ!
كـــان لي الليـــل مـــدادًا فنفـــد   وطغـــى قلبـــي بمـــدٍّ بعـــد مـــدْ
جاشـــت الظلـــماء موجًـــا بعـــد مـــوجْ   وغـــزاني الوجـــد فوجًـــا بعـــد فـــوجْ
فنيـــت هـــذي وهـــذا زاخـــرُ   وانجلـــت هـــذي، وهـــذا غـــامرُ
خلتينـــي في الليـــل جمـــرا سُـــعِّرا   ونجـــوم الليـــل منـــه شررًا

إرة قـد وقـدت في أضـلعي[١] وسـحاب هاطـل مـن أدمعـي .

* * *

كنـت سـطرًا لم يفـسره أحـدْ خطـه في غيبـه الله الـصمد
في ضـميري كـل معنـى مُنَبهِمْ حـرت في الإعـراب عنـه بـالكلم
قـد ثـوى العـالم في قلبـي ومـا خـط شيء فيـه إلا الحـرف «مـا»[٢]
جـل قلبـي أن أراه جـام جَـمْ[٣] صُـوَر الأقطـار فيـه تنـتظم
إنَّـما الأقطـار في قلبـي العميـد أحـرف أوحـت إلى معنـى بعيـد
ربَّ معنـى في ضـمير يكـتم لـيس في النـاس عليـه محـرم[٤]
وقلـوب رمـسها هـذي الـصدور أتـراني مـسمعًا مـن في القبـور[٥]
أنـا في النـاس فـصيحٌ أعجـم نـاطق فـيهم كـأني أبكـم
صـمت الآذان عـن هـذا البيـان ضـاع في ضوضـائهم هـذا الأذان
كيـف يجـدي القـوم هـذا الـنغم وعـلى الآذان ران الـصمم
كيف يجدي القدح في هـذا الحجر قلبـه رخـو خـلي مـن شرر
إن خفـق القلـب قـدح مجهـد بعـضه يـورى، وبعـض يـصلد
كيـف يجـدي الـنفخ في هـذا الرمـاد طفـيء الجمـر ولم تـور الزنـاد

(١) الإرة: جبل النار.

(٢) يعني: لم يكن العالم في قلبه إلا نفيا.

(٣) جام جم أو كأس جمشيد، في خرافات الفرس: كأس كانت ترى فيها الأقاليم السبعة.

(٤) المحرم هنا الأمين على السر، كما يؤتمن المحرم من الأقارب على الحرمات.

(٥) إشارة إلى الآية: {وما أنت بمسمع من في القبور}.

٥ (١)

يخرق الليل شعاع يخفق ثم يلتفُّ عليه الغسق
كمنار البحر يَخفَى ويلوحْ فيه بين الغيب والومض وضوحْ
أو يراع الليل يخفى وينير فهو سطر من غياب وحضور (٢)
تارة يبدو طريقًا لحبا قامت الظلماء فيه نصبا
أو بيانًا من بياض وسوادْ كبياض الطرس يعلوه المداد
كل لون فيه حرف مفصِح ألفت منه سطور وضح
وأراه تارة خطا أحم وكأن الضوء تفصيل الظلم
فهو سطر من ظلام أرقط أعجمت معناه تلك النقط
كل لون فيه حرف أعجم وحوى الأحرف سطر مظلم (٣)

* * *

يا لُبَيْنَى أوقدي، طال المدى أوقدي علَّ على النار هدى(٤)
أوقدي يا لبن قد حار الدليل أوقدي النار لأبناء السبيل

---

(١) نشرت في ص١٤٧١ العدد ١٦٦ السنة ٤ سنة ١٩٣٦ من مجلة الرسالة الغراء.

(٢)هذا من قول إقبال: أي كرمك شبتاب سراناى توتوراست* بروازتويك سلسلة غيب وحضور ست
(يا يراعة الليل كلك نور، وطيرانك سلسلة من الغيبة والحضور).

(٣)حاصل المعنى في هذه الأبيات: أن النفس تارة تدرك إدراكًا واضحًا، وتارة تغم عليها الحقائق.

(٤) إشارة إلى الآية في قصة موسى: {لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى}.

ارفعي النار وأذكي جمرهنا … علّ هذا الركب يعشو شطرها

شرّدي هذا الظلام الجاثما … أرشدي هذا الفراش الهائما

حبذا النار بليل توقد … حبذا المؤنس هذا الموقد؟

حبذا عندك هذا النزل … لو حدانا في سفار منزل

ما لذا المنزل قد سار الفريقْ … إنما النيران أعلام الطريق

قد ترحلنا من الفج العميق … لا نبالي بقريب أو سحيق

رن في آفاقنا هذا النداء … فأممنا البيت يحدونا الرجاء[1]

قد غنينا عن مبيت ومقيلْ … وعن الأمواه والظل الظليل

وعن الرغبة والخوف سوى … خُلِع النعلانَ في وادي طوى[2]

نحن لا نرضى بنار الغسق … نحن لا نرضى بنور الشفق

نحن لا نرضى بنجم الصبح لاحْ … لا ولا نرضى تباشير الصباحْ

نحن لا نرضى نجومًا لامعه … أنّما نبغي ذكاء طالعه

قد رحلنا بالجوى والحُرَق … وغنينا عن رسيم الأينق

أين منا طائرات سبق … جُمع الغرب لها والمشرق

نحن ركب في جواه موضع … لم يسعه في جواه موضع

كل حر ضاق عنه الموطن … وانطوى دون مناه الزمن

كل طيار على متن الفكر … وعلى متن هيام لا يقر

طائر منه يغار الملك … طائر من تحته ذا الفلك

(١) إشارة إلى الآية: {وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق}.

(٢) النعلان هنا كناية عن الرغبة، والخوف والإشارة إلى الآية في قصة موسى: {إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى}.

بــارق في اللــوح لا ينطفــئ ... كــل غايــات لديــه مبــدأ
زودينــا بهيــام ووجيــب ... زودي يــا لــبن مــن هــذا اللهيــب

٦ (١)

جــال في الظلــماء نــورا مــن نَغَــم ... مُزِّقَــت منــه ديــاجير الظلــم
أشــعاع فيــه صــوت صــائح ... أم كــلام منــه نــور لائــح؟
أذِن الركــب لهــذا المنــشد ... أطــرب الناشــدَ صــوت المنــشد[٢]
ســال في القلــب مــسيل المطــر ... ينبــت الــروح بــسهب مقفــر
أو خريــر المــاء مــن نبــع زلال ... بــشر الغــارق في بحــر الرمــال
رن في نفــسي رنــين الجــرس ... صــاح في أذني فقيــد مــبلس
طــوت البيــداء عنــه الــسابلةْ ... وهــداه الــصوت شرط القافلــةْ
ســبق القلــب إليــه الأذنــا ... كــبلال لــصلاة أذنــا
دار قلبــي شــطر هــذا المُطــربِ ... دورة الإبــرة شــطر القطــبِ
غنِّــى يــا منيتــي لحــن النــشور ... ابركــي يــا نــاقتي تــم الــسرور
عــدت يــا عبــدي إلينــا مرحبــا ... نعــم مــا روحــت يــا ريــح الــصبا[٣]

* * *

(١) نشرت في ص١٥٨٧ العدد ١٦٩ السنة ٤ سنة ١٩٣٦ من مجلة الرسالة الغراء.

(٢) المنشد في الشطر الأول: منشد الشعر. وفي الثاني: الذي يدل على الضالة. والناشد: من ينشدها.

(٣) جاء هذان البيتان بألفاظها العربية في الجزء الثاني من «المثنوي».

حبذا الصوت فمن هذا البشير؟ — ومن الهاتف بالقلب الكسير؟
ومن المسعد في هذي الهموم؟ — ومن البارق في هذى الغيوم؟
ومن الهابط في نور السما — هاديا في الأرض جيلا مظلما؟
ومن الهادي إلى أرض الحبيب — يعرف النهج وقد حار اللبيب؟
ومن السائق شطر الحرم — وإلى الأصنام سير الأمم؟
ومن القارئ في بيت الصنم — سورة الإخلاص في هذا النغم؟
ومن الحر الذي قد حطما — في قيود الأسر هذا الأدهما؟
ومن الآبي على كل القيود؟ — ومن القاطع أغلال العبيد؟
ومن الباعث في ميت الأمم — ثورة العزة من هذي الهمم؟
لاح كالغرة في هذا السواد — بص كالجمرة في هذا الرماد
جرف الناس أتيّ مربد — ضل فيه المقتدى والمرشد
وطغى اللج عليه والتطم — فرسا كالصخر في هذا الخضم
عارض الموج على أغماره — وطوى اللج على تياره
سبّح اللج وبالشط استقر — داعيا والناس غرقى في النهر
يجرف التيار جسمًا خامدًا — تقذف اللجة قلبا جامدا
إن عزم الحر بحر مزبد — جائش في الدهر لا يتئد
هذه الأقدار في تسيارها — همم الأحرار في أسفارها[1]
ومن الشاعر يذكى القافية — فهي نور وهي نار حامية
تقشعر الأرض من أوزانه — ويهيم النجم من ألحانه

(١) هذه: مبتدأ، وهمم: خبر.

وكـــأن الــــدهر صـــوت كتبـــا قـد حكـاه الـشعر صـوتًا مطربًـا[١]
هـــو بالأشـــعار بحـــر فـــائض وهـــو للأزمـــان قلـــب نـــابض
حدثتـــه الأرض عـــن أخبارهـــا وحبتـــه الزهـــر مـــن أسرارهـــا
هـــو بـــالأمس خبـــير بغـــد وهـــو اليـــوم نجـــي الأبـــد
كـــشف الله عـــن الغيـــب لـــه فلـــسان الغيـــب يمـــلي قولـــه
عـــرف الـــشرق وراد المغربـــا فـــانجلى الـــسر لـــه مـــا كـــذبا
فـــرأى العلـــم ســـبيلا للـــردى إذ رأى القلـــب خليًّـــا مـــن هـــدى

* * *

صـوت «إقبـال» عـلى شـط المـزار أسـمع اليقظـان في هـذي الـديار

(١) يعني أن الدهر أمام الشاعر كعلامات الموسيقى، والشعر قراءة هذه العلامات.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

السوقيَّة في الأدب [(١)]

قرأت مقال الأستاذ الزيات الذي عنوانه: «دفاع عن البلاغة»، فوقع في نفسي على القبول والاستحسان، وألفيته ترجمانًا عن معان ترددت في نفسي، ورددها لساني، وذكرني بحديث تحدثت به في دمشق في دار الأستاذ الصديق العلامة محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي.

أذكر أني جلست والأستاذ مرة، فأخذنا بأطراف الأحاديث بيننا. وأفضنا في أمور شتى، حتى دفعنا في الكلام عن الأدب، وما عرض له من آفات، وما حاق به من مساوئ الاتجار، ومسايرة الآلات الحديثة عجلة واندفاعًا، ومن تملق الجمهور بالإسفاف إليه، والتيسير عليه، وإمتاعه وتلهيته بما يلائم القراءة العجلى، والنظرة السريعة. وقد أجملت هذا كله في كلمة، فقلت: «قد غلبت السوقية على الأدب» قال الأستاذ: أصبت المحز بهذه الكلمة، وأحسنت التعبير عما يسميه الفرنسيون: Mercantalisme.

وبيان هذا أن الآلات الحديثة يسرت الصناعة، وعممتها، وزوقتها، ولبست الجيد الثمين والرديء الرخيص في بعض المظاهر، فطمح كلٌّ في اقتناء الأمتعة التي كان لا يطمع فيها إلا الأغنياء، وطمع الفقراء في منافسة الأثرياء، بأمتعة تقارب أمتعتهم أو تشبهها شكلًا ولونًا، وقابل الصناع والتجار هذا الطموح وذاك الطمع بما يسده من بضاعة مزيفة خدَّاعة، وكسدت الصناعات اليدويَّة الجيِّدة، التي تكلِّف الصانع عمل الأشهر أو السنين، وأعرض الناس عنهما مشفقين من تكاليفها. فمن لم

---

(١) نشرت ص١٠٩٦ العدد ٤٩١ السنة ١٠ سنة ١٩٤٢ من مجلة الرسالة الغراء.

يملك ثمن الحرير الطبيعي، أو لم تسخ يده به، عمد إلى الحرير الصناعي، ومن لم يستطع اقتناء الذهب، اقتنى المذهب أو المموه، ومن لم يستع ماله لاشتراء الماس، اشترى ما يشبه الماس، وهلم جرا. فشاع بين الناس الصناعي إلى جانب الطبيعي، والمقلد إلى جانب الأصلي، والسوقي إلى جانب المستصنع، والزيوف إلى جانب الجود، والبهرج بجانب الصيحح.

والعلم على هذا القياس، فقد تولت الحكومات التعليم فيما تولت، فحددت زمانه ومكانه. وموضوعه ودرجاته، وخطت الخطط لتعميمه، وجعلت له شهادات تشهد لصاحبها بالعلم، وعلى من لا يحملها بالجهل، وحشر إلى دور العلم الراغب والكاره، والأهل وغير الأهل، ووجّه الأحداث الوجهة التي يريدها العرف أو النظام أو الضرورة، لا التي تميل إليها نفسه، وتختارها مواهبه. وجرف التيار الناس، فصارت المدارس مصانع تصنع التلاميذ على قوالب متماثلة أو متشابهة، أو مطابع تخرج آلاف النسخ من كتاب واحد، وتقدم أصحاب الشهادات إلى الأعمال، كما تعرض السلع في الأسواق.

قال بعض السامعين: أليس نشر العلم وتعميمه خيرًا للناس؟ قلت: لا ريب أنه خير، ولكن معه شرًّا هو الذي حدثتك عنه، ولست أبغي الآن أن أفيض في هذا الداء وأدويته، ولكن ساقنا إليه الحديث في الأدب.

قال أحد الأصحاب، وهو الحديث الذي بدأناه ثم حدنا عنه فلم نعد إليه.

قلت: والأدب على هذا النسق؛ الجرائد والمجلات والكتب شاعت وانتشرت، وصار الكاتب بهذه الوسائل الحديثة السريعة يعرض على الناس ما يكتب وكأنّه ماثل أمامهم يحدثهم به أو يخطب فيهم، فهو يسايرهم مسايرة المحدث أو الخطيب،

ويلقاهم كل يوم على صفحات الصحف، يلتمس رأيهم فيما كتب، ويتعرف موقعه من نفوسهم، وكلما أرضى الكاتب جمهرة القراء سمع ثناءهم عليه، وإكبارهم إيَّاه، فحرص على هذا الرضاء، رغبة في علوِّ المكانة وبعد الصيت، واضطر إلى أن يسف إليهم، دون أن يرفعهم إليه، وأن يجاريهم دون أن يصدهم عما يشتهون، وأن يلاينهم دون أن يحملهم على ما يكرهون، أو يكبحهم عما يهوون، وأن يلهِّيهم ويضحكهم، لا يشق عليهم ولا يسومهم عناء؛ فكأن الكاتب تاجر، وكأن كتابته سلع في الأسواق أيضًا. والتاجر يلتمس لكل سوق ما يروج فيها، والرديء الرائج خير له من الجيد الكاسد.

ووراء هذا أصحاب الصحف والمكتبات والمطابع يبغون الربح في تجارتهم، والربح على قدر إقبال الجمهور على ما يخرجون، وإقبال الجمهور على قدر هواه ومتعته ولهوه. فالكاتب الذي يرضى الجمهور ويمتعه ويلهيه أقرب إلى أصحاب الصحف والمكتبات والمطابع، يبذلون له المال، ويسارعون إلى نشر ما يريد، على حين يجفون الكاتب المبدع، الذي يحمل الناس على المكره، ويقودهم على الطريقة التي فيها صلاحهم وإن نفروا عنها نفور المريض من الأدوية الكريهة.

قال صاحبي الملول: وما وراء هذا؟ قلت: وراءه ما زعمته أول الحديث من غلبة السوقيَّة في الأدب، فقد صار بضاعة في السوق، أو تلهية في الملاهي، أروجها أقربها إلى عقول الناس وطباعهم وإن تفهت وحقرت، وانتهت بهم إلى المهالك، وأكسدها ما علا عن إدراك العامة وأشباه العامة، وما اقتضى فهمه عقلًا وعلمًا، وضاق عن الجمهور، ووسع الخاصة وحدهم، فمن شاء مالا ورواجًا وصيتًا ومكانة عند العديد الأكثر، فليطلع على الناس كل يوم بقصة أو نادرة أو ملهاة، مما يقرأ في القطار والترام وحين انتظارهما، وليتجنب الموضوعات التي تحوج القارئ إلى الجد

والكد، والألفاظ التي تحتاج إلى علم باللغة واسع، والأساليب التي تقتضي التمهل والتأمل، لإدراك ما فيها من جودة وبراعة وجمال.

ومن ابتغى إصلاح الجمهور وتهذيبه وتعليمه، وشاء الخير العام للناس، ورغب في الحقيقة والجمال، لا يبال أين يقعان من نفوس الدهماء، فلا يتعجلن المكانة والصيت والمال، وليكتب ابتغاء مرضاة الله، وليدع إلى الخطة الرشيدة، وليسم إلى مستوى الحق والخير والجمال، وليبلغ ما يوحى إليه ربه، ويهدي إليه قلبه، وإن طمع في المكانة وحسن الأحدوثة، فليعلم أنه منته إليهما لا محالة، ولن يضيع الخير والحق والإجادة والإتقان على مرِّ الزمان، ولن يذهب العرف بين الله والناس.

فإن سأل سائل: أتريد الناس كلهم على قراءة الأدب الرفيع والفلسفة العالية؟ قلت: لا، لا، بل أريد ألا تتحكم السوقيَّة في الأفكار والأقلام، وألا يطغى الرواج على الجودة، أريد أن يؤدي الكاتب أمانته، ويبين عقيدته، غير حاسب حساب السوق، وليكن بعد هذا في الكتابة ما يلائم العامة وما يلائم الخاصة، وما يجمع بينهما. أريد أن يعلو الكاتب ما مكنه طبعه، وأن يقبل ما شاء له فنه، لا يعنيه إلا أن يؤدي واجبه على الوجه الأكمل. وكذلك أريد أن ينزل الكاتب الآخر كما يريد طبعه، وأن يسهل ويدنو كما يشاء فنه، لكل وجهة، ولكل مجال، ولكل قراء.. وإذا صدق كل كاتب نفسه، وأخلص لعمله، فرقت الكتاب المعارف والطبائع، فعلًا جماعة وهبط آخرون، وبعد كاتب وقرب آخر، وكانت ضروب الكتابة معربة عن ثقافة الأمة وأذواقها، ملاقية أصناف الناس بما يسد حاجاتهم، ووجد الناس الصعب والسهل، والبعيد والداني، والغالي والرخيص، كلا في بيئته وفي مظانه... لا أدعو إلى أن يصير الأدباء فنًّا واحدًا في البيان وأسلوبًا عاليًا في الكتابة، ولكن أخشى أن تذهب السرعة بالإتقان، وتطغى التجارة على الإحسان، ويمتحن الكتاب حتى

يروا حسنًا ما ليس بالحسن، ويجرفهم السيل، فيتجهوا حيث يريد الناس لا حيث يريدون، وينتقل الزمام من يد القائد إلى يد المقود، ويسير الإمام خلف المأموم، فتنبهم الغايات، وتلتبس الطرق، وتشتبه الأعلام. وما ظنك بجماعة تسير على غير سبيل، إلى غير غاية.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المنصور بن أبي عامر

مفخرة من مفاخر التاريخ العربي، ومثل من الهمة الطامحة، والنفس الهمامة والعزم الذي لا يفل.

١

ينتسب إلى قبيلة معافر إحدى قبائل اليمن. دخل جده عبد الملك بن عامر الأندلس[1] في جند طارق بن زياد، وأقام بعد الفتح في الجزيرة الخضراء، فكان له ولبنيه شأن، واتصل أبو عامر جد المنصور بالخلفاء في قرطبة، وعدت أسرة أبي عامر في أسر الوزراء. وكان أبو حفص والد المنصور متألهًا زاهدًا، شغلَ بالحديث عن خدمة الخلفاء، ومات قافلًا من الحج فدفن بمدينة طرابلس.

وأم المنصور من أسرة تميميَّة -أسرة بني برطال- ويقول القسطلي في المنصور:

تلاقت عليه من تميم ويعرب ... شموس تلالا في العلا وبدور
من الحميريين الذين أكفهم ... سحائب تهمى بالندى وبحور

٢

ونشأ محمد -المنصور- نجيبًا، طماحًا، عظيم الهمة، كبير القلب، أثر عنه أيام طلبه العلم بقرطبة نوادر تنبئ باعتداده بنفسه، واستشرافه للمعالي، يقول محمد بن

(١) كانت في الأصل هكذا: الأندلسي.

إسحاق التميمي:

«كان محمد بن أبي عامر نازلًا عندي في حجرة فوق بيتي، فدخلت عليه في بعض الليالي في آخر الليل، فوجدته قاعدا على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصلت عنه، فقلت له: ما أراك نمت الليلة. قال: لا. فقلت: ما أسهرك؟ قال: فكرة عجيبة. قلت: فبماذا كنت تفكر؟ قال: فكرت إذا أفضى إلي الأمر، ومات محمد بن بشير القاضي، بمن أستبدله، ومن الذي يقوم مقامه؟ فجلت الأندلس كلها خاطري فلم أحجد إلا رجلًا واحدًا. فقلت: لعله محمد بن السليم. قال: هو والله، لشد ما اتفق خاطري وخاطرك».

وكذلك رشحته للمعالي نفسه العظيمة، وآماله الكبيرة، والمرء حيث يضع نفسه.

صار محمد من أعوان قاضي قرطبة محمد بن السليم، ثم تقلب في القضاء، وجعل وكيلًا لعبد الرحمن بن الخليفة المستنصر وأمه. ولما مات عبد الرحمن، جعل وكيلًا لأخيه هشام، ورتب له خمسة عشر دينارًا كل شهر.

وعرف الخليفة قدر الرجل، فكان يندبه فيما يعضل من الأمور، ثم ولاه الشرطة الوسطى، ولم يأل ابن أبي عامر جهدًا في التقرب من هشام وأمه صبح، وكانت ذات مكانة عند الخليفة.

وعهد الخليفة إلى ابنه هشام، فحرص ابن أبي عامر على أن يحتفظ لهشام بولاية العهد، ثم الخلافة بعد أبيه، على كثرة ما اجتهد الصقالبة في تولية المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، عم هشام.

وتولى قيادة الجيش إلى غزوة نكص عنها كبراء الدولة، ورجع منها مظفرا، فزاد هيبة ومكانة ثم ولي شرطة قرطبة، فسيطرت على المدينة هيبته وعدله، فأمن الأخيار، وسكن الأشرار.

يقول صاحب البيان المغرب:

«فضبط محمد المدينة ضبطًا أنسى أهل الحضرة من سلف من أفراد الكُفاة وأولي السياسة، وقد كانوا قبله في بلاء عظيم، يتحارسون الليل كله، ويكابدون من روعات طراقه ما لا يكابد أهل الثغور من العدو. فكشف الله عنهم بمحمد بن أبي عامر وكفايته وتنزهه، فستر باب الشفاعات، وقمع أهل السفق والدعارات، حتى ارتفع الباس، وأمن الناس، وأمنت عادية المتجرمين من رجال السلطان، حتى لقد عثر على ابن له، فاستحضروه في مجلس الشرطة، وجلده جلدًا مبرحًا كان فيه حمامه فانقطع الشر جملة».

ولما رجع من غزاته الثالثة ظافرًا، رفعه الخليفة إلى الوزارة، وجعل راتبه ثمانين دينارًا، وهو راتب الحجابة، ثم شارك أبا جعفر الحاجب، ثم استبد بالحجابة عام سبعة وستين وثلاثمائة، فقد بلغ أرفع مناصب الدولة.

٤

سيطر ابن أبي عامر سبعة وعشرين عامًا على الأندلس كلها، فصرَّف أمورها في الحرب والسلم كما يشاء، ولم تجتمع أمور الأندلس في يد واحدة قادرة إلا في يد عبد الرحمن الناصر، ويد المنصور بن أبي عامر؛ فأما الناصر فقد ورث ملكًا ثبته رأيه وعزمه، ومضاؤه وإقدامه، وأما ابن أبي عامر فقد رفعه إلى السلطان نفس طماحة،

وعزيمة ماضية، وخلق مرير، ولم تكن هيبته في نفس أعداء الأندلس، دون هيبته في الأندلس، فقد أولع بالغزو وانتدب للجهاد، فغزا خمسين غزوة في شمالي الأندلس، لم تنكس له راية، ولا بعدت عليه غاية، حتى بلغ شنت ياقوب في أقصى الجزيرة إلى الشمال والغرب، وما طمع أحد من المسلمين قبله أن تنال همته هذا المكان القصيّ.

لقد صدق صاحب البيان حين قال:

«ثم انفرد بنفسه، وصار ينادي صروف الدهر: هل من مُبارز؟ فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وساعده، فاستقام أمره منفردًا بمملكة لا سلف له فيها. ومن أوضح الدلائل على سعده، أنه لم ينكب قط في حرب شهدها، وما توجهت قط عليه هزيمة، وما انصرف عن موطن إلا قاهرًا غالبًا، على كثرة ما زاول من الحروب، ومارس من الأعداء، وواجه من الأمم، وإنما لخاصة ما أحسبه يشركه فيها أحد من الملوك الإسلامية، ومن أعظم ما أعين به مع قوة سعده، وتمكن جنوده، وسعة جوده، وكثرة بذله، فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان».

٥

وكان المنصور عادلًا شديدًا في الحقِّ، لا تأخذه فيه محاباة ولا شفقة، ولا يعرف في إنفاذ الحق هوادة.

«جاء إلى مجلسه رجل فناداه: يا ناصر الحق، لي مظلمة عند هذا الفتى، وأشار إلى أحد فتيانه، وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت. قال المنصور: اذكر مظلمتك، ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية، وقال للفتى: انزل صاغرًا، وساوِ خصمك في مقامه، حتى يرفعك الحق أو يضعك. وقال لصاحب الشرطة: خذ بيد هذا الظالم الفاسق، وقدمه

مع خصمه إلى صاحب المظالم، ينفذ فيه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق».

ولما عاد الرجل المتظلم إلى المنصور يشكره، قال له:

«قد انتصفت أنت، فاذهب لسبيلك. وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلتي»، وعاقب الفتى وعزله.

ما ثبت سلطان هذا الرجل الطماح المتسلط المقدام إلا بهذا العماد من العدل والإنصاف، وإيثار الحق على نفسه وخاصته.

وكان له فصاد، فاحتاج له يومًا، فقيل له إنَّه في حبس القاضي، لحيف كان منه على امرأته، فأمر المنصور بإخراجه مع رقيب من رقباء السجن ليفصده، ثم يعود إلى محبسه. وشكا الرجل إلى المنصور ما ناله من القاضي، فقال: يا محمد إنه القاضي! وهو في عدله. ولو أخذني الحق ما أطقت الامتناع عنه، عُدْ إلى محبسك، أو اعترف بالحق، فإنه هو الذي يطلقك».

فمن يسأل عن ملك العرب والمسلمين كيف ثبت هذه الحقب الطويلة على أعاصير الخطوب؟ ففي هذا وأمثاله جواب!

٦

وكان على كثرة مشاغله ذا عناية بالأدب والعلم، يجتمع العلماء والأدباء كل أسبوع، ويتناظرون في حضرته، ويمدحه الشعراء.

وكان رحمه الله ديِّنا متألهًا ورعًا، كتب بيده مصحفًا كان يحمله في أسفاره، وجمع ما علق بثيابه من غبار الحرب، وأوصى أن يجعل في حنوطه إذا مات، كما فعل أمير

العرب ابن حمدان من قبله: صنع من غبار الوقائع لبنة، لتوضع في قبره تحت رأسه. واتخذ المنصور كفنه من مال موروث من أبيه، ومن غزل بناته، اتقاء للشبهة، وتورعًا أن يكون في أكفانه مال يرتاب فيه!

٧

توفي المنصور سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة غازيًا بمدينة سالم، في أقصى الثغور الأندلسيَّة، ففرح أعداؤه بموته، وصوروا جنازته، ولا تزال صور الجنازة في متاحف أوربا.

رحم الله المنصور بن أبي عامر. إن في سيرته لقدوة حسنة لكل طامح يسمو إلى الدرجات العلا في المنصب والدين والخلق.

رحم الله المنصور، إن في سيرته لحجة يوم نفاخر بتاريخ العرب والإسلام.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

محيي الدين النووي والسلطان بيبرس

كان شيخ الإسلام أبو زكريا يحيى النووي من أعلام العلماء في القرن السابع الهجري، ذا مكانة عالية بين علماء الفقه والحديث. وكان له في التقوى والورع والزهد سيرة محمودة، وفي نصرة الحق وتأييده مواقف مشهودة. ولا بأس أن نثبت هنا بعض سجعات ابن السبكي: «كان يحيى رحمه الله سيدًا وحصورًا، وليثًا على نفسه هصورًا، وزاهدًا لم يبال بخراب الدنيا إذا صيَّر رَبع دينه معمورًا، له الزهد والقناعة، ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة، والمصابرة على أنواع الخير، لا يصرف ساعة في غير طاعة. هذا مع التفنن في أصناف العلوم: متون أحاديث، وأسماء رجال، ولغة وصرفًا إلى غير ذلك».

ولست أبغي هنا ترجمة النووي، ولكن أذكر وقعة كانت بينه وبين الظاهر بيبرس، وهي واحدة لها أمثال في سيرة الشيخ، ولها نظائر كثيرة في تاريخ الإسلام:

كان بيبرس ملكًا مجاهدًا، أبلى في قتال التتار والصليبيين بلاء عظيمًا، وقد انتظمت شجاعته وعزيمته مع شجاعة أسلافه وأخلافه من الأيوبيين والمماليك، فكانت سطرًا من الجهاد والجلاد وقى البلاد المصرية مصائب الغزاة، وخيَّب دونها آمال الصليبيين مائتي سنة. وكذلك كانت همته وإقدامه هو وجنوده في مصر والشام كالطود، ارتد عنه سيل التتار بعد أن جرف البلاد الإسلامية، من سمرقند وخوارزم إلى حلب ودمشق، فعلَّموا جنود هلاكو في موقعة «عين جالوت» وما بعدها، أن مصر أبعد من أن يطمعوا فيها، وأن الشام أعز من أن يسيطروا عليه.

وكان بيبرس في جهاده المستمر، وحربه المتمادية، يتوسل إلى المال يستعين به على جهاده، وكان الشيخ النووي يكتب إليه ناصحًا كلما رأى في عمل السلطان شدة، أو جورًا، أو مخالفة للشرع، لا يني في هذا ولا يداهن، ولا تأخذه رغبة ولا رهبة.

كتب مرة إلى السلطان هو وبعض العلماء، يطلبون رفع بعض المكوس، ويوصون بالعدل والشفقة، فكان في الجواب إنكار وتوبيخ وتهديد، فكتب الشيخ النووي يجادل فيما تضمنه جواب السلطان، ويقول:

«وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا، وتهديد طائفة العلماء، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه. وأي حيلة لضعفاء المسلمين في الناصحين نصيحة للسلطان ولهم، ولا علم لهم به؟ وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه؟ وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ولا أكثر منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقد أن هذا واجب عليَّ وعلى غيري. وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى: {إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار}. و{وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد}. وقد أمرنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن نقول الحق حيثما كنَّا، وألا نخاف في الله لومة لائم».

ولما ذهب السلطان إلى الشام لمحاربة التتار، أراد أن يأخذ مالًا من الرعية يستظهر به على العدو، واستفتى العلماء فأفتوه، ثم سأل الشيخ النووي أن يشارك العلماء في الفتوى، فلما حضر الشيخ قال السلطان: أكتب خطك مع الفقهاء. فامتنع. قال السلطان: لماذا لا تكتب؟ قال الشيخ:

«أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار، وليس لك مال، ثم منَّ الله عليك وجعلك ملكًا، وسمعت أن عندك ألف مملوك، كل مملوك له حياصة من ذهب،

وعندك مائتا جارية، لكل جارية حُقٌّ من الحليّ، فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا من الحوائص، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، أفتيتك بأخذ المال من الرعية».

قال الظاهر للشيخ: اخرج من بلدي، يعني دمشق.

قال الشيخ: السمع والطاعة. وخرج إلى نوى.

فأنكر الفقهاء أن يخرج مثل النووي من المدينة، وسألوا السلطان أن يرجعه. فأمر السلطان بإرجاعه. فأبى الشيخ وقال: لا أدخلها والظاهر بها.

لست أدري أكان السلطان مُحقًّا في فرض ما فرض من المال أم لا. ولست لذلك أعرف أكان الشيخ محقًّا في جبه السلطان بما جبهه به، ولكن لا ريب عندي أنَّ السلطان أحسن حين التمس فتوى العلماء قبل أن يجمع المال، وأنَّ الشيخ أدَّى واجبه حين صارح السلطان بما يعتقد، ولم يأخذه في الحق خوف ولا طمع. وأن محيي الدين النووي قد فقه أحسن الفقه ما على العلماء من النصيحة لأولي الأمر، والجهر بالحق في غير مداهنة ولا خوف.

رحم الله النووي، لقد كان من علماء المسلمين. ولله تاريخ المسلمين! كم فيه من أمثال محيي الدين؟

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفريقان المتحاربان في فلسطين

١

الحق والباطل

يتحرب في فلسطين فريقان: فريق العرب يذود عن ذماره، ويدفع عن حقه، ويدعو إلى النصفة والعدل، وإلى أن يعيش هو وخصمه أمة واحدة في بلد واحد، لكل حقه، وعلى كل واجبه.

وفريق آخر من شذاذ الآفاق، وخبث الأقطار، يلجون على العرب ديارهم، بأيديهم المال والسلاح، وما أورثهم تاريخهم والعيش الذليل في أوربا من ختل وغدر، يظنون أنهم صاروا أمة، لأنَّ باطلا يجمعهم، وعدوانًا يربط بينهم، وكل فرقة منهم تنمي إلى أمة، وكل جماعة تنتسب إلى بلد، وكل فرد يحمل سحنة تنافر سحنة أخيه، ولا تشبهها إلا في سمات اللعنة فيها، ومياسم الخزي عليها.

ويقول هؤلاء الأرذلون: لا نرضى نصفة معكم، ولا مساواة بكم، ولكنا نريد وطنًا ودولة، وأنف الحق راغم، ودعوة العدل صاغرة. وإن لنا قوة من سلاحنا، ومالنا، وحيلنا، وغدرنا، وخيانتنا، ولنا أعوان في أوربا وأمريكا يسحرون بالمال، ويسخرون بكل الوسائل رؤساء الدول، وأئمة الساسة، وأصحاب الصحف، وبيدهم المصارف، ودور السينما، وكل وسائل النشر والتضليل. فيأيها العرب المساكين، افسحوا المجال لدولة إسرائيل.

ويقول العرب: لا لا، بل {تعالوا إلى كلمة سواء} نسويكم -أيها الطراء

المتطفلون- بأهل البلاد الذين أقرهم التاريخ فيها، لا يعرفون غيرها وطنا، ولا يتخذون غيرها دارًا، فهلموا.. إلى الدولة الواحدة، والشريعة العادلة، والتآخي والتناصف.

فتقول هذه الوجوه الملعونة، وهذه الفئات الطريدة، لا لا.. إن أرضكم لنا، ودياركم لدولتنا، فأنزلوا على حكمنا صاغرين.

ويحمي العربي، وهو سمح لا خنوع، وجواد لا جبان، وحليم لا ذليل، ويستنصر حقه، ويتوكل على ربِّه، ويستمد سجاياه وشيمه، وأخلاقه ومكارمه، ثم يستوحي تاريخه، ويحشد مآثره... فيستبق إليه من أحداث تاريخه، ومآثر أمته، ما يُثبته في المحنة، ويوقره في الشدة، وينثال إليه من عز ماضيه ومجد سلفه، ما يهون عليه كل خطب، ويقحمه كل هول.

ويصول عليه عدوان اليهود ومن ورائه مدد من قوى أوربا وأمريكا، وتدور به خدع المخادعين، وتهاويل المهولين.. وهو العربي الذي يعرف نفسه ويعرفه التاريخ، ويهزأ بالشدائد إذا جدّ الجد، ويحقر الأهوال إذا اشتد البأس:

فأثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها: من تحت أخمصك الحشر

إن العربي يعرف ما في أيدي أعدائه، وأعوان أعدائه من مكر، وما لديهم من مال وسلاح، وما عندهم من علم وفن.. ولكنه يعرف كذلك ما له من حق، وما عنده من كرامة، وما فيه من إباء، وما يمده به تاريخه من ثبات في الأزمات، وصبر في الخطوب، فيقدم على الأهوال ذاكرًا قول سلفه:

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن ذكر العواقب جانبًا

ويتقدم فيزيده الهول مضاء، والنار صقاء، منشدًا:

فـإن تكـن الأيـام فينـا تبـدلت بنعمـى وبؤسـى والحـوادث تفعـل
فـما لينـت منـا قنـاة صـلبية ولا ذللتنـا للـذي لـيس يجمـل
ولكـن رحلناهـا نفوسًـا كريمـة تحمـل مـا لا تـستطيع فتحمـل
وقينـا بحـسن الـصبر منـا نفوسـنا فصحت لنا الأعراض والناس هزل

حسب الصهيونيون أنَّ الأمم مال وربا، وأشكال وألوان، وهياكل وجدران، وبغي وعدوان، وغفلوا عن حقيقة الإنسان. الإنسان الكريم نفس كريمة، وقلب شجاع، وخلق أبي، وما وراء ذلك؛ صور وزخارف، وخدع وأباطيل، تذوب إذا وقدت النار، وتبوخ إذا حمي الوطيس.

ألا ساء فأل الأوغاد، وخاب ظنهم حين زينت لهم أموالهم وزخارفهم أنهم للعرب أكفاء وأنداد، فلتبطل دعواهم الوقائع، ولتكذب ظنونهم المعارك.

ألَّا إنَّه إن تحدى باطل الصهيونيين حق العرب، وجرؤ شذاذ الآفاق على خير الأمم، ولم يلقوا كفاء بغيهم من ردع، وجزاء عدوانهم من خزي.

فيـا مـوت زر إن الحيـاة ذميمـة ويـا نفـسي جـدي إن دهـرك هـازل

أيها العرب الأباة، إنه يوم له ما بعده، فاصدعوا الأهوال بقلوب متفقة، وأيد مجتمعة، وامضوا إلى الغاية التي هي بكم أجدر، وبتاريخكم أليق، إنكم تقاتلون حيث قاتل آباؤكم في اليرموك وأجنادين وحطين، وقد حطموا الباطل في كبريائه، وردوا البغي في غلوائه، فزلزلوا بهؤلاء البغاة الديار، وردوا جند الصهيونيين بالخزي والدمار. واتركوها على التاريخ مأثرة إلى مآثر آبائكم، وسجلوها على الأيام مفخرة إلى مفاخر أسلافكم.

{ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون والله معكم}.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الكرم واللؤم [١]

ما ينقم اليهود من العرب إلا أنَّهم حموهم، وأحسنوا إليهم، وفسحوا لهم في ديار العرب، يعيشون أحرارًا، ويغشون معابدهم كما يشاءون، ويتولون أمورهم الدينية دون حرج.

فتح العرب فلسطين، والروم يسيطرون عليها، والأمكنة التي يقدسها اليهود، والتي يعادون العرب من أجلها اليوم، مزابل عفى عليها الزمان والهوان، فطهر العرب هذه الأمكنة، وجعلوها مساجد، تعظيمًا لها، واتباعًا لأمر الإسلام، الذي يعترف بما في الأديان السابقة من حقائق ويعظمها، ويبين أنه الدين العام الجامع، الذي يجمع كل ما أوحاه الله إلى رسله في العصور كلها، والأقطار جميعها، بعد أن ينفي عنها تحريف المبطلين، ويخلصها مما علق بها من خرافات الجاهلين.

وعاش اليهود في كنف العرب أحرارًا في فلسطين وغير فلسطين، وتبحبحوا في الأقطار العربية خاصة، والإسلاميَّة عامة، وساروا سيرتهم في عبادة المال، والتوسل إليه بكل الوسائل، فوجدوا مرتعًا خصبًا، ومتقلبًا فسيحًا.

وقد بلغوا في أقطار العرب مناصب علية، وكان لجماعات منهم شأن عظيم في الدولة الفاطمية في مصر، والدولة الإيلخانية في العراق، ودول العرب في الأندلس، وغيرها.

ثم ضرب الدهر ضربانه، ودار الفلك دورانه، وجاء اليهود إلى فلسطين يزحمون

---

(١) نشرت في ص٨٨٥ العدد ٧٨٨ السنة ١٦ سنة ١٩٤٨م من مجلة الرسالة الغراء.

أصدقاءهم في ديارهم، ويستعينون على حماتهم بالأمم التي كرهتهم وأذلتهم وشردتهم، ففقدوا بأعمالهم صداقة العرب، ولم يكن لليهود صديق سواهم في هذا العالم.

وينسى اليهود تاريخهم وتاريخ العرب كلّه، ويرمون العرب بكل ما علمتهم أوربا من عدوان، وبكل ما في سجاياهم من ختل وعداوة للبشر جميعًا، إلا من كان يهوديًّا.. وقالوا بزعمهم:

هذه بلادنا ومواطننا، نحن أولى به، قد عشنا فيها زمنا، وسيطرنا عليها حقبة. ولسنا نبالي أن يكون العرب استوطنوها بعدنا، وعاشوا فيها أكثر مما عشنا، وسيطروا عليها أطول مما سيطرنا، ودافعوا عنها ونحن مشردون في أقطار الأرض، وهم اليوم فيها يعمرونها، ويقلبون في أرجائها، ويحفظون فيها آثارهم ومآثرهم، وفي جوانبها قبور آبائهم الذين استشهدوا فيها، ودفعوا عنها جبروت الروم، وجالدوا من أجلها الصليبيين مائتي سنة.

يقول اليهود: لا نعرف التاريخ، ولا نذكر فضل العرب، فإنا قوم لا نزن الأمور إلا بالمال والمنفعة، ولا نقدر الأشياء إلا بفائدتنا وشهوتنا. وإن نال غيرنا ضر، فهذا الضرر هوانا وبُغيتنا، وبه جذلنا وغبطتنا، فإننا نعمل لأنفسنا، ونبغض البشر أجمعين، سواء منهم من أساء إلينا- كأهل أوربا، ومن أحسن إلينا كالعرب.. ولكننا نستعين بجماعة على أخرى، ونتمنى أن يهلكوا جميعا.

لليهود ماض في فلسطين، وللعرب ماض وحاضر؛ لليهود فيها تاريخ انقطع منذ عشرات القرون، وللعرب تاريخ موصول منذ عشرات القرون.

لليهود في فلسطين تاريخ ذليل مشرد، انقطع بجلائهم عنها، ويأسهم منها، وللعرب تاريخ مجيد عزيز، دافع عنها في غير بأس، واستقر بها في غير ذلة.

لليهود في فلسطين أحجار مهدومة يبكون عليها، هي بقايا الأحداث، وفضلات العصور. وللعرب آثار قائمة مشيَّدة، تصل تاريخهم، وتشهد بمآثرهم، وتكذِّب دعوى اليهود في كل بقعة.

لليهود في فلسطين صفحات في الكتب، وللعرب صفحات خالدات في أوديتها، وجبالها، ومدنها وقراها.

ولو لم يكن للعرب في فلسطين إلا أنهم دافعوا الصليبيين فيها وحولها أكثر من مائتي عام، حتى أجلوهم عنها، وأقروا مجدهم وتاريخهم فيها، لكان هذا كفيلًا لهم بحقهم فيها أبد الدهر!

* * *

حق العرب في فلسطين يقاتل باطل اليهود، وإحسان العرب يقاتل كفران اليهود، وكرم العرب يلاقي لؤم اليهود.

يتقاتل في فلسطين الحق والباطل، والخير والشر، والمروءة والنذالة، والأخلاق الإنسانيَّة العالية، والطبائع الحيوانية الدنيئة، والتاريخ العزيز القائم، والتاريخ الذليل الميت!

وإن عدل الله سبحانه، وإن كرامة الإنسان، وإن أخلاق البشر، وسنن الخليقة، لتأبى أن يغلب جند الباطل جند الحق، والفئة اللئيمة الفئة الكريمة، وأعوان الشر أعوان الخير، وحزب الشيطان حزب الله!

{بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون}.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ضربات معول

١

في العام الخامس من الهجرة تألب الشرك على التوحيد، وائتمر الباطل بالحق، وكاد الشر للخير. تقاسم رءوس الضلالة ليغزون «المدينة»، وليقتلن هذه الجماعة الناشئة. وليبطلن تلك الدعوة الجديدة.

مشى يهود خيبر إلى قادة قريش، وحرضوا القبائل الضاربة غربي نجد وشرقي خيبر؛ قبائل غطفان. فاجتمعت كلمة هؤلاء وهؤلاء على غزو المدينة والبطش بالمسلمين.

ورأى المسلمون أنهم لا قبل لهم بهذه الأحزاب، لا يستطيعون دفع قريش وغطفان وألفافهم، لا قبل لهم بهذه الجموع الحاشدة من قيس وعيلان وقريش ومن انحاز إليهم، هذه الجموع التي قال فيها حيي بن أخطب -أحد زعماء اليهود الذين ألبوا الناس على المسلمين- حين جاء إلى كعب بن أسد القرظي رئيس بني قريظة، وهم بقية اليهود في المدينة، فقال له يحرضه على نقض عهد المسلمين:

«ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر، وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلهم: بذنب نقمي، إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاقدوني على ألَّا يبرحوا حتى نستأصل محمَّدًا ومن معه».

أهمَّ المسلمين هؤلاء الأعداء، فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق يصد الجيوش عن المدينة. فخط رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في موضع المخافة من

المدينة، وذلكم في شماليها، من حيث يطمع العدو في دخولها. وأما الجوانب الأخرى، فكانت ممتنعة على الغزاة بجبالها ونخيلها. خط الرسول الخندق من أجم الشيخين إلى المذاد(١). وقطعه بين الصحابة أربعين ذراعا، لكل عشرة رجال. وَجَدَّ المسلمون ليفرغوا من الخندق قبل أن يدهمهم العدو. والرسول يشرف عليهم، يشاركهم أحيانًا في عملهم وارتجازهم.

٢

وبينما عشرة من الصحب يحفرون قسمهم من الخندق، إذ لقوا صخرة قاسية، أثرت في معاولهم، ولم تؤثر فيها المعاول، وكرهوا أن يعدلوا عنها، فيحيدوا عما خطه الرسول لهم. فقالوا لسلمان الفارسي، أحد هؤلاء العشرة: اصعد فانظر ماذا يأمر رسول الله؟ فرقي سلمان، فقال:

«يا رسول الله، بأبينا أنت وأمنا! خرجت صخرة بيضاء عن الخندق مروة، فكسرت حديدنا وشقت علينا، حتى ما نحيك فيها قليلًا أو كثيرًا، فمرنا فيها بأمرك. فإنا لا نحب أن نجاوز خطك؟!».

قال راوي القصة عمرو بن عوف المزني:

«فهبط رسول الله مع سلمان في الخندق، ورقينا نحن التسعة على شفة الخندق. فأخذ رسول الله المعول من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها. وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها(٢). حتى لكأن مصباحًا في جوف ليل مظلم؛ فكبر رسول

(١) لم يكن الخندق محيطا بالمدينة كما يتوهم بعض الكتاب.

(٢) اللابة: الحرة. لابتا المدينة: حرتاها: الشرقية والغربية.

الله -تكبير فتح- وكبر المسلمون».

«ثم ضربها رسول الله الثانية، فصدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها، حتى لكأن مصباحًا في جوف بيت مظلم. فكبر رسول الله تكبير فتح، وكبر المسلمون. ثم ضربها رسول الله الثالثة فكسرها وبرقت برقة أضاءت ما بين لابتيها، حتى لكأن مصباحًا في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله وكبر المسلمون. ثم أخذ بيده سلمان، فرقى فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد رأيت شيئًا ما رأيته قط. فالتفت رسول الله إلى القوم فقال: **«هل رأيتم ما يقول سلمان؟»** قالوا: نعم يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا! قد رأيناك تضرب فيخرج برق كالموج. فرأيناك تكبر فنكبر، ولا نرى شيئًا غير ذلك»(١).

«قال رسول الله: **«أما الأولى فقد أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى. والثانية أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم. والثالثة أضاءت لي منها قصور صنعاء (٢) فأبشروا»** يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر...».

٣

إن هذا لشيء عجاب.. جماعة قليلة لم تستطع الدفع بأيديها وأسلحتها. فاعتصمت بالخندق تتقي به عدوًا أكثر عددًا، وأعظم عدَّة. جماعة قليلة جاهدة، يدهمها عدوٌّ حاقد محنق، قد صمم على أن يستأصلها. وليس لهذه الجماعة ردءٌ على

(١) الطبري: غزوة الخندق.

(٢) مختصر من الطبري. وفي رواية ابن هشام: أن الأولى فتحت بها صنعاء والثانية فتح بها المشرق، والثالثة فتح بها الشام والمغرب.

الأرض ولا مدد. وهي تكدح لحفر الخندق، وتكل أيديها، فينزل قائدها يعينها ويواسيها. على حين أحاط بها الخوف {وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا}.

وفي هذه المخاوف، وعلى هذه الحال، يتحدث هذا القائد بفتح المشرق والمغرب.. ما أعظمها دعوى! وما أعجبها أمنية!

كذلك قال الذين رأوا عددًا قليلًا من الناس يحفر أرضًا ليتقي عدوَّه، ولم يروا ما وراء هذه الأجسام القليلة من معانٍ كثيرة.

قالوا: «ألا تعجبون؟ يُحَدِّثكم ويُمَنِّيكم ويعدكم الباطل. يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزُوا».

{وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم بمرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا}.

أجل، من ير هذه الجماعة القليلة تدرأ عن نفسها بهذه الحَفِيرة، يعجب ألا يشغلها ضعفها، والهول الذي دهمها، والخوف الذي أحاط بها، عن التحدث بالفتح؛ فتح المشرق والمغرب. {إنها لإحدى الكبر}.

٤

لا لا... لم تكن في المدينة جماعة قليلة، ولكن كان الحق يصاول الباطل والخير يدفع الشر، والإيمان يُنازل الكفر. والتوحيد يُواثب الشرك، والعزم يقاتل الخور،

والاجتماع يَثْبُتُ للافتراق، والصبر يصمد للجزع، واليقين يتحدى الشك، كانت معان تقاتل معاني! وما ضر المعنى الظافر في سنة الله قلة أنصاره على الأرض، ولا نفع المعنى المنهزم، في قانون الله، كثرة سواده في الناس.

وما كان مسلمو الخندق يحادون قريشًا وغطفان ويهود وحدهم، بل كانوا يحادون الأمم كلِّها. لقد انقسم العالم يومئذ فريقين: أهل المدينة الذين يحفرون الخندق، ومن في خارج المدينة في جزيرة العرب وفي غير الجزيرة من أقطار الأرض كلِّها.

لقد كان هذا الخندق فاصلًا بين جماعتين: جماعة قليلة، تحتضن حقًّا وليدًا وتاريخًا جديدًا وتلتفُّ حول عقيدة وشريعة وخلق، وبين سواد الأمم كلها يموجون في باطلهم، ويسيرون في مواكب للجهالة والإثم، والعدوان والظلم، ويحوطون أوثانًا من الحجر، أو أصنامًا من البشر.

وما كان العرب إلا العدوّ الأدنى، عرف هذه الجماعة فحذرها، وكرهها فآذاها. ثم أشفق منها، فائتمر بها، وعزم ليأخذن عليها الطريق، وليمنعنها أن تنتشر على الأرض، وليفرقنّ جمعها، ويبدّدن نظامها، ويبطلن دعوتها. وكانت أمم الأرض كلُّها من وراء هؤلاء العرب حربًا على هذه الجماعة لو قاربوها وخالطوها.

وما كان العرب المشركون في حرب العرب المسلمين وأعدائهم إلَّا حدًّا بين عصر وعصر، وفاصلًا بين تاريخ وتاريخ.

ولكن العرب الكثيرين من قريش وغطفان ويهود -وهم طلائع جيش الأرض كلِّها- لم يكونوا في أنفسهم، وفيما انطوت عليه هذه الأنفس من معان، أقوى ولا أولى بالظفر من هذه الجماعة القليلة، دع العدد القليل والعدد الكثير، وانظر هذه

المعاني تتقاتل، تجد التوحيد يحارب الوثنية، والفضيلة تقاتل الرذيلة، والنظام يدافع الفوضى. تجد الخير والشر، والعدل والجور، والحرية والعبودية، والحق والباطل في معترك. فانظر لأي هؤلاء العاقبة!

وهل كان المعول في يد رسول الله، وضربات المعول في هذا الصخر الأصم، وهذه البرقات التي ماج بها الهواء كالمصباح في بيت مظلم؛ إلا الحق يصادم الباطل، والإيمان يصاول الشرك، والنور يمزق الظلام، والحق العزيز المصمم يكسر ما يعترضه، ويدمغ ما يصده.

كانت هذه الضربات رموزًا لما وراءها من جهاد وجلاد. وكان هذا الضوء بيانًا لما يتصل به من هدى، وكانت يمين الرسول العزم المصمم، وكان كل خير وحق وفضيلة في النفس التي تبطش بهذه اليد.

كانت هذه المعاني كالشرارة الصغيرة تؤجج ما شاء الله من نار ونور، والآحاد في الأعداد تستوعب كل ما يدركه العد، وكالفكرة الأولى تفتح للعقل طريقًا مديدًا، ومذهبًا جديدًا، وكحروف الهجاء تنتظم لغات العالم، وكقُرص الشمس يغمر العالمين نورًا.

كذلك سخر الذين سمعوا قصة «محمد» ومعوله، وعرفوا حديث القائد المحصور يبشر بفتح العالم! ولكن كثيرًا من هؤلاء الساخرين عاشوا حتى سمعوا صدى هذه الضربات في اليرموك والقادسية وما تلاهما شرقًا وغربًا، وأبصروا برقها يصعق يزدجرد وهرقل وجنودهما، وكل جند الباطل على ظهر الأرض.

ورأوا المعاني التي مثّلتها هذه الضربات، وقد ثارت بالباطل غير رفيقة، وزلزلت الظلم غير مشفقة، وانتشرت في المشرق والمغرب كالسحاب مجلجلًا، مضيئًا،

صاعقًا، ممطرًا منبتًا.

عاش الساخرون عشر سنين، فرأوا جزيرة العرب تدين لصاحب المعول، ورأوا فارس والروم تخر لضرباته، والمشرق والمغرب يستضيء بهذه البرقات، وعلموا يقينًا أنَّ محمدًا صدقهم حينما وعدهم فتح العالم وهو قائم في الخندق يحطم بمعوله الصخرة التي أعيت على أصحابه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

عمر المختار وأصحابه (١)

في كــل فــج عــزمهم ســيار
إلى الــردى تهــافتوا وطــاروا
في حومــة المــوت لهــم أوطــار
جماعــة لــيس لهــم ديــار
إلا ظُهــورُ الخيــل والغبــار
يــصول فــيهم باطــل مغــوار
شــيخ المنايــا عمــر المختــار

تــأبى لهــم كرامــة الإســلام • يــأبى إبــاء العــرب الكــرامِ
أن يُــسلموا الأوطــان دون الهــام منيــتهم مــشارع الحــمام

بــين رُبــا برقــة والوديــان
وفي الــدِّحال وعــلى الرعــان
وفي شــعاب الأرض والمحــاني
فلّــوا جيــوش الظلــم والعــدوان
ومزقــوا كتائــب الطليــان
ووســموا معــاطس الزمــان
وأنفــوا مــواطن الهــوان

(١) أنشئت الأبيات من الأول إلى:
نبئت أن القوم عاودوا الجلد
قبل أن تأتي الأنباء بمقتل عمر المختار، والأبيات الباقية بعد العلم بمقتله.

تــأبى لهــم كرامــة الإســلام ....

ســـــلاحهم عزيمـــــــة الجهــــــاد

وقـــــوتهم مـــا ســـلبوا الأعـــادي

يـــصابرون الأكبـــد الـــصوادي

ويـــأكلون الجـــوع في البـــوادي

قـــد يئـــسوا يأســـا مـــن الأمـــداد

إلا ثبـــات القلـــب في الجـــلاد

ونـــصرة الـــرحمن للعبـــاد

تــأبى لهــم كرامــة الإســلام ....

أولئـــك العـــرب بنـــي الحتـــوف

بقيـــة الأرزاء والـــسيوف

قـــد ثبتـــوا في المـــأزق المخـــوف

بكـــل قلـــب بـــالردى هتـــوف

آبـــى الـــدنايا ثـــائر عيـــوف

قـــد انتمـــوا لـــشمم الأنـــوف

وللعـــلا بنـــسب معـــروف

تــأبى لهــم كرامــة الإســلام ....

نبئـــت أن القـــوم عـــاودوا الجلـــد

فقتلـــوا رهـــن الحبالـــة الأســـد

ليهـــنهم ليهـــنهم عـــار الأبـــد

يـــا عمـــر المختـــار ليثـــا يفتقـــد

يـــــا خالــــــدا قـــــرين خالـــب ـــد يُعـــــد

للمــــــوت قـــــد حملـــــتمُ هـــــذا الكبـــــد

لــــو شــــتتموا لكــــــان عنـــــه ملتحـــــد

أبــت لكــم كرامــة الإســلام ....

قــــد رعـــــتهم في حومــــــة النـــــــزال

وجئـــــــــت بـــــــالممكن والمحــــــــبـال

حتــــــــى رأوا قتلـــــــك في الأغـــــــلال

مـــــــائرة تليـــــــق بالرجـــــــال

فلتهـــــــــنهم شـــــــجاعة الأبطـــــــال

ولتهـــــــــنهم مفخـــــــــرة الأجيـــــــال

بطولـــــــــة تنـــــــــوء بالجبـــــــال

أبــت لكــم كرامــة الإســلام ....

يـــــا قومنـــــا وكـــــم مـــــضت لكـــــم عـــــبر

يعــــــرف فيهــــا أمـــــره مــــن اعتــــبر

العــــــــربي عنـــــــدهم دم هـــــــدر

إســــــلامه جنايـــــــة لا تغتفـــــــر

شــــــهادة الفـــــاروق نلـــــت يـــــا عمـــــر

للحـــــرِّ مـــــوت واحـــــد فيهـــــا الظفـــــر

والـــــذل مـــــوت كـــــل يـــــوم مـــــدَّخر

أبــت لكــم كرامــة الإســلام ....

يـــــا قومنـــــا فاســـــتمعوا الأمثـــــالا

يبعثها الدهر لكم أرسالا
عدوكم لا يفهم الأقوالا
حتى يكون المدفع القوّالا
فأقدموا لا ترهبوا الأهوالا
وزلزلوا السهول والجبالا
لا تحملوا من ذلهم أغلالا
أبت لكم كرامة الإسلام ....

عبد الكريم قد مضى وحيدا[1]
يجر في محبسه الحديدا
والأطرش الضرغام يغشى البيدا [2]
قد ضُربت صحراؤه سدودا
وعمر مضى لكم شهيدا
فامضوا إلى المجد أباة صيدا
لا تخنعوا بين الورى عبيدا
أبتَ لكم كرامة الإسلام ....

لا تيأسوا فما يدوم الضرُّ
لين من الخطوب يكفهرُّ
والصبح في أعقابه يفترُّ
معترك أرجاؤه تغبرُّ

(١) الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الريف في المغرب الأقصى.

(٢) سلطان باشا الأطرش الذي ثار على الفرنسيين في الشام.

والنـــــــصر مــــــــن ورائــــــــه يخــــــــضرُّ
هيـــــــا إلى العليـــــــــاء لا تفــــــــــروا
العــــــيش عبـــــــد والحـــــــمام حـــــــر

رقم
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

على بحيرة وندرمير

الآن أيتها البحيرةُ أجلس على شاطئك وحيدًا لأبعث في ثناياك خيالًا مع الأخيلة التي تمر عليك ليلًا ونهارًا. وليت ضوضاء الناس تتركني لنفسي لأحدثك حديث القلب. وأبثك ما في الضمير. أنت مائجة بين جبالك المخضرة، وضفافك النضرة، قد أقام الربيع عليك أعراسه، وأمرّ الشباب عليك أنفاسه، فإذا أنت مرآة تطالعها كل ناضرة من الزهر، ومائسة من الشجر، وكل جميلة من البشر. فخبِّريني - والشتاء يقترب- كم أقام الشتاء مأتمه على ضفافك، وأمات كل جياة حولك.

كم ضربك القُر فسكنت، وكم أمَضّكِ الزمهريرُ فجمدت! كذلك أنت أيتها البحيرة الجميلة في نعمائك وبأسائك، بين ربيعك وشتائك، منذ انبجس بك العهد المجهول، إلى أن يغيض بك الزمان المظلم.

حدثيني أيتها البحيرة كم طوت أحشاؤك أخيلة على أخيلة، كما تمحو الفكرة الفكرةَ في رأس الفيلسوف القلق؟ أو كما خُط في القرطاس سطر على السطر! كما شهدتْ صفحتُك من جذلان ومحزون، وممتَّع بالحياة ومغبون! كما شهدتِ من قلب للقاء الحبيب خفّاق، وآخر يمزقه الفراق! وكم رأيت إنسانًا كالعصفور، متنزيا يملأ الهواء بالأصداء، وآخر واجمًا يطالع فيك صورة السماء! برّحتْ به الحقائق، فأوى إلى الخيال، ورأى الحياة ضلالًا في ضلال؟ ليت شعْري لو تفتحت صفحاتك عما حوت، ونشرت سريرتك ما طوت، أتكونين على صغرك تاريخ الطبيعة والإنسان في السراء والضراء، والبؤسى والنعماء، والنضرة والذبول، والمرح والكآبة؟ كذلك تمر أشباحنا سراعًا على مسرح الحياة، تضطرب ظلالها على الأرض، ويردد صداها الهواء، ثم يزول الخيال ويفنى الصدى، ولكنك أيتها البحيرة أبقى على الزمن،

وأثبت على المحن. فاضحكي من الإنسان أو فابكي عليه. ومهما تسخري أو ترثي فاحفظي في صدرك، مع الظلال المتراكمة المتزاحمة والمتماحية، صورةَ فتى ركب الزورق على صفحتك وحيدًا، وخطَّا على ضفافك فريدًا، وأطال الفكر في أرجائك، وقلب الطرْف في أرضك وسمائك، ولو شاء لأطال في وصفك، أسهب في شرحك، فأضحك وأبكى، ونظم من أمواجك أنغام الموسيقى الإنسانيَّة، التي لا يفتأ الزمن يعزف بها، وصور في صفحتك صورًا شتى من النعم والمحن.

هكذا يتحدث إليك هذا الإنسان الفرح الحزين، الناعم البائس. فليت شعري هل ترينه مرة أخرى؟ سيفارقك عمَّا قليل، فاحفظي ذكراه أو فانسي، فإنه لا محالة زائل عن صفحات الحياة كلِّها، ومن مكنون صدرك.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشاعر المتفائل المتشائم [١]

إلى بثينة

أما تجلّى الظلام عن غُرة الفجر، وتكشف الغسقُ عن وجه الظلام، فتنفس الصبح، واستيقظت الحياة، وضربت الأشعة في الأرجاء، فانبعث من مراقدها الأحياء، كما تسطع أشعة الكهربا، فتخلق عالمًا من السيمياء[٢]. وإما زُحزح ستار المشرق عن الشمس تُنازع الأفق عن نفسها، وتحاول السير إلى أوجها. فهلم يا بنيّتي العزيزة، أصحبيني إلى البرية أنسج لك حديثًا من السعادة، وأقرا لك كتابًا من الغبطة، وأشدو لك بقصائد الخليقة البهيجة، تضمنت ألفاظها ومعانيها الفرحَ ظاهرًا وخفيًّا، والنعيم مخيلًا ومرئيا، ونطقت أوزانها وقوافيها بموسيقى الحياة تردد الآفاق أصداءها، ويدوي الفضاء بأنغامها.

فإذا رأيتني متهللًا ضاحكًا مازحًا فكهًا، فاصحبيني يا بنية واغتبطي، واستزيدي واطربي، واسترسلي في حديثك وضحكك، ومرحك ولعبك، وسليني ما شئت عن الجمال والحب يتجليان في كل خَلق، والنضرة والنعيم ينطق بهما كل شيء، وسليني عن محاسن الناس، صِدقهم ووفائهم، وتعاونهم ومواساتهم، فستسمعين عن ملائكة تمشي على الأرض، وأبرار تسعد بهم الحياة.

وحذار يا بُنيتي ثم حذار أن تذكريني التعس والشقاء، والنصب والعناء، والشر وفاعليه والإثم ومقترفيه، فإني أشفق عليك أن تهب العاصفة، ويموج القلب،

---

(١) كتبت بلندرة الساعة ٨ من مساء ١٠ أكتوبر سنة ١٩٢٦م.

(٢) أعني السينما.

ويتجهم الوجه، فتريني نادبا راثيًا، ساخطًا زاريا، يردُّ عليك العالم نسجًا أسودَ حاكته المصائب والآلام، وطرزته الأوجاع والأسقام. إني أخاف عليك أن يثور بي الغم فلا أحدث إلا عن مأساة مكانها الأرض والسماء، وستورها الصباح والمساء، وسطورها الدموع والدماء، وأشخاصها كل من نسل آدم وحواء. أخاف أن تريني شاعرًا يجيد الأنين والشكوى، ولا يعرف الصبر والسلوى، يعرض عليك قصيدة محبوكة الطرفين بالغم، باكية الأوزان حزينة النغَم، تنوح قوافيها، ويولول رويُّها. ليس في تفاعيلها إلا الأنات، ولا في مصاريعها إلا الزفرات. أشفق عليك يا بنيتي ألا أريك في وميض البرق إلا سواد السحاب، ولا في تلألؤ النجوم إلا رجمة الشهاب، وأن أنشد مع المعري:

إن دنيـــاك مـــن نهـــار وليـــل وهـــي في ذاك حيـــة عَرْمَـــاء [1]

لا أرى في الورد إلا الشوك، ولا في النبات إلا الحنظل، ولا في الميلاد إلا الموت، ولا في الإدراك إلا الفوت.

كذلك يا بنيتي خلق أبوك قيثارة تسر وتشجي، وتُضحك وتُبكي، وكذلك صب في قلبه مرارة البحار، وعذوبة الأنهار، ليس بينهما برزخ.

وهو الصخرة تقدح الشرر، وتنبثق عن الينبوع السلسبيل.

إما رأيتني يا بنية واجمًا مكتئبا فلا تعنُفي علي، فتنكئي جرح الفؤاد، ويفيض عليك بالحزن كل وادٍ، ولكن اصبري للعاصفة حتى تمرَّ، وللنار حتى تهمد، فإن أشفقت على أبيك أن يملكه الحزن، ويزلزله العذاب، فسارعي إلى بيانك «Piano»، واختاري أسعد الأغاني، ثم تلطفي في الغزف وأرسلي صوتك خافتًا

(١) عرماء: منقطة بسواد وبياض.

كالبعيد من الصدى، وابعثي إلى النغمات كأنفاس الصبا، حتى تمسح على جبيني الملتهب، وتخفف من الحزن الثائر، وترفه عن القلب المائج، حتى إذا انبسطت الأسارير، وتهلل الوجه النضير، فانشطي بصوتك، واشتدي على بيانك ثم اختلسي النظرات إلي، فإذا أيقنت أن أشعة السرور بددت ظلام الحزن، وأن قناديل من ليل اليأس، لصبح الأمل، فأسمعيني ضحكك، ثم سارعي إلى أبيك فعانقيه، وساقطي على جبهتك قبلاتك، تسقاط الندى في أعقاب الظلام، ثم حدثيني أحدثك بما يُطربك.

وهكذا يا بنيتي الجميلة علي أن أسعدك في ساعات عديدة، وعليك أن تفرجي عني دقائق معدودة، عليك أن تزحزحي عني ظلام الهموم، وعلي أن أخط لك من السعادة هالة لا يقوى عليها جون الغمام، ولا يذهب ببهائها حلك الأيام، عليك أن تفتحي للبلبل قفصه، وعليه أن يملأ لك الدنيا غناء وتطريبًا، وشدوًا وترجيعًا عليك أن تدليه على مفتاح الموسيقى، ثم تستمعي لعزفه، وأن تقدمي له طاقة من الورد، ثم تنصتي إلى وصفه. عليه أن يعرض عليك جنة عرضها الأرض والسموات. وعليك أن تعطيه مفتاحها إذا أذهلته عنه الحادثات، وأن تشيري إلى الباب إذا أضلته عنه الغير، وغشي على عينه سواد الفكر. عليك أن تمكنيني من القلم، وعلي أن أسطر لك قصيدة سعيدة النغم، وأنظم لك عقدًا يتلألأ على صدرك، ويسطع في أيامك، عقدًا مثل أبيك من ينظمه، ومثلك من يحمله.

وبعد فيا بثينة قد وقف القلم، وغام الحزن على وجه أبيك، فليتك هنا لتنقذيه مما به.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

عمر في بيت المقدس [1]

١

هذا عام ستة عشر من الهجرة، وقد انسابت جيوش المسلمين في الشام والعراق وفارس، وألقت أقاليم الشام بالمقاليد إلا فلسطين، وأبو عبيدة بن الجراح يحصر بيت المقدس، وقد ملأ الأسماع والقلوب بأس المسلمين وعدلهم ووفاؤهم.

عزم أهل البيت المقدس أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس؛ في عهد المسلمين وحمايتهم وعدلهم، ورغبوا أن يكون صاحب عقدهم عمر.. عمر الذي ملأت سيرته الآفاق، وسكنت إلى عدله النفوس، واشتاقت إلى رؤيته العيون.

وفصل عمر عن المدينة في جمع من الصحابة ومعه مولاه أسلم. خرج يغذ السير إلى الشام، ليتفقد أحوال المسلمين، ويصالح أهل فلسطين.

ويمضي في طريقه حتى يبلغ أيلة[2] وينتظر الناس موكب أمير المسلمين يحسبون أنه سيطلع عليهم في زينته، يحيط به جنده ورجاله. والذي رأى منهم هرقل حين فتح بيت المقدس قبل عشر سنين، أو شهده من بعد في حل أو ترحال، تخيل عمر قادمًا في موكب كموكب هرقل، أو موكب دونه ولكنَّه موكب ملك أو أمير.

لما دنا عمر من أيلة تنحى عن الطريق، وتبعه غلامه، فنزل فمشى قليلًا، ثم عاد فركب بعير غلامه، وعلى رحله فرو مقلوب، وأعطى غلامه مركبه.

---

(١) ٢٢ من المحرم سنة ١٣٥٨/ ١٣ مارس سنة ١٩٣٩.

(٢) كانت على خليج العقبة.

وكأن عمر خاف أن يداخله الزهو وهو على مركبه في غير زينة، فآثر أن يشعر نفسه أنه وخادمه سواء، فتحول إلى رحل غلامه.

فلما تلقاه أوائل الناس قالوا: أين أمير المؤمنين؟ قال: أمامكم، -يعني نفسه-، وذهبوا أمامهم، فجازوه، حتى انتهى هو إلى أيلة فنزلها. وقيل للمتلقين: قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها فرجعوا إليه[1]. واجتمع الناس إلى رجل جسيم أصلع أشقر، شديد الحمرة، كثير السبلة[2] في أطرافها صهبة، وفي عارضيه خفة، رجل لا تقع العين منه إلا على الوقار والتواضع، والشدة في الحق، والرأفة بالضعفاء. رأوا ملكا في زي ناسك، وراعي أمة في صورة راعي ثلة [3]. رأوا إنسانًا لا تفقد فيه الإنسانية حقيقة من حقائقها، ولا يصيب فيه الجبروت باطلًا من أباطيله.

اجتمع الأساقفة والرهبان يرون رجلًا في يده الدنيا، ولكنها ليست في قلبه، يملكها ولا تملكه، ويصرفها ولا تصرفه، ويستعبدها ولا تستعبده، وليس شيئًا أن تكون زاهدًا في صومعة، ولكن العظمة كلها أن تكون زاهدًا والدنيا تحت قدميك. «ودفع عمر قميصا له كرابيس[4] قد انجاب مؤخره عن قعدته من طول السير، إلى الأسقف، وقال: اغسل هذا وارقعه، فانطلق الأسقف بالقميص ورقعه، وخاط له آخر، فراح به إلى عمر، فقال: ما هذا؟ قال الأسقف: أما هذا فقميصك قد غسلته ورقعته، وأما هذا فكسوة لك مني، فنظر إليه عمر ومسحه، ثم لبس قميصه، ورد عليه ذلك القميص، وقال: هذا أنشفهما للعرق.

---

(١)الطبري حوادث سنة ١٧.

(٢)طرف الشارب.

(٣)الثلة: القطيع من الغنم.

(٤)المفرد كرباس، وهو ثوب من القطن الأبيض.

٢

وسار عمر حتى نزل الجابية[1] في وسط الشام التي غلب عليها هرقل، ولكنه دخل الجابية كما دخل أيلة: «قدم على جمل أورق، تصطفق رجلاه بين شعبتي رحله، بلا ركاب، وطاؤه كساء أنبجاني [2] ذو صوف، هو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، وحقيبة ممزقة، أو شملة مشحوة ليفا، هي حقيبته إذا ركب، ووسادته إذا نزل، وعليه قميص كرابيس»[3].

وجاءه رجل من اليهود، وكان اليهود يرقبون روح الله بأيدي العرب، ويدعون الله أن يفرج كربهم، ويذهب عنهم جبروت الروم، بأيدي المسلمين. قال اليهودي: السلام عليك يا فاروق، أنت صاحب إيلياء، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء.

وأقبل وفد بيت المقدس إلى الجابية، فصالحوا، وكتب لهم عهد شهد فيه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان، وأعطوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وألا يكره أحد على الدين، أو يضار في شيء.

وأزمع أمير المؤمنين المسير إلى بيت المقدس، فإذا فرسه يتوجّى[4]، فأتى ببرذون فركبه، ومشى البرذون مشيته، فأسرع وهز راكبه، فرأى عمر فيها خيلاء، فنزل وضرب وجهه، وقال: لا أعلم الله من علمك، هذا من الخيلاء.

---

(١)قرية قرب دمشق.

(٢)نسبة إلى منبج على غير قياس، وهو كساء من الصوف له خمل، ولا علم له، وهو من الثياب الغليظة.

(٣)تاريخ عمر لابن الجوزي.

(٤)الوجى: وجع الحافر من الحفي.

٣

دخل عمر بيت المقدس لا مدمرًا مخربًا كما دخلها بختنصر، ولا مضطهدًا أهلها كما دخلها الرومان من قبل، ولا مزهوا بفتحه كما دخلها هرقل قبل عشر سنين بعد أن غلب الفرس على الشام؛ ولكنه دخل رافعًا لواء التوحيد والعدل والأخوة العامة، والمرحمة الشاملة.

دخل المدينة فسار إلى المسجد ليلا، ومضى إلى محراب داود، فصلى فيه. وطلع الفجر بعد قليل، ودوي الأذان في أرجاء المدينة المقدسة لأول مرة- صيحة الحق في أعقاب الباطل المهزوم، ترفعها تباشير الصبح في أخريات الظلام. وشهد الله لقد كانت فاتحة الخير والسلم والكرامة للبيت المقدس ومن فيه.

وقرأ عمر في الركعة الأولى سورة «ص»، وسجد حين قرأ آية السجدة: {وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب}. ثم قرأ في الركعة الثانية أول سورة الإسراء -سورة بني إسرائيل- وفيه وصف ما أصابهم على يد البابليين.

ثم تقدم إلى الكناسة؛ الكناسة التي تراكمت على البيت حين أخرب وهجر، والتي عجز اليهود أنفسهم عن إزالتها حين ملكوا أمر البيت.

تقدم إلى الذلة المكدسة على الحرم، تقدم عمر ليزيلها عن البيت، كما أزال عن أهله الظلم والقسوة، تقدم أمير المؤمنين وجثا، وقال: أيها الناس، اصنعوا كما أصنع، وحثا في فَرْج من فروج قبائه. وإنما فعل عمر ما فعل تكريمًا للبيت، وتطهيرًا وإيذانًا بهذا العهد، عهد الطهارة والكرامة.

وسمع عمر التكبير، فقال ما هذا؟ فقالوا: كبر كعب، وكبر الناس بتكبيره. فقال

عليَّ به. فأتي به فقال: يا أمير المؤمنين إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبي منذ خمسمائة سنة. فقال: وكيف؟ فقال: إن الروم أغاروا على بني إسرائيل، فأديلوا عليهم، فدفنوه، ثم أديلوا، فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس[1]، فبغوا على بني إسرائيل،ثم أديلت الروم عليهم إلى أن وليتَ[2]. فبعث الله نبيًّا على الكناسة، فقال: أبشري أورى شَلِم، عليك الفاروق، ينقيك مما فيك، أتاك الفاروق في جندي المطيع، ويدركون لأهلكِ بثأرك في الروم».

لقد لبث اليهود خمسمائة سنة ينتظرون أن تطلع شمس الإسلام ويأتي الفاروق، ليحثوا التراب في قبائه، ويأمر الناس بتطهير البيت المقدس وما فقدوا رعاية الإسلام من بعدها إلا تسعين عامًا غلب فيها أهل الصليب، فأصاب البيت المقدس ما أصابه، حتى استرجعه رجل من رجال المسلمين، ملك، يتشبه بعمر بن الخطاب في الإشادة بعدل الإسلام، ومرحمة الإسلام، رحم الله صلاح الدين يوسف بن أيوب.

ولكن بني إسرائيل حين رأوا الزمان يُنيخ على المسلمين بكلكله، لم يأتوا عونًا للعرب والمسلمين، ولم يذكروا فضل الإسلام، ولا حفظوا يد عمر، ولا اعترفوا برعاية المسلمين وحمايتهم إياهم ثلاثة عشر قرنًا، بل جاءوا يجزون الحسنة بالسيئة، ويُعينون الخطوب على الذين دفعوا عنهم الخطوب، ويناصرون الأعداء، على الذين أنقذوهم من الأعداء، ويمالئون الذين دفنوا بيت المقدس، على الذين رفعوا عنه التراب والرجس والهوان.

وليت شعري ماذا ينقمون من المسلمين والعرب؟ {يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم}؟

---

(١)غلب الفرس على أسيا الصغرى والشام ومصر أيام كسرى برويز، إلى أن استردها هرقل، وهي الحوادث التي أشير إليها في سورة الروم.

(٢)الطبري حوادث سنة ١٥.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

وِردُ الصباح [1]

تنفس الصبح في غَسق الليل، ولاحت غرته في هدوء السحر، والنور يسيل من ربا المشرق قليلًا قليلًا، ويولد اليوم الجديد.

ربِّ فأضئ عقلي بالهدى، ورغب نفسي في الحق والخير، واملأ قلبي بالأمل، وقوِّ يدي على العمل. اشرح صدري واشدد أزري، وأشحذ عزمي لليوم الجديد.

ربِّ قد طويتُ من عمري صفحات، ونشرت اليوم صفحة، فاجعل صفحتي هذه أوعى للخير، وأخلى من الشر، وزيِّنها بالحق، وبرِّئها من الباطل، واجعل فاتحتها وخاتمتها الإخلاص لك، والعملَ لوجهك.

ربِّ إنَّ عقلي يخدع بالوهم، ويقنع بالظن، ويَلبس الحق بالباطل، واللهم فاهدني وثبتني، وأرشدني وعلمني، واجعل البرهان الواضح حجَّتي، والحق البين عقيدتي، سبحانكِ لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت علام الغيوب.

رب إن قلبي يشوبه الهوى، ويستهويه الباطل، فخلص اللهم قلبي من الأهواء، واملأه بحب الحق، إنك أنت الحق المبين.

ربِّ وإن نفسي تنزع إلى أن تتزيَّد فيما لها، وتبخس ما لغيرها، وتُحمد بما لم تفعل، وتغمِط غيرها ما فعل، اللهم فأشرب قلبي العدل فيما بيني وبين نفسي، وفيما بيني وبين الناس، واجعل حق غيري أحبَّ إلي من باطلي، ورضاك آثر عندي من كل شيء.

---

(١) ١١ من ذي القعدة سنة ١٣٥٧/ ٢ يناير سنة ١٩٣٩.

ربِّ إن الناس يركنون إلى الدعة، ويعذّرون في الواجب، فاجعلني دائبًا على العمل، لا أمل، قوامًا بالواجب، لا أعتل.

ربِّ وإنَّ الناس ينزعون إلى الظلم، ويجنحون إلى المحاباة، ويُرضون أنفسهم بباطل يزينونه، وحقٍّ يُنكرونه. اللهم فبغض إليَّ الظلم والمحاباة وهَوَى النفس، واجعل العدل والحق ملء نفسي وقلبي وقولي وعملي.

رب وإن نفسي تنزع إلى إرضاء الأقوياء، والاستهانة بالضعفاء، اللهم فاجعل الناس سواسيةً عندي، واجعلني حربًا على الأقوياء المبطلين، نصيرًا للضعفاء المحقين، لا تطبيني في حقٍّ رغبة ولا رهبة، ولا يأخذني في الصدق خوف ولا رجاء.

اللهم إن الناس استهوتهم الشهوات، وعبدتهم المطامع، تُضلهم الكبرياء، فيصدِفون عن الحق، وتُضرعهم الذلة، فيخنعون للباطل، فاجعلني اللهم متواضعًا لا تزهوني نخوة، وقويًّا لا تأسرني شهوة، وحُرًّا لا يُعبدني مطمع، واملأ قلبي كبرًا على الصغائر. وأنفة من الدنايا.

اللهم إن القلوب قَسَت، والنفوس أجْدَبت، والوجوه وَقِحت، فاملأ قلبي رحمة لكل إنسان، ونفسي شفقة على كل حيوانٍ، وأدبني بأدبك، وأجعل فكري وقولي وفعلي برًّا ورحمة وإحسانًا.

اللهم واجعلني في الحقِّ جريئًا لا أخاف، ومقدامًا لا أحجم، ومحاربًا لا أجبن، عدوًّا للباطل جريئًا عليه، محبًّا للحق خاضعًا له.

اللهم اجعل لي من ذكرك قربًا وأنسًا ورجاء وثباتا.

اللهم إني أستقبل يومي مؤمنًا بك، متوكلًا عليك، مخلصًا لك، مجاهدًا فيك،

راغبًا إليك، مستمدًّا منك.

فأضئ عقلي بالهدى، واملأ قلبي بالأمل، ورغب نفسي في الحقِّ والخير، واشرح صدري، واشدد أزري، واشحذ عزمي لليوم الجديد.

سبحانك لا إله إلا أنت الحق المبين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إبرة المغناطيس[١]

جلست إلى مكتبي البارحة، فوقع بصري على «بيت الإبرة»، فانفتحت أمامي سُبل من الفكر لا تحدها غاية. وإني حين أحاول أن أقيد هذه الفكر على القرطاس، لمحاول أن أسلسل بهذه الأحرف خطرات الفكر التي تطوى الأجيال في لمحات، وتجمع السماء والأرض في طرفة عين.

قلت ما أعجب هذه الإبرة! إنها هادية لا تضل، عارفة لا تخطئ، تنتحي الشمال مهما أدرتَها عنه، ولا تنسى عهد المغناطيس مهما أبعدتها منه، ومهما جمعت عليها من الحُجُب والظلمات، وأضعفت لها في المسافات، فهي مولية وجهها شطره، محسة جذبه، موصولة به، خبيرة بوحيه، لا تنساه، ولا تُشرك في هواه. ليت شعري: أأهدي من الإنسان هذه الإبرة الصغيرة؟ أجل إنها لتهدي الإنسان في البر والبحر، والسفر والحضر.

أحسست حينئذ خفقان قلبي يذكرني أن في صدر الإنسان إبرة أخرى مرشدة هادية، تتوجه شطر معدنها أبدا، لا يصدها عنه تطاول الأمد، وبُعد المدى.

ألم تهد هذه الإبرة الأمم في ظلمات الجاهلية، وغيابات القرون، فعصمتهم على العلات من الهلاك، وأخرجتهم إلى النور على تكاثف الظلمات، ولا تزال هادية بصيرة بالغاية، خبيرة بالسبيل إليها؟ كم عبدت الإنسان شهواته، وأضلته عن الخير مطامعه، فما زالت هذه الإبرة تضطرب في صدره، حتى اهتدى سبيل النجاة، ووضع على هداها منار الطريق.

(١) شوال سنة ١٣٥٢/ يناير سنة ١٩٣٤.

كم طغت بالإنسان ضغائنه وأحقاده، فما زالت هذه الإبرة تخفق في جوانحه، حتى عرف إلى الحب والمودة السبيل، واستقام على النهج لا يميل.

وكم غلا الإنسان في ظلمه وعدوانه، فما زالت تتحرك في أضلاعه، حتى أشعرته نفسها، ثم ردته إلى خطة للعدل محمودة، وسبيل من الإنصاف رشيدة!

وكم غدر الإنسان ثم اهتدى بها إلى الوفاء، فندم على ما قدم، واغتبط بما أقدم.

وكم أجرم الإنسان، فوخزته فأفاق، فكأنما صور خلقًا آخر، ينفر من الإجرام، ويركن إلى السكينة والسلام.

وكم سفلت بالإنسان سجاياه، فعملت في صدره، حتى سمت به إلى العلياء، وطارت به من الحضيض إلى عنان السماء.

وكم وقفت بالإنسان همته، فدفعته هذه الإبرة العجيبة، فمضى قُدُما إلى العمل، وهمزته فداب لا يعرف الكلل.

وكم أظلم على الإنسان طريقه، وعميت عليه أرجاؤه، وأطبقت عليه سحائب سوداء، وأحاطت به ظلمات لاشية فيها من الضياء، فنظر إليها فإذا هي إلى الغاية دليل، وإذا هي في الظلمات قد استقامت على السبيل.

وكم جارت بالإنسان آراء مضلة، وأفكار غائلة، وأقوال ساحرة، فلما هلك أو كاد، ودارت به الحيرة والإلحاد، أحس اضطرابها في نفسه فسكن، فتهافت الآراء، وتهاترت الأقوال، وثاب إليه هداه، فوجد أمامه الله.

إيه أيَّتها الإبرة الهادية! ضلَّ الإنسان في صباه وهرمه، وجهله وعلمه، وسعادته

وشبقائه، ووحدته واجتماعه، وحله وترحاله، لولا هداية من الله فيك، وبصيص من نوره في نواحيك، وصلة به لا تنقطع، وشعور به لا يضل، وجذوة من حبه لا تخمد.

وأما الذين أضلتهم الأهواء، فعميت عليهم الأنباء، وتخطفتهم في الحياة المآرب، فتذبذبوا بين شتى المذاهب، وشرق بهم مطمع، وغرب مطمع، وتلونت لهم غيلان من الآمال والأعمال، والذين فقدوا أنفسهم وهم لا يشعرون، وضل سعيهم وهم يحسبون أنهم مهتدون. والذين يلبسون كل يوم زيًّا، ويبدلون كل حين رأيًا، ويلبسون لكل دولة وجهًا، ولكل سلطان زيًّا، ويتخذون لكل ساعة لسانًا، ولكل فرصة وجدانًا، فأولئك أغفلوا النظر إليك، فحرموا الاهتداء بك، أولئك في إبرتهم خلل قد عرض، أو أولئك في قلوبهم مرض.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

في أربعين الملك الشهيد غازي (١).

بني قومنا

أيها السادة!

أقوم بينكم مبلغا رسالة الجامعة المصرية، مديرها وأساتذتها وطلابها، المصريين والعراقيين وغيرهم. هذه الجامعة التي شجاها ما شجا معاهد العلم بالعراق من هذا الخطب الجلل، والرزء العميم.

تشارك جامعة فؤاد الأول معاهد العلم العراقيَّة أحزانها، وتحتمل معها آلامها، وتناشدها أن تعزي معها الأمم العربية كلها، وتثبتها في مصابها، فإن العلم الذي يهدي الأمم طريقها، وينير لها في ظلماتها، حري أن يثبتها في خطوبها، ويعصمها في محنها.

يا إخوتنا، لا أبغي إثارة الشجن، فما أيسر إثارة الأشجان والمصيبة فادحة، والقلوب دامية، ولا أريد استدرار الدمع، فما أهون استدار الدمع والرزء جليل، والنفوس باكية، ولكن أريد أن أعرب لكم باسم الجامعة المصريَّة أننا معكم في السرَّاء والضرَّاء، وشركاؤكم في الشدة والرخاء، وأننا وإياكم متعاونون على العمل للمجد، وعلى احتمال النوائب.

---

(١) ألقيت في بغداد في ١٠ ربيع الأخر سنة ١٣٥٨/ ٢٩ مايو سنة ١٩٣٩.

إن هذا الخطب لم يخصكم، ولا نزل بساحتكم وحدكم، ولكنه خطب العرب على اختلاف ديارهم ومذاهبهم، من شرقي دجلة إلى بحر الظلمات، وخطب المسلمين على اختلاف أجناسهم وأقطارهم. إنه رزء العرب، وقد استقاموا على طريقتهم وأقسموا ليبلغن غايتهم، ورفعوا الراية، ومضوا إلى الغاية- رزؤهم في أحد قادتهم، في ملك عربي شاب طموح، استوى على عرش المنصور، مبشرًا بعهد الرشيد والمأمون.

إنه رزء العرب والمسلمين في ملك هاشمي من أبناء فاطمة، قامت لمصرعه القيامة في مكة والمدينة، وفي بغداد دار العباسيين، ودمشق دار الأمويين، والقاهرة دار الفاطميين، وبلاد العرب والمسلمين جميعًا.

إنه لخطب عظيم، ولكنه ليس أعظم من عزائم هذه الأمَّة، ولا أكبر من كبريائها، ولا أشد من أخلاقها، ونحن بنو الشدائد، ألفتنا وألفناها، وعركتنا وعركناها.

يا بني قومنا: إنَّ للأمم في معترك الحياة نعمى وبؤسى، وفرحًا وترحًا ورخاء وشدة، والزمان قلب، تدور غيره بالخير والشر، والأمم العظيمة الحازمة تأخذ عدتها من مسراتها وأحزانها، ولا تفيت فرصه من لذة أو ألم، وفرح أو غم، ولا تمر بحادثة إلا تدبرت في أمرها، وأخذت لحاضرها، وتزودت لمستقبلها، وتأهبت لأحداث الزمان والحدثان. بل الأمم في أحزانها أقرب إلى الوقار والجد، وأدنى إلى التآخي والإيثار والتفدية، وأجدر بإدراك الحقائق، والاعتبار بالوقائع، وجمع الكلمة، وإرهاف العزيمة، فإن الأحزان تجلو النفوس وتنبهها، وترقق الأكباد، وتذهب بالأحقاد.

يا بني أبينا وأمنا: كانت وفاة الغازي رحمة الله عليه، قدرًا لا حيلة فيه، ورزءًا لا قدرة عليه. ولو كانت نائبة تُجدي فيها النَّجدة، وتغني الهمة، وتنفع الشجاعة والتفدية، لوجَد أبو فيصل منَّا جميعًا نفوسًا تفدِّيه، وقلوبًا تستميت دونه، وعزائم تردّ الخطب صاغرًا، وجِلادا يُرجع الموت خزيان ناظرًا، ولكنه قدر من وراء الأسماع والأبصار، والجنود والأنصار.

فلتفزع الأمة العربية إلى عقلها وخلقها، وإبائها وصبرها، وثباتها وجلدها.

ولتنظر إلى تاريخها تستمدَّ منه الصبر على المصيبة، والاستكبار على الجزع، والإباء على كل خطب، والثبات لكل هول.

ليكن من اجتماعنا على مصيبة الغازي اجتماع كلمتنا، واستحكام أُخُوَّتنا، لتكن من هذه المصيبة الجامعة أخوة جامعة، وكلمة جامعة.

* * *

أيّها الإخوان، مضى فيصل الأول بعد أن أدى أمانته، ولحق به غازي وهو يسير للمجد سيرته، وقد أورث الله فيصلًا الثاني جهاد جده، وطموح أبيه، وإن لنا فيه لعراء، وإن لنا فيه لخلفًا، فلتحطه النفوس؛ ولترعَه الأفئدة، ولتجتمع حوله الأفكار والآمال، والعزائم والأعمال، وكل ما في العراق وما في العرب من وُدٍّ ووفاء، وإخلاص وبروكرم، حتى يترعرع ملكًا كريمًا في رعاية الله، وحضانة أمته ووفائها وإخلاصها، ترجو فيه العراق والعرب جميعًا كوكبًا تأوي إليه كواكبه، وسيدًا قئولًا فعولًا لما سنَّ السادة الكرام من آبائه.

وإن في حكمة أهل العراق ووفائهم، وإن في هممهم وعزائمهم، لضمانًا

للمستقبل الوضَّاء، والمجد الباسم، بعد هذه الخطوب المكفهرة، والوقائع العابسة.

بني قومنا تقسو الخطوب وتربد ... ويُشرق في أعقابها الصبر والمجدُ
وإن ظلام الليل يتلوه صبحُه ... وبعد غروب النجم إشراقه يبدو
وبعد محاق البدر نور هلاله ... وبعد طلوع النحس يُرتقب السعد
وبين ظلام النقع نصر منور ... لمن صابر الأهوال والبأس محتَد
وعند اسوداد الغيم غيث ورحمة ... يقهقه في حافاتها البرق والرعد
وبعد بكاء السحب خصب ونضرة ... تضاحك من أزهارها الغور والنجد
ومن بعد غيض الماء فيض لدجلة ... ومن بعد جزر الشط ينتظر المد[1]
وفي كل خطب للفراتين دعوة ... إلى المجد في أعقابها النصر والحمد
فلا تحزنوا وارموا الخطوب بعزمة ... يذل لها الخطب العصي ويرتد
وسيروا إلى العلياء من حول فيصل ... وأنتم له حصن وأنتم له جُند

(١) شط العرب: مجتمع دجلة والفرات، وله جزر ومد.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

موقعة عين جالوت(١)

١

كان عام ثماني عشرة وستمائة فاتحة شر مستطير في بلاد المسلمين؛ سالت فيه جيوش جنكيز من هضاب الصين، تُغرق كل شيء، وتجرف كل شيء. طغت على التركستان، فجرفت عرش ملوك خوارزم، ودارت بالمدن العظيمة تخريبًا وتدميرًا، وبسكانها تقتيلًا وتشريدًا، وفرَّ محمد خوارزم شاه وكان كما قال مسلم بن الوليد:

وطار في إثر من طار الفِرارُ به ... خوفٌ يعارضه في كل أخدودْ

وورث ابنه جلال الدين ملكًا في أيدي التتار، ومجدًا بين الحديد والنار، فصبر وصابر، وجاهد ما بين نهر السند إلى حدود العراق، يحاول جهده أن يلمَّ الشمل، ويرأب الصدع، ويخلق من الفرقة اجتماعًا، ومن الضعف قوة، ومن الذعر ثباتًا، ومن اليأس رجاء، حتى اغتالته المنون بعد أن أعجزتها مصاولته، وختلته بعد أن أعيتها مجاهرته.

وانتشر الرعب، وعم الفزع، ولم يثبت للتتار جيش ولا حصن في شرقي البلاد الإسلاميَّة.

وما لي أكلف نفسي الوصف ولا أستمع لابن الأثير -وقد عاش على شاطئ هذا الطوفان، وأحس لفح هذه النار- يصف هذه الوقائع:

هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى، والتي عقمت

(١) في يوم الاثنين ٢٥ محرم سنة ١٣٥٩هـ/ ٤ مارس سنة ١٩٤٠م.

الأيام والليالي عن مثلها، عمَّت الخلائق، وخصَّت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن،لم يبتلِ بمثلها، لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها... إلخ.

٢

مات جنكيز خان سنة أربع وعشرين وستمائة، بعد أن قسم بين أولاده ما فتح من الأرض وما لم يفتح، وامتد الفتح في آسيا وأوربا، وكانت غِيَرٌ شتَّى، حتى أرسل منكوقا آن حفيد جنكيز أخاه هلاكو سنة إحدى وخمسين ليفتح حصون الإسماعيليَّة، ثم يفتح بغداد، فأخضع أمراء إيران والقوقاز إلى عام ثلاثة وخمسين، واستولى على أكثر قلاع الإسماعيليَّة.

ثم جاءت الطامة الكبرى فاستولى على بغداد ومحا الخلافة العباسيَّة في تاسع المحرم سنة ست وخمسين وستمائة.

لقد طوى آباؤه الممالك الإسلاميَّة إلى العراق، ثم أصاب هو المسلمين في الصميم، إذ أخذ بغداد التي لبثت مقر الخلافة وقبلة المسلمين في العلم والحضارة أكثر من خمسة قرون.

ماذا يصد هلاكو عما يشاء؟ من ذا يقف للجيوش التي لبثت ثلاثين سنة تسير من ظفر إلى ظفر، ومن مملكة فتحها إلى مملكة قُدِّر لها أن تفتحها؟ إن آسيا ما بين قراقروم[1] وبغداد في قبضة أبناء جنكيز، وإن أوربا الشرقيَّة إلى البحر الأدرياتي قد عنَت لأمرهم، ليس على هلاكو إلا أن يسير الجيوش، فتطوى الأرض، ويثير

(١) قراقروم: قاعدة مملكة جنكيز.

الحروب، فتخرَّ الممالك، ويوعد الملوك، فيخذلها جندها، وينزل بالمدن، فتُسلمها أسوارها، عزمة واحدة تسخر له الشام، وأخرى تقهر له مصر، ثم عزمات تبلغ به بحر الظلمات.

٣

سار التتار إلى الشام، فلم تستطع لهم حلب دفعًا، وهؤلاء المعتصمون بقلعتها لن يجديهم الاعتصام، ولا مناص لهم من الاستسلام بعد شهرين، وسارع أهل حماة إلى حلب، فأعطوا هلاكو مفاتيح المدينة، ثم لم تلبث للقوم مدينة بين حلب وغزة.

وأما أمراء الشام من بني أيوب، فمنهم من انحاز إلى التتر مؤثرًا العافية، ومنهم من لجأ إلى مصر مستنجدًا. والملك الناصر أكبر هؤلاء، تزددت به الحيرة بن حدود مصر والشام، ثم لم يستطع إلا السير إلى هلاكو.

٤

وأبت مصر التي تجاهد الصليبيين منذ مائة وستين عامًا، أن تذل للتتر، فجمعت ما فيها من إيمان وقوة، وخرجت في رمضان سنة ثمان وخمسين، وصمدت للقوم، فالتقى الجمعان على عين جالوت في فلسطين.

فأما التتر فلم يعرفوا في الحرب إلا الانتصار منذ سال سيلهم على البلاد الإسلاميَّة قبل ثلاثين سنة. ماذا يخشون من جيش مصر وقد مزقوا للمسلمين جيشًا بعد آخر، ولم تصدهم البسالة والاستقتال دون غاية.

وأما جيش مصر الذي جمع المصريين وعرب البادية من مصر والشام، فقد أيقن أنها الموقعة الفاصلة، وأن هزيمة في عين جالوت تفتح طريق العدو إلى مصر فالمغرب، فصمموا أن ينتصروا، وكثيرًا ما تلد العزائم الظفر.

ولم يزلزل عزائمهم أن رأوا بعض أمراء المسلمين في صفوف العدو، ذلك الأمير الشقي المتسمى الملك السعيد.

التقى الجمعان يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام ثمانية وخمسين وستمائة، واحتدم القتال، وصبر المسلمون ثم صبروا، ولقوا من حملات التتار ما يوهن العزائم، فلم يهنوا، إلى من يكلون الدفاع عن الإسلام والمجد إن لم يستميتوا في عين جالوت؟

كتبغا قائد التتر قتيل، وابنه أسير، وجنده مصرعون في حومة القتال، وبقايا السيوف منهم عائذون برءوس الجبال.

يومئذ علم المسلمون أنه يستطاع هزم التتر، فلم يثبت القوم في بقعة من بقاع الشام، وأسرعوا راجعين إلى الشرق.

جمع التتر شملهم، وأعدوا للحرب عددهم، ثم رجعوا فاستولوا على حلب بعد شهرين من موقعة عين جالوت، ولكن عين جالوت قد فصلت في القضية من قبل، وعلمت المسلمين أن الأمل والعزم والإقدام تغلب كل عدو ولو كان التترَ جنودَ هلاكو حفيدِ جنكيز.

اجتمع المسلمون على حمص، وسار التتر إليهم، فليشهد القارئ قبل المعركة جمعًا من أنجاد العرب يسيرون إلى حومة الوغى.

يقول الشيخ شهاب الدين الحلبي: كنت في نوبة حمص في واقعة التتار جالسًا على سطح باب الإصطبل السلطاني بدمشق، إذ أقبل آل مرا[1] زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح على الخيل المسومة، والجياد المطهمة، وعليهم الكزغندات[2] الحمر، والأطلس المعدني، والديباج الرومي، وعلى رءوسهم البيض، كأنهم صقور على صقور، وأمامهم العبيد تميل على الركائب، ويرقصون بتراقص المهاري، وبين أيديهم الجنائب، ومن ورائهم الظعائن والحمول، ومعهم مغنية لهم تعرف بالحضرميَّة، طائرة السمعة، سافرة من الهودج وهي تغني:

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ... ليالي لاقينا جُذام وحميرا
ولكن لقينا عُصبة تغلبية ... يقودون جردا للمنية ضمرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ... ببعض تأبى النبع أن يتكسرا
سقيناهم كأسا سقونا بمثلها ... ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

ودارت الحرب عند حمص يوم الجمعة خامس عشر المحرم سنة تسع وخمسين وستمائة، فلا تسألني كيف كانت عاقبتها، فهي العاقبة التي بشرت بها موقعة عين جالوت من قبل:

فارق التتار الشام إلى غير رجعة.

(١) آل مرا من آل ربيعة من طيئ.

(٢) كزغند: معرب خزكند، وهو قباء محشو بالحرير، يلبس في الحرب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ثورة على الأخلاق (١)

يا أخي صاحب الرسالة:

ابلغ أخي محمودًا الذي لا أعرفه هذه الكلمة عني:

قرأت في الرسالة ما نقله الأستاذ الزيات من رأيك في مزايا الأخلاق والفضائل، فهالني ما قرأت، وعزمت على أن أبادر بالكتابة إليك على ضيق الوقت وفتور الصيام. وكيف لا يرتاع من يسمع أن رجلا من ذوي الأخلاق خاب ظنه فيها، فثار عليها ويئس منها؟ فاقرأ يا أخي كلمتي، ثم أبن لي رأيك من بعد.

دخل أعرابي مسجد المدينة ورسول الله وأصحابه هناك فصلى ثم دعا، فقال: «اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا»، فضحك صلوات الله عليه وقال: «لقد حجرت واسعًا يا أعرابي» وكذلك أنت يا أخي قد حجرت واسعًا حين خيل إليك أن دائرة عملك التي -وسعتها بمقدار ما استلزمه هذا العمل من ملابسة الشعب، ومراجعة الحكومة- هي الأمة كلها، وأن الأمة هي العالم كله، وأن العالم الحاضر هو الزمان كله، وإن شئت أن تقول إني لم أحجر واسعًا ولكني وسعت محجرا، فلك رأيك، والنتيجة في الحالين واحدة.

أود قبل أن أناقشك في رأيك أن أعدك موافقي، كما وافق صديقنا الزيات، على أن الخلق الفاضل سبيل إلى سعادة صاحبه، وطمأنينة ما في هذا ريب. وأن الرجل

---

(١) ٢٦ رمضان سنة ١٣٥٦/ ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٧. وكتبت ردًا على مقال كتبه صاحب الرسالة بهذا العنوان.

الحر الأبيَّ الفاضل يعيش في سعة من نفسه، وعزة من خلقه، ونعيم من وجدانه، لا يدركها أصحاب الجاه العظيم، والثراء العريض، ممن وجدوا كل شيء وفقدوا أنفسهم. وأن الحر الكريم يرى نفسه في عزتها وحريتها ورضاها، فوق هذا العالم الذي تباع فيه النفوس رخيصة، وتبذل فيه القلوب ذليلة، ويعد نفسه أسدًا قويًّا مهيبًا قد رَبَض حَجْرةً من معترك الذئاب، ومُهترش الكلاب.

إنما خلافنا في النجاح في المعايش ونيل الجاه والثروة: أسبيله الخلق القويم، أم العمل الذميم؟ وإني أعجل لك الجواب في قضية نتفق عليها، لنفرغ لما بعدها، فأقول: حق أن الرجل التقي الأبي لا يرى إلى الجاه والمال إلا طريقًا واحدة، هي التي يسنها الحق والشرف والآباء والمروءة، وأن أمام الفساق والأذلاء، والأدنياء طرقًا شتى من التلصص والكذب والتزوير والخداع، والنفاق والملق والذلة والشره، والظلم والقسوة، والأثرة وهلم جرًّا؛ وحق كذلك أن من الأحرار من يُخفق في عمله حين يلزم نفسه هذه الطريق الواحدة، ويقسرها على هذه المحجة الواضحة، وأن من العبيد عبيدِ المطامع والأهواء، ومرضى النفوس والأخلاق، من يظفرون في هذه السبيل بما يريدون، ويبلغون الغاية التي يقصدون. ولست أجحد كذلك أن الجماعة قد تعتل؛ فيكثر فيها المبطلون الظافرون، والمحقون المحرومون. كل هذا يا أخي حق، ولكن استمع:

كثيرًا ما يحرم الحر الصالح، لعزوفه عن معترك المطامع، وصدوفه عن الاتجار في أسواق الحياة، وتنكبه السبل التي جعلتها سنن الجماعة وسائل إلى الثروة والجاه، في إخفاق هؤلاء بأخلاقهم، ولكن بكبريائهم، وتقصيرهم في أخذ الأهبة، وإعداد العدة، على حين يتأهب الأشرار، ويجدّ الفجار؛ فلا جرم، يخفق أولئك، وينجح هؤلاء، فإنَّ للحياة قوانين، وللمعايش سننًا؛ والقرآن الكريم يقول: {من كان يريد

الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون}، ويقول: {كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا}. ولكن إذا أخذ الرجل أهبته للعراك في الحياة، وتسلح بالخلق الطيِّب، فلن يكون هذا الخلق سببًا إلى إخفاقه، وسبيلًا إلى خيبته أبدًا. ربما تعتل الجماعة فينتصر المُبطل، ويخذل المحِقّ، ويفتن بهذا كثير من الناس، ولكن هذا لا يكون شرعة في الأرض، ولا سنة من سنن الله.

ثم علة الجماعة لا تدوم، وليست الجماعات كلها عليلة، وما تزال الجماعات منذ ألفها الله وعلمها، وبعث فيها الهداة المرشدين، ووضع لها السنن، أيدا لأنصار الحق، وعونًا لأهل الفضيلة، وخذلانًا لجند الباطل والرذيلة. ما زال الصانع الذي يتقن صنعته، ويحسن معاملته، ويصدُق وعده، أنجح عملا، وأكثر مالًا من الصانع الكذاب سيء المعاملة؛ وما زال التاجر الصادق في قوله، الأمين في فعله، الذي يقلب تجارته على شرائع من الصدق والأمانة، والقناعة والإخلاص، ولا يلبس على الناس الجيد بالرديء، والغالي بالرخيص- ما زال هذا التاجر أربح متجرًا، وأملأ يدًا، وأحظى برضا الناس وإقبالهم، من التاجر الكاذب الغاشّ، الشره المخادعْ؛ أترى في هذا ريبا؟ إن كنت في ريب فابحث كما تشاء، واسأل من تشاء؛ ولا يزال المزارع الذي يزرع الأرض، فلا يتزيد فيما أنفق عليها، ولا يسرق من زرعها. بل يصدق مالك الأرض، فيما أنفق وما جنى؛ ومستأجر الأرض أو الدار الذي يشق على نفسه، ليؤدي الأجرة في حينها، لا يزال هذا وذاك أحب إلى المالكين، وأظفر بما يريد.

لا يزال الرجل الصادق الأمين في كل جماعة وفي كل طائفة، موضع المودة والثقة، ينال بسيرته ما اقتصر عنه ثروته، إن استقرض أقرض، وإن استعار أعير، له من ثقة الناس رأس مال لا ينال منه الخسار، وتجارة لا يدركها البوار، ربما يتجر في

ألف وليس عنده إلا مائة، ويزرع عشرة فدادين وليس بيده إلا أجرة فدان واحد، ويستخدم في المتاجر والمصانع دون كفيل أو ضمين؛ سل يا أخي الناس في كل قبيل، وطالع التاريخ في كل جيل.

على أن الأمم في هذا مختلفات، والتاريخ درجات: أمة تسد الطريق على كل فاجر مخادع كذَّاب، وتوثر بمالها وكرامتها كلَّ برٍّ أمين صادق، وأمة يجد المخادعون فيها طريقًا، ولكنها وعرة، ومذهبا ولكنه ضيق، ورواجًا ولكنه قليل، وأخرى يتسع فيها مجال الأشرار، وتروج فيها سوق الفجار؛ ولكن لا تبلغ أمة من الفساد أن تسن في الرذائل سننًا، وتشرع في المخازي شرعًا، تجعل الأشرار المخادعين فائزين حيثما ساروا، وترد الأبرار الصادقين خائبين أينما توجهوا؛ مهما تشتد العلة فالخيبة أكثرها للأولين، والنجح أكثره للآخرين؛ فإذا أرادت الأمة أن تجعل الفساد سنة فموتها دون غايتها، وزوالها قبل استقرار سنتها.

أحسب يا أخي أن الذي لبس عليك الأمر لبسًا، وملأ عليك العالم حزنًا، وملأك على العالم سخطًا، أنك نظرت أول ما نظرت إلى دواوين الحكومة، فرأيت جماعة من خفاف الأحلام، صغار النفوس، شالت كفتهم فارتفعوا، وآخرين من راجحي العقول كبار النفوس، ثقلت موازينهم فنزلوا؛ فلما ملأت نفسك أسفًا، وانقلب أَمَلُك في الناس خيبة، نظرت إلى أنحاء الأمَّة ساخطًا متشائمًا، فنفضت عليها هذا السواد، ونفثت عليها هذه الغضبة، ووصمتها بهذه الوصمة.

إن دواوين الحكومة أقرب المواضع إلى ما زعمت، وأكثرها تعرضًا لما وصفت. ذلك بأن الرزق فيها لا ينال إلا بالسعي والكد، والجهد والدأب، والاحتكام إلى سنن الاجتماع وقوانين الطبيعة؛ ولكن الرزق فيها يقسم بأيد قليلة، ويصرف بآراء معدودة، فإذا فالت هذه الآراء، وطاشت هذه الأيدي، وقع الفساد، ثم شاع وعم

حتى يبلغ أمده؛ وكثيرًا ما تفيل الآراء، وتطيش الأيدي بأهواء الساسة ومنازع التحزب، على أن هذا مهما كثر لا يبلغ أن يكون قاعدة العمل، وسنة الجزاء.

ولا تنس يا أخي أن هذه الدواوين حديثة عهد بأيدي الأجانب ومن تربى في عبوديتهم، وكانت سنة الأجنبي أن يرفع من استسلم إليه، وتوكل عليه، ولا يكون هذا الاستلام وذلك التوكل إلا احتقارًا للكرامة، وازدراء بالخلق الفاضل، ونحن لا نزال في أول عهدنا بالاستقلال، لم تهذبنا التجارب، ولم تتمكن أيدينا من وضع القواعد الصالحة، وسن السنن القويمة، وإقامة الوزن بالقسط بين الناس أجمعين.

فإن رأيت جورًا في الدواوين، وظلمًا بين الموظفين، فهي علة زائلة؛ فلا تنشرها على الأمة كلها، ولا تمدها على الزمان جميعها. واعلم أن الظفر للحق، والخيبة للباطل، وأن النصر للفضيلة، والهزيمة للرذيلة، وأنها الغمرات ثم ينجلين، والعاقبة للمتقين.

والسلام عليكم ورحمة الله.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ثورة على الأخلاق

معدة قرقرت ثم استقرت(١)

يا أخي صاحب الرسالة!

أما صاحبك فقد ساءتني حربه وسلمه؛ وهو في سلمه أشد إساءة، وأعظم جناية. صورته لي غاضبا للأخلاق، راثيًا للفضيلة، ثائرًا على الناس، يقذفهم بالتهم، ويرميهم بالحمم، يشتط في غضبته، ويغلو في ثورته، فقلت: حر غضب فاخطأ، وكريم ثار فجار، وأبيّ برّ أسخطته المذلة، وهاجه الفجور، فانطلق لا يقف عند حد، ولا يرضى بأمد. ثم صورته قنوعا مستسلمًا، فقلت: واسوأتا! أهذا المطبان جادلت، وهذا الجبان نانزلت؟ لقد كان جهادًا في غير عدوٍّ. لم تكن شقشقة هدرت ثم قرت، بل معدة قرقرت ثم استقرت. وما الشقاشق إلا لفحول الجمال، وأشباهم من فحول الرجال.

وأما أنت يا أخي الزيات، فما أحسبك إلا شريك محمود في رأيه، أو صاحبَ وحيه، قدّمته للكلام ونطقت على لسانه، وعرضتَه للنضال ونزعتَ في قوسه، ولا أقول أقمته مقام الوثن من سادنِه والصنم من كاهنه. فلما تبين أنه في الخصام غير مبين، وفي المآزق غير دفّاع، وفي المعارك لا يثبت للمِصاع، وإنه لِجوع يثيره، وشِبَعٍ يُرضيه، أبدلت به جماعة حسبتهم أقوَم بحجتك، وأشد هيبة في صدور خصومك، فقلت: «على أن مجلسنا كان حافلًا بغير محمود، من رجال العلم والدين والأدب،

(١) ١٠ شوال سنة ١٣٥٦/ ١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٧. جواب مقال للأستاذ الزيات عنوانه: شقشقة هدرت ثم قرت، ذكر فيها رضا صاحبه محمود الذي ذكر في المقال السابق بعد ثورته على الأخلاق.

وكلهم كانوا له وعليك». وأكبر ظني أن هؤلاء -رجال العلم والدين والأدب- شركوا محمودًا في المائدة؛ وإلا فكيف جمعهم بمحمود المجلس، وقد قام منذ هنيهة من مائدة الإفطار الغنيَّة الشهيَّة؟ والعجيب أن تذهب المائدة بثورة محمود، وتثير سخط هؤلاء، ولعله كان أثبتهم على المائدة حمَلة، وأطْيَشهم في الصحاف يدًا، ولعلهم آثروا القناعة، واصطنعوا الحياء، وتمسكوا بالأخلاق، فحرموا الطعام، فكانت ثورتهم على الأخلاق.

وبعد فموضع الخلاف بيننا في هذه القضية: هل الخلق الفاضل سبيل النجاح؟ قال محمود إبّان ثورته: لا، وقلتُ: نعم نعم. وضربت مثلًا الصانع المُجيد، الحسن المعاملة، الصادق الوعد، والتاجر الأمين المخلص، والمزارع الأمين، ثم قلت: «ولا يزال الرجل الصادق الأمين في كل جماعة وفي كل طائفة، موضع المودة والثقة، ينال بسيرته ما تقصر عنه ثروته، إن استقرض أقرض، وإن استعار أعير إلخ. فبأي هذا يرتاب أصحابك؟ يقولون: ما أهون الأخلاق إن كان قُصاراها هذا النجاح الحقير. ويقولون: إن الذين ضربتهم مثلًا من الأخيار لن يستطيعوا أن يكونوا يومًا من رجال المال والأعمال، كفلان وفلان- وأنا يا صديقي ما خصصت بقولي ضربًا من النجاح دون ضربٍ، ولم يكن ذكرى التاجر والصانع والمزارع إلا مثلًا {إن الله لا يستحي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها} ولا أتم الآية إشفاقًا على أصحابك. إني أقولها كلمة عامة شاملة: الخلق الفاضل، في أغلب الأحوال، سبيل إلى النجاح، في كل طرائق الحياة، إن أخفق حينًا نجح أحيانًا، وإن أكدى مرة، أورى مرارًا، فالحاكم الخير، والرئيس البر، والقائد الصالح، والمؤلف الصادق، والأديب النزيه، والصانع والتاجر والزارع، بل الموظف، كل أولئك أقرب إلى النجح، وأظفر بالطلبة في أكثر الأحوال، من أندادهم من الأشرار، بعد أن يتخذوا للمقاصد سُبلها، ويعدوا لكل أمر عدته، فإن قصروا في الأهبة، وتوانوا في اتخاذ العُدة، فماذا يجديهم الخُلق

وحده؟

إن بعض الأخيار تجنبوا المعارك، وأشفقوا من المهالك، وضيعوا الحزم، فلما أوفت بهم الأعمال على نتائجها، التبس الأمر على كثير من الناس، فحسبوا إخفاقهم بما استمسكوا بالحق والخلق الطيب، وخالوا نجاح أضدادهم بما ربكوا إلى غاياتهم مراكب الباطل والرذيلة. فقل لهؤلاء: أعيدوا النظر، وأحسنوا التفكير، ولا تقصروا النجاح على المال، فيجوز بكم المنطق، فهناك الكرامة والجاه والرياسة والزعامة، وهناك الطاعة والمودة، وانظروا إلى الزعماء الذين يسوسون الأمم أهم من أصحاب المال؟

وقلت في مقالي السابق: إن للأخيار إلى مقاصدهم سبيلًا واحدة، وللأشرار سُبلًا شتَّى، ولكن هذه السبيل الواحدة أحرى بأن تؤدي إلى الغاية، وتوفى على المطلوب. فقلتَ: إن أصحابك يرون في قالتي هذه نزوعًا إلى رأي محمود. ثم قلت: «وما دام جوهر الرأي واحدًا، فالسبيل القاصدة أن نطب لهذه الحال بما يؤام طموح الناس، وكرامة الأخلاق، وسلامة المجتمع»، ثم قلت: إنه لا معدى عن إحدى وسيلتين: أن تحمل الناس بالدين والسلطان على سبيل الحق الواحدة، وذلك خيال نبيل لا يقع في الإمكان؛ وإمَّا أن نعيد النظر في قانون الأخلاق، وهذا على ما يرون مظنَّة التوفيق في الإصلاح الجديد».

وجوابي أنه ليس في كلامي نزوع إلى رأي محمود إلا أن تقطع المقدمات بعضها عن بعض، ويفصل بين أول الحجة وآخرها، وأما الدعوة إلى إعادة النظر في الأخلاق، فأنا لم أعد في مقالي جملة الأمر إلى تفصيله. لم أجادل عن خلق بعينه، ولم أقل إن خلقًا ما صالح لهذا الزمن أو غير صالح، ولكنِّي قلت: إن الأخلاق الفاضلة التي تتفق عليها أمة أو أمم، لا تكون سبلًا إلى الخيبة والحرمان. وإن أردت أن تعيد

النظر في الأخلاق، فما أنا بمنكر أن الأخلاق تقبل بعض التغيير، ولكن لا إخال إعادة النظر ستغير تغييرًا ذا بال فيما سارت عليه الأمم منذ هداها الوجدان والعقل إلى سبل الخير، ولن تحلل هذه الإعادة رذائل كالكذب والسرقة والتزوير والظلم، أو تحرم فضائل الصدق والأمانة والعدل؛ ومهما تكن النتيجة فالأخلاق القديمة أو الجديدة لا تكون قرينة الخيبة والشقاء.

وقد ذكرت أيها الأخ الكريم أخلاقًا تجعلها مثلًا لما تريد تغييره. ذكرت التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكل؛ وهذه أمور يختلف فيها النظر، وليست من قواعد الأخلاق، فقل فيها ما يهديك إليه النظر الصائب؛ ورأيي أن التواضع محمود ما لم يكن ذلة، والقناعة حميدة بقدر ما تحول بين الإنسان وبين الشره والاستكلاب؛ فإن كانت ضعفًا في الهمة، وعجزًا عن الإدراك، فهي رذيلة. وكذلك الزهد. وأما التوكل فإن يكن استكانة للحادثات، وخضوعًا لكل ما هو آت، فما يرضاه إنسان؛ وإن كان ثقة بالنفس وانطلاقًا في سبل الحياة، لا ترده دون غايته المشاق والأهوال، فما أحوج الناس إليه!

يا أخي، قد أساء العجز والذل تأويل هذه الأمور. وأنت تعرف أن المثل الأعلى للرجل المسلم أن يكون طماحًا إلى أبعد غاية، واثقًا بنفسه إلى غير نهاية، حرًّا لا يقرُّ بعبودية، أبيًّا لا يقيم على دنيَّة، يرى نفسه قائمًا في هذا العالم بالقسط، قد وكل الله إليه تصريف الأمور، وتقسيم الأرزاق، والهيمنة على الأخلاق. وأين هذا مما فهمه الناس من التواضع والتوكل!

وأما الربا فلا يتسع المقام للكلام فيه. وحسبك هذه الثورات الثائرة حوله، والمعارك الهائجة فيه بين البلشفية والرأسماليَّة.

وأما قياس الأخلاق بالنفعِ والضُّرِ، فقد ذهب إليه بعض علماء الأخلاق، ولكن مذهبًا ينتهي إلى منفعة الجماعة وضررها، لا منفعة الفرد وضرره، ولن تقوم لأمة قائمة إن جعلت مقياس أخلاقها نزوات كل إنسان، ونزعات كل فرد.

وبعد فيا صديقي، أراني حدت عن الموضوع الأول استطرادًا معك، فأرجع إلى محمود أحمده على ثورته مخطئًا، وأذمه على هدوئه مصيبًا. فقد تمثل لي في الأولى حرًّا ثائرًا، يريد أن يقلب نظام الأخلاق في الأمَّة، وتمثل لي في الثانية تكلة نسكا مبطانًا، لم يدع على المائدة فتاتًا، ولم تدع فيه المائدة بقية لهمة أو عزيمة أو ثورة.

فرحمه الله جوعان ثائرا، وأخزاه الله شبعان خائرا!

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سورية[1]

سورية الجميلة ذات الخمائل الوارفة، والجنات الناضرة، والمياه الثارة!

سورية أنس الفؤاد، وقرة العين.

سورية الكادحة التي يجهد أهلها في السهل والجبل، يخرجون بالماء القليل شتَّى الثمرات، وينبتون به يانع الجنات، سورية بردى والعاصي!

سورية الصابرة التي وفرت الأيام نصيبها من النكبات والأزمات، المجاهدة التي تجادل عن نفسها، وتجاهد عن شرفها، دفاع البطل الأصيد الأعزل، يمضي بجنانه ويده، يشق الأهوال إلى غايته، ويحطم الخطوب إلى طلبته، مجاهدًا مثابرًا، مرزأ صابرًا.

سورية التي لم تجف فيها دماء الشهداء، ولم تنقطع سلسلة النوائب!

سورية التي تفيض بالذكر المجيدة، والسير الخالدة، وتمت بالرحم الواشجة، والقربى الواصلة، والجوار والذمام.

سورية الجميلة الحبيبة، الكادحة المجاهدة الصابرة، فجأها السيل، كقطع الليل، ودهمها القضاء، من السماء، فاستحالت جبالها أنهارًا، وسهولها بحارًا. طغى السيل بالناس والدواب، وجرف القرى والضياع، وذهب بالزروع والثمار.

فهذه جثث الغرقى منثورة في السهول، وأنقاض الدور تسيل بها الأودية، وتحت

---

(١) ٥ رمضان سنة ١٣٥٦/ ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٧. كتبت حينما أغرق السيل بعض بلاد سورية.

الماء والطين عتاد البائسين، وذخيرة المساكين، وما أبقت الأزمات، من ثياب وأقوات، فانظر إلى الشمل المبدد، والأمل المخيب، والهلع والفزع، والفاقة والجزع! انظر العيون الباكية، والدموع الجارية، والنظرات الجازعة، والخدود الضارعة، والعقول الذاهلة، والقلوب الحائرة، واستمع زفرات الأحياء على الأموات! وبكاء الأولاد، أو نحيب الآباء والأمهات! استمع فكم أنة كليم، وآهة يتيم!

إن الشاعر المحزون الواله ليخيل إليه أن مجرى السيل خليق أن يكون مجرى الدمع، ويذكر قول أبي العلاء:

ليت دموعي بمنى سيلت ليشرب الحجاج من زمزمين

لك الله يا سورية! تركتك منذ قليل تعانين ما تعانين، وارتقبت أن تتطاير الأخبار بما نؤمنل من انتعاشك، وما نرجو من نهوضك، فما راعنا إلا نبأ السيول الجارفة المدمرة، ولكن في صبرك وجهادك عزاء، وكل غمرة إلى انجلاء، وإن وراء هذا الظلام فجرًا، وإن مع العسر يسرًا.

* * *

هذه سورية في نبكتها، فمن ندعو لنجدتها؟ إن ندع العرب فأهل النجدة وأولو الحمية، وحفظة الجوار، ورعاة الذمار؛ في قلوبهم الراحمة لهؤلاء المنكوبين رجاء، وفي قرابتهم العاطفة عزاء، وفي أيديهم السخية ما يخفف البلاء، وهم للبائس خير وزر، وللاجئ أمنع عصر.

وإن ندع المسلمين والنصارى، فالدين يأمرهم بالتراحم، ويحفزهم إلى المؤاساة، وإن لإخوانهم فيهم لنصراء رحماء، يجيبون دعوة المضطر، ويمسحون دمعة المحزون،

ويفرجون كربة المكروب، إن عليهم أن يمسحوا في هذه القلوب الدامية، ويرفقوا بهذه الأكباد الواهية.

بل أدعو البشر أجمعين، والإنسانيَّة كلها، دعوة عامة شاملة، وأستنجد القلوب الرحيمة، لا أستثني أحدًا، أن تمد الأيدي الآسية إلى هذه الألوف، التي يعوزها القوت واللباس والمأوى.

يا معشر الكتاب والشعراء، كيف تقسو في هذه المحنة القلوب، وتجمد في هذه الكارثة الدموع، ويصمت في هذه الفاجعة البيان، ويخذل القلم واللسان!

إن ما بين دمشق إلى المعرة للسيل غارات. وللدمار آيات، وللشعر مقالًا، وللبيان مجالًا.

دمشق العظيمة تستغيث، والمعرة الخالدة تستنجد، فيا أدباء العربية والإسلام، أحيوا الهمم، واشحذوا العزائم، ويا أحباء أبي العلاء، هذا شيخ المعرة في بيانه، يستنجدكم لجيرانه.

يقول:

كيف لا يشرك المضيقين في النعـ ـمة قوم عليهم النعماء

ويقول:

من حاول الحزم في إسداء عارفةٍ فليقلها عند أهل الحاجة الشكر
ومن بغى الأجر محضًا فلينادِ لها برًّا فقيرًا وإن لاقاه بالنكر

فالقوا بمعروفكم هؤلاء الأبرار الشاكرين، تجمعوا الحزم والخير في مركمة، ولا تحقروا ما تسعفون به وإن قل. واستمعوا إليه يقول:

.إذا طـرق المـسكين بابـك فأجبـه قلـيلًا ولـو مقـدار حبـة خـردل
ولا تحتقـر شـيئًا تـساعفه بـه فـرب حـصاة أيـدت ظهـر مجـدل

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مصطفى الصادق الرافعي [١]

قال قائل: «مات سنائي».

إن موت هذا العظيم ليس خطب أمما. لم يكن تبنة ذهبت بها الريح، ولا كان ماء جمد في الزمهرير، ولا كان مشطا كسرته شعرة، ولا كان حبة سحقتها الأرض؛ إنما كان كنزًا من الذهب في هذا التراب، لا يزن العالمين بمثقال ذرة.

لقد رمى القالب الترابي إلى التراب، وحمل الروح والعقل إلى السموات[٢].

ذكرت هذه الأبيات، أبيات جلال الدين الرومي حينما قرأت نعي الرافعي. واعجبًا! أنضبت هذه النفس الفياضة؟ أذبل هذا الخلق النضير؟ أخمدت هذه الجذوة؟ أأطفئ هذا المصباح؟ أكلت هذه العزيمة الماضية؟ أفترت هذه الهمة الدائبة؟ أأظلم هذا القلب الذي يملأ الدنيا ضياء؟ أوقف هذا الفكر السيار؟ أوقع هذا الخيال الطيار؟ أسكن هذا القلم المصور، الذي يصبغ العالم كما يشاء، يضحكه ويبكيه، ويسخطه ويرضيه، والذي إن شاء صور أحزانه مواسم، وإن شاء رد أعياده مآتم؟

أمات الرافعي في وقدة جنانه، وشعلة بيانه، وعزة قلبه وسلطانه؟ أطوى القلب الذي وسع الدنيا وما وسعته، وحقرها وأكبرته؟

كلا، كلا. إن مولد الحر في الدنيا قليل، وإن موت الحر مستحيل. إن مولد الحر

(١) ١٤ ربيع الأول سنة ١٣٥٦/ ٢٤ مايو سنة ١٩٣٧.

(٢) ترجمة أبيات جلال الدين الرومي، وسنائي شاعر صوفي كبير.

تتمخض عنه الأجيال بعد عناء، ويمهد له الزمان بعد جهاد، ليولد على الأرض تاريخ أو فصل من تاريخ، فإذا انقضى عمله وجاء أجله، فهو تاريخ لا يمحى، وذكرى لا تموت.

إن الحرَّ ليولد على هذه الأرض كما يولد النجم في أطباق السماء، فلا يزال وضاء هاديًا، أو كما يولد النهر في سفح الجبل، فلا يفتا جاريًا ساقيًا أو كما تولد الحقيقة في أفكار البشر، ثم لا تموت أبدًا.

إن الحر الكريم فطرة صافية تستمد من الله، فلا يحول عنها نوره ولا يتحول عنها وحيه، وهي في خلق الله سنة لا تتبدل؛ فلا تستعبد الحر الأهواء، ولا تذله المطامع، وهو يأبى على الحدود، وينفر من القيود، ويكبر على الزمان والمكان. إن خلق الناس زمانهم خلق هو زمانه، وإن حد الناس مكانهم حد هو مكانه، فإذا ساق الناس التقليد أو قادهم، وإذا خيل إليهم الباطل حقًّا والحق باطلًا، وقف هو هازئًا أبيًّا يستوحي ربَّه، ويستفتي قلبه. وإذا جرف التيار الخاصة والدهماء، فاضطربوا في موج الحادثات كالغثاء، ترمي بهم كل شط، وتمسح بهم كل أرض، ثبت الحر كالطود الأشم، البحر الخِضَم:

يظل كالطود يجري حوله نهر من الخطوب له بالناس طغيان
فأنت مآرب أهل الذل قمته فما يذله نيل وحرمان

إن الرج الحر صفحة في التاريخ جديدة، وخطوة في سير البشرية مقدمة، على حين لا يظفر التاريخ بجديد، في آلاف المواليد، ولا يخطو خطوة إلى الأمام، في كثير من الأعوام، وهل التاريخ كما قالوا إلا إعادة وتكرار.

ولقد أوتي الرافعي من الحريَّة الإلهيَّة نصيبًا، ومن النور الإلهي قلبًا، ومن الفيض

الإلهي ينبوعًا، فلبث دهره نسيج وحده، وظل حياته ينير للسالكين، ويسقى للظامئين. ولقد أوتي من العزة الإسلاميَّة ما تخر له الجبال، ومن الهمة القرآنيَّة ما تنشق له الأهوال؛ ولقد أوتي من الإيمان ما أصغر الدهر في سطواته، ومن نور الإيمان ما شق على الزمان ظلماته.

كان الرافعي نورًا سلامًا، ومحبَّة ووئامًا، فإذا سيم الدنية في دينه أو في أمته، وإذا تجهم الباطل لحقه، أو تطلعت المذلة إلى خلقه، ألفيت النور نارًا تلظَّى، والسلم حربًا تهيج، والحب بغضًا ثائرًا، والرحمة شدة حاطمة.

لبثت سنين طوالًا أقرأ للرافعي ولا أراه، واحبه ولا ألقاه، وأتحدث عنه معجبًا، ثم أقول لمحدثي: هذا وجه ما سعدت برؤيته حتى لقيته العام من لجنة التأليف والترجمة والنشر وكأنا صديقان قديمان. ثم أتاحت الفرص لقاءه مرتين أو ثلاثًا، كانت أخراها في دار هذه اللجنة، بعد أن كتبت مقالي عن كتابه وحي القلم، فعانقني وما توهمت أنه عناق الوداع؛ ثم افترقنا وما علمت أنه آخر العهد، وفرقة الدهر. رحمه الله مصطفى الصادق، وجزاه عن لغته وقومه ودينه خير الجزاء. لا جرم سيحفظ ذكره بيان القرآن وتاريخ العرب والإسلام.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

شباب أم أماني؟[١]

يا زهرة في ضفاف الماء ناضرة ... يهتز فيها جمال جد مفتون
وللنسيم على أوراقها عبث ... ينشر الحسن فيه كل مكنون
تطالع الماء تبغي فيه صورتها ... تردها الريح عنه رد مغبون
وينفذ الدهر فيها حكمه فإذا ... شتّى الوريقات بين الماء والطين
أين الشباب الذي راقت نضارته ... ورفرفت فوقه أحلام مجنون؟
أنضرة الزهر لم تثبت لناظرها ... أم صورة الماء بين الحين والحين؟

أروع الأشياء[٢]

أتذكرين يوم جئت حيرى ... سائلة: ما أروع الأشياء؟
أتذكرين حيرتي وأني ... طوفت في الأرض وفي السماء
ثم انثنيت واللسان عيي ... يعثر بين العجز والحياء؟

* * *

أتذكرين بعد ذاك يومًا ... أسلمك الحزن إلى البكاء
ترقرقت فيه الدموع تترى ... لألاءة في خدك الوضاء

(١) ٤ ذي الحجة سنة ١٣٥٦/ ١٥ فبراير سنة ١٩٣٧.
(٢) ٤ ذي الحجة سنة ١٣٥٦/ ١٥ فبراير سنة ١٩٣٧.

هــذه الــدموع لا عــراك حــزن ... أوحــت لقلبــي أصــدق الإيحــاء

أروع شيء في الـــورى دمـــوع ... في مقلـــة الحزينـــة الحـــسناء

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مصر والبلاد العربيَّة (١)

بين مصر والبلاد العربيَّة كل ما يؤلف بين الأقوام من وشائج القربى والتاريخ، وكل ما يحكم القرابة من عقائد وعواطف، وآلام وأمال، وكل ما يؤكد الأخوة من حقائق ومنافع. والكلام في هذا تبيين ما لا يعوزه البيان.

يذهب المصري إلى أحد الأقطار العربيَّة، فكأنما برح بقعة في مصر إلى أخرى، يرى وجوهًا يعرفها ولا تنكره، ويسمع من أحاديث الماضي والحاضر، ما يسمعه في بلاده، ويحدث عن الهموم والمطامح التي تنطوي عليها نفسه، ويخفق بها قلبه. حيثما توجه وجد أهلًا بأهل، وإخوانًا بإخوان، وأبصر من ذكر التاريخ، ومشاهد الحاضر، وخطط المستقبل، ما يوحى إليه أنه في وطنه، وبين قومه، وكأنه لا يذهب إلى هذه البلاد إلا ليرى بعينيه ما حدثه به التاريخ، وأحكمته في نفسه النشأة والتعليم.

ذهبت مرات إلى فلسطين والشام والعراق، فكان يخيل إلي أينما سرت، أني لا أخطو إلا على صفحات من التاريخ المجيد، ولا أرفع بصري إلا على عنوان من عناوينه، في صورة مسجد أو مدرسة، أو قبة حنت على عظيم من أسلافنا أبطال الإسلام والعربية. وطوفت في العراق مدنه وقراه، وحضره وباديته، فكانت بغداد عندي القاهرة، بل أجل ذكرًا، وكانت الكوفة والبصرة والموصل أعظم أثرًا في نفسي من طنطا والمنصورة وأسيوط، وكانت مضارب شمر وبني تميم، أذهب بي في التاريخ من مضارب القبائل المصرية؛ وأما دمشق الجميلة الجليلة، فما دخلتها إلا ازدحمت عليّ أحداث التاريخ، ودفعتني مواكبه، فسارعت إلى الجامع الأموي أنشد قول

(١) ٤ ذي الحجة سنة ١٣٥٦/ ١٥ فبراير سنة ١٩٣٧م.

شوقي:

هـذا الأديـم كتـاب لا كفـاء لـه رث الـصحائف بـاقٍ منـه عنـوان

ولست بدعًا في هذا؛ فما أحسب مصريًّا ذهب إلى هذه البلاد إلا شعر بما أشعر به.

وليس الأمر بيننا تشابك أرحام، واتصال أوطان فحسب، ولكنه الحب المؤكد، والود الصريح، ينطق على ألسنة القوم، ويتجلى في أساريرهم، ويبين في أعمالهم، ويشهد به اهتمام القوم بكل صغيرة وكبيرة في مصر، وتحدثهم عن علمائها وأدبائها وأحزابها وقادتها حديث المحب العارف الخبير، وحرصهم على قراءة ما تخرجه مصر من كتب ومجلات وجرائد، وكثيرًا ما ترى في الشام والعراق من يعلم عن مصر أكثر من أبنائها. وإذا تحدث هؤلاء الأخوة الكرام عن مصر، أشادوا بذكرها، وأكبروا حضارتها، وأعظموا مآثرها على العربية والإسلام، معترفين مغتبطين، لا جاحدين ولا كارهين، وعدوا مجدها مجدهم، وعزها عزهم، وفخروا بها كما يفخرون ببلادهم.

وتطلع البلاد العربية إلى مصر، وإنزالها هذه المنزلة، أجدى الوسائل إلى التقريب بينها، وتوحيد سننها في التربية والتعليم، والتأليف بين أبنائها، ولم يأل إخواننا جهدًا في التودد والتقرب؛ فماذا يجب على مصر؟

ليست مصر أقل شعورًا بإسلامها وعربيتها، ولا أضعف تقديرًا للوشائج التي تحكم بهذه البلاد أواصرها، والمصالح التي توثق بها علائقها؛ ولكن التاريخ السياسي في العصر الأخير، فرق بين هموم مصر وهموم أخواتها، وشغلها بغير الذي شغلوا به، فلما أفاقت قليلًا إلى نفسها وموقفها بين الأقطار والأمم، لم يلحقها شك فيما بينها

وبين أخواتها من أواصر وعُرى، لا تقوى الحادثات على فصمها. وكلما خف عنها عبء المصائب ازدادت شعورًا وبصرًا بمكانتها بين أخواتها، وما يجب عليها لهم.

إن على مصر أن ترعى القرابة، وتجزي الود بالود، وعليها أن تضطلع بالتبعات التي تحملها إيَّاها ثقة البلاد العربية بها، وإقامتها مصر مقام الأخ الأكبر.

أسمع أحيانًا بعض المتحدثين بهذا يقولون: إن على مصر أن تستغل هذه الثقة. وحاشا لله أن يكون الأمر استغلالا أو اتجارا، إنما هو أخوة ومودة، وتبعات وواجبات، وتعاون على الوقوف في معترك الحياة، وتآزر على بلوغ الغاية التي تلتقي عندها مقاصدها جميعًا؛ يجب على مصر أن تصلح نفسها، وتكمل حضارتها، وتعمل على ما يوافق مكانتها، وتسن السنن الصالحة لنفسها وغيرها. يجب عليها أن تشارك في السراء والضراء، ولا تقف معزل في مصائب البلاد العربية ومسراتها، بل تشارك جهد اليد واللسان والقلب؛ وعليها الآ تألو جهدًا في إمداد من يستمدها، وبذل ما تسأل من معونة، في العلم والأدب وغيرهما، موحية إلى كل مصري يذهب إلى البلاد العربية، أنه يذهب ليؤدي واجبًا، ويعاون أخًا، وأن واجبه حيثما كان من هذه البلاد كواجبه في مصر؛ وأن مقصده الأول أن يبذل من قواه على قدر طاقته، لا يبغي جزاء ولا شكورًا. وإن لم يُقصّر إخواننا في الجزاء والشكر.

ثم على مصرٌ ألا تتردد في الاستفادة بما في هذه البلاد من مزايا، فلا ريب أن فيها من الآداب والأخلاق والصناعات ما يجدي علينا أن نتلقاه عنها، ونحتذيها فيه.

بالمودة والتآخي والتعاون، وشعور كل جماعة بمكانها من الجماعات الأخرى، وإدراكها ما لها وما عليها في الجماعة الكبيرة الشاملة، يتهيأ للبلاد العربيَّة، ما بين بحر الظلمات ونهر دجلة، ما تطمح إليه من مجد وسعادة، وما يكافئ تاريخها من حضارة،

حتى تؤدي نصيبها من الخير للجماعة البشرية كلِّها. وما أعظم ما ينتظر المجد من العرب! وما أعظم ما تؤمل الإنسانيَّة فيهم!

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر

يروي بعض الصوفية أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه، كان إذا قفل من غزاة قال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»؛ ويقولون إن الجهاد الأصغر قتال الأعداء، وخوض المعامع، وقراع المنايا، والجهاد الأكبر تقويم النفس وتطهيرها، وإعدادها للرقابة على أعمالها، والقيام بالعدل فيما بينها وبين الناس، ثم مجاهدة الأنفس الأخرى بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالرغبة والرهبة، واللين والشدة، حتى تستقيم على السنن القويم، وتحتمل كل ما يحملها الواجب، وتأخذ كل ما يعطيها الحق، وحتى يجتمع الناس على شرع لا تفرقهم الأهواء، ولا تثور بينهم البغضاء، ثم النظر بعد هذا فيما يصلح الجماعة، ويسعدها في معايشها.

صدق هؤلاء القائلون، فحرب العدو جهاد بين، لا تقعد عنه الأنفس العزيزة، ولا تختلف فيه الكلمة، تدعو إليه العزة والكبرياء، والذود عن الأنفس والحرمات، ويصمد فيه المجاهد لعدو مرئي في معترك محدود، ولكن جهاد النفس، وإصلاح الجماعة وإسعادها، خفي المسالك، غامض الجوانب، تعترك به النفس الواحدة منازع مختلفة، وتفترق بالجماعة أهواء متشاكسة، ويطول فيه المدى، وتمتحن العقول والعزائم.

فإن تكن الأمة المصريّة قد مشت في عِزّتها إلى غايتها؛ أو أشرفت على الغاية، إن تكن قد بلغت بالإباء والكبرياء والدأب والصبر ما أمّلت، أو بعض ما أمّلت، إن تكن فرغت من الثورة والعداء، إلى السلم والمودّة، فإنها قفلت من جهادها الأصغر، إلى جهادها الأكبر - الجهاد الذي يعنى بأحوال الأمّة، ما ظهر منها وما بطن، ليربّيها على الخير والحق، وينشئها على الخلق القويم، ويردّها جماعة صالحة متآخية، تجمعها

المودة، ويعدل بينها الإنصاف، تلقى الخير والشر بقلوب موحدة، وعزائم مجتمعة، وآراء متناصرة؛ الجهاد الذي يُعنى بالجهلاء فيعلمهم، وبالمرضى فيأسوهم، وبالبائسين من الزراع والصناع، فيأخذ بأيديهم إلى العيشة الراضية، ويقارب بين طبقات الأمة، حتى يجمع شملها الخير العام، والمصلحة الشاملة؛ الجهاد الذي يهيِّئ للأمة ولاة ينشرون السلام والأمان، ويقومون بين الناس بالقسط في كل كبيرة وصغيرة، حتى تعم النصفة القوي والضعيف، والنصير والمخالف، والمحبّ والمبغض؛ وتقوم للأمة حكومة يحمل كل واحد فيها قانونًا في الخُلُق، يكفل ألا يحيد قِيد شعرة عن القانون الذي في الورق، ويتنزل فيها المثلُ الصالح من الرؤساء إلى من دونهم، حتى يشعر كل عامل أنه يتلقى العدل ممن فوقه، لوحيه إلى من دونه، وأنه حين يعدل لا يتبرع ولا يُمنّ على أحد، وإنما هو الحق والواجب لا محيد عنهما، ولا مفر منهما، ولا يسع الأمر غيرهما، وحتى لا يُقضَى في أمر إلا بما كان يقضي به عمر بن الخطاب لو عرض هذا الأمر عليه، لا محاباة ولا حيف، ولا هوادة ولا ضعف، حتى يؤخذ الحق له، وحتى يكون العامل الصغير في أقصى الأرض نائلًا حقَّه، آمنًا عليه، كالحاكم الكبير في دواوين القاهرة، وحتى ييأس أكبر الموظفين، وأقرب المقربين من المحاباة، يأس أصغرهم وأبعدهم؛ لكل حقِّه، وعلى كل واجبه، وفوق الناس جميعًا قانون الأمَّة وعدل الله- الجهاد الأكبر الذي يذهب بهذه المساوئ البادية في أنفسنا وأجسامنا، وأزيائنا وطرقنا، وأنديتنا ودواويننا ودورنا، والذي يأخذ الأمَّة بيد رحيمة حازمة، ويوفي بها على النجاة غير مبالية بصيحات المرضى الذين يكرهون الدواء، والمفسدين الذين ينفرون من الإصلاح إلخ إلخ.

لست أقول إن أمتنا ابتليت بالشرِّ والفساد بين الأمم؛ ولكنني أريد لها أن تكون {خير أمة أخرجت للناس}، وأن تصير مضرب المثل بين الأمم في أخلاق أفرادها، ونظم جماعاتها، وسعادة أولادها.

سيقول الضعفاء: هذا مطلب عسير. وأنا أقول إنما تطمح عزائمنا إلى المطالب العسيرة، وإنما يكافئ هممنا المقاصد البعيدة. وسيقول الذين في قلوبهم زيغ: هذا هذيان! وينسون أن هذا الهذيان تنطق به القوانين كلها؛ فإن لم يكن عملنا مصدقا قوانيننا، فما جدوى هذه القوانين؟ ليس في الأمر عسر، وليس في الأمر هذيان، ولكنَّه حق يسير، إذا برئت النفوس من يأسها، وخرست الألسن عن هذيانها؛ وحسبنا أن يقوم على رأس الأمة «عمر» واحد يضرب المثل، ولا يتهاون في إنفاذه ويقتدي به الناس كلهم، رغبةً ورهبة يقتدون به، ويحاول كل منهم أن يجعل نفسه عمر آخر.

إن نفوس هذه الأمة معمورة بالخير، وإنما أضر بنا أن رُفعت في كنف العدو رايات للشر، انحاز إليها كل شرير، وأشفق منها كل خير، فازداد المسيئون إساءة، وضعفت نوازع الإحسان في نفوس المحسنين. فاليوم نريد أن نرفع في هذا البلد للخير رايات، ويُهاب بما في الأمة من أخلاق، ليزداد المحسن إحسانًا، ويكف المسيء عن إساءته، فإذا الناس أعوان على الخير، أنصار له، فرحون به، مغتبطون سعداء.

ذلكم الجهاد الأكبر، الذي تضطلع به هذه الأمَّة الكريمة، وتهديها إليها حكومتها الرشيدة، مؤيدةً موفقةً مسددة، إن شاء الله.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

عُقْبة على شاطئ المحيط(١)

١

من القومُ أوغلوا في البيداء، يجوبون سيناء، قد أغذوا السير، وأقلوا المير(٢)؟

من القوم تسبح بهم الجِمال، في لجج الرمال، وتَغوص منهم الأشباح والظلال، في غمرات الآل(٣)، ترفعهم الوهاد إلى الهضاب، وتسيل بهم الهضاب إلى الوِهاد، لا يألون تأويبًا وإدلاجًا(٤) ولا يشكون نصبًا ولا كلالًا؟

من القوم ترمى عزائمهم الغَايات، وتطوى هممهم المسافات، سيان عندهم البعيد والقريب، والعسير واليسير؟

من القوم تُضيء بالإيمان قلوبهم، وتَقَرُّ على اليقين نفوسهم، حُداؤهم القرآن، وغِناؤهم الآذان، رحالهم معابد، ومنازلهم(٥) مساجد، قد شرَوا لله أنفسهم، وأرخصوا في مرضاته أرواحهم، ورضوا بما قسَم لهم، وقد سايروا الشمس مغرِّبينْ، لا تحويهم البُلدان، ولا تستردهم الأوطان، كأنهم نجوم في حُبُك الأرض، تسير بقدَر إلى قدَر؟

العرب المسلمون يقودهم عمرو، يتوجهون تلقاء مصر، رموا الباطل في جانب،

(١) ٢٨ محرم سنة ١٣٥٥/ ٢٠ أبريل سنة ١٩٣٦.

(٢) المير: الطعام.

(٣) الآل: السراب.

(٤) التأويب: مشى النهار كله. والإدلاج: السير من أول الليل أو آخره.

(٥) منازل الطريق.

وساروا إليه في جانب، وصرعوه في ميدان، وهُرعوا إلى ميدان. هدموا سلطان الروم في الشام، وصمدوا لسلطان الروم في مصر وأفريقية.

بالأمس زحموا الصرح فانهار، ونفخوا زخرف قيصر فطار، وأشاروا إلى الصنم فسجد، وخلَّى جبروته إلى الأبد. وضعوا سلطان هرقل، ورفعوا سلطان الله، وأقاموا الحرية في مصارع العبودية، وشادوا العدل على مقاتل الجور.

واليوم يتَّبعون الباطل المهزوم، ويشرِّدون الزور المزءود. إنهم يؤمّون مصر، ومصر أكرم على الله من أن تكون مَباءة الباطل، ومثوى الجبروت. إنهم يسرعون إلى مصر، فعفاء على الروم وسلطانهم، ويل للباطل يدمغه الحق، والظلم يزلزله العدل، والاستعباد تثور به الحرية؛ ويل للروم يسير إليهم العرب.

٢

أترى البحر المائج، واللج الهائج، أترى السفن على الثبَج[1] راجفة، والجموع فوقها واجفه؟ أترى الموجَ يتلاطم، والسفين يتصادم، والجيوش ملتحمة، والخناجر والسيوف مختصمة؟ أترى جندًا يلوذون من حَرِّ الضراب، إلى برد الماء، ومن ذل الإسار، إلى عار الفرار، وجندًا ثبته اليقين فثبت، وآثر الموت على الحياة فظفر؟

واعجبًا! قد أصبح فرسان الصحراء أبطال الدأماء، وصار حُداة الإبل أمراء السفن، جاوزوا الكثبان البيض، إلى اللجج الخضر، فاتخذوا السفين جيادًا والبحر مرادًا. وهل الإبل إلا سفن الصحراء، وهل السفن إلا أفراس الماء؟ ما استبدل هؤلاء إلا سفينة بسفينة، وفرسًا بفرس.

(١) أعلى الموج ووسطه.

وإنها، على ذلك، لإحدى العبر: أبناء البادية ينازلون الروم في الأساطيل، معاوية وابن أبي سرح يقاتلان قسطنطين بن هرقل، وقد جاءهم في ستمائة سفينة تحمل جند الروم، وتاريخ الروم، وثارات الروم. وأعجب العجب أن يغلب الأسطول الرضي، الأسطول الكهل، وأن يغلب ابن أبي سفيان، ابن هرقل، وأن يغلب العرب الروم، في بحر الروم[١].

٣

ما جزيرة العرب وفارس والشام ومصر، وما الهند والصين، والمشرق والمغرب في همة هذه الشمس الوهاجة، وعزيمة تلك الكواكب السيارة؟ قد استقر سلطان القوم في مصر فلم يقنعوا، وها هم قد غزوا برقة ورجعوا، أتحسب الأمد تطاول عليهم، والشقة بعدت بهم، فملوا أو خاروا؟ تلبث قليلًا، ثم انظر جيش العبادلة[٢] يزحف إلى أفريقية، فيظفر ثم يصالح، وما وراء الحرب والسلم إلا المسير لإعلاء كلمة الله، وبلوغ الغاية مما أرادوا في سبيل الله.

ويقف القوم سنين، وما هو إلا الجمام للمسير، والتحفُّز للوثوب، والإعداد للجهاد، والتريث للتثبت، وعمّا قليل يطوون المغرب، لا تعوقهم الفيافي المترامية، ولا تصدهم الجيوش الجرارة. تنظر الغد، فما بلغ القوم الأمل الموعود، ولا قاربوا الغاية المقدورة.

٤

(١) إشارة إلى موقعة السواري سنة ٣١هـ.

(٢) جيش غزا إفريقية وفيه العبادلة أبناء أبي بكر، وعمر، وعمرو، والزبير، وأبو ذؤيب الشاعر.

عشرة آلاف تطوي الأوطان والقطان في سبيلها، وتطأ الأهوال والأبطال إلى غايتها. عشرة آلاف، وفي الناس واحد كألف.

تجمعت في فؤادهم همم ... مِلءُ فؤاد الزمان إحداها

عشرة آلاف قائدهم عقبة بن نافع، عزموا ألا يَنثنوا، وصمموا ألا يُهزموا، وآلوا ألا يرجعوا ما اتسع الفتح لعزائمهم، وامتدت الأرض لأقدامهم.

ها هو ذا عقبة ينبي مدينة القيروان، فِعلَ الغازي المعمِّر، والفاتح المقيم. وسيجعلها مبدأ السير، وأول الفتح، وكأنهم ما قطعوا المهام إليها، ولا ساروا عن ديارهم قبلها.

في كل فج عزمهم سيَّارُ
إلى الوغى تهافتوا وطاروا
جماعة ليس لهم ديار
إلا ظهورُ الخيل والغبار

أرض الله، وعباد الله: أينما توجهوا فهي أرضهم، وحيثما حلُّوا فهي ديارهم. لا بُعد عندهم ولا قُرب، ولا شرق ولا غرب، {ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله}.

ولكن عشرات الألوف من الروم والإفريقيين قد ساروا إليهم. لقد أعد الروم لهم، وأزمعوا أن يحطموهم، فوارحمتاه للأنجاد القليلين، والغرباء النازحين.

كلا لا خوف ولا حزَن، ولا قلَّة ولا كثرة. انظرهم يديرونها على عدوهم حربًا طاحنة. ويُلجئون الروم وأعوانهم من لظى النار، إلى سلاسل الإسار، انظر إلى ألوف من الروم مصفَّدين.

أترى الكثرة أغنت، أم ترى القلة قلَّت؟ ذلك آخر عهد الروم بإفريقية.

٥

أين الجنود البواسل والعُبَّاد الغزاة، والبُداة الذين خرجوا ينشدون الحق، ويردون الجبارين إلى العدل؛ إنهم ليسوا في برقة ولا إفريقيَّة، ها هم أولاء في أقصى المغرب، هم اليوم في طنجة، بل هم في السوس، لقد انتهوا إلى الساحل، لقد انتهت الأرض. وأسفا للجواد المتمطر لا يجد مجالا، والعزم المُحضِر لا يجد مضطربا. قد بلغوا البحر فكيف المسير؟ وفتحوا ما بين المدينة المنورة وبحر الظلمات، فأنى الفتح؟

انظر عقبة تضيق بعزمه الأرض، وتصغر في عينه الأقطار، فيدفع جواده في البحر ويصيح:

«والله لو علمت وراءه أرضًا، لسرت غازيًا في سبيل الله»[1].

(١) روى بعض المؤرخين أن عقبة فعل هذا حينما بلغ شاطئ المحيط الأطلسي.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

وحي القلم(١)

{اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم}.

١

أنا معجب بالرافعي منذ قرأت له. وأحذر أن يغطي الإعجاب على بصري، وتكل عين الرضا عن العيوب، وقد اتهمت نفسي، لتكافئ التهمة الأعجاب، ويعادل الحب الارتياب.

الرافعي نسيج وحده، تقرأ له، فتشعر أنك في اختراعه وتصويره، وبيانه وتفكيره، لا يذكرك بأحد، ولا يذكرك به أحد، وحسب الكاتب أن يكون كونا مستقلًا يستملي الضمير، ويبدع في التصوير. وكثير من الكتب قوالب تختلف أحجامها وأشكالها، ولكنها صور مستعارة، لا تفتأ تستعير مادة عملها.

بين شعراء الفرس شاعر تسمى «خلاق المعاني»؛ والرافعي في وحي القلم جدير بهذا اللقب، وما أعسر الخلق هنا، وما أصعب الإبداع! يعمد إلى الحدث الصغير ذي المعنى المحدود، فيحطم حدوده، ويصله بالبشرية كلها، أو يشيعه في العالم كله، ويصوره صورًا تلقى القارئ بحدتها وروعتها. والكاتب الملهم يرى الخليقة أسبابًا متصلة، ومعاني متجاوبة، وصورًا متجاذبة، فما يبصر ذرة إلا رأى وراءها الفلك،

(١) ١٢ من ذي القعدة سنة ١٣٥٥/ ٢٥ يناير سنة ١٩٣٧. كتبت حينما أخرج المرحوم مصطفى صادق الرافعي كتابه «وحي القلم».

ولا يقابل شعاعًا إلا جذبه إلى الشمس، وكأن كل شيء في الوجود عين تطل على العالم غير المحدود. تنثال عليه الفكر، وتتزاحم أمامه الصور، فيكون همه أن يشق طريقه بين المعاني المتزاحمة، ويجد سبيله بين الطرق المتشعبة، وأن يطرد المعاني التي لا يريدها عن المعاني التي يقصدها. فهو من الخِصب في نصَب- نصَبَ الكاتب المقلد من الإجداب والإجبال.

العالم أمام الرافعي كتاب مفتوح، يدرك فيه جمال الحروف، وحسن السطور، ثم ينفذ إلى ما لا ينتهي من المعاني. وما يزال يعرض المعنى الواحد في صور رائعة، حتى يدع القارئ مُعجبًا حيران، قد اجتمعت على القراءة خفقات قلبه، ونظرات عينه، وأسارير وجهه. فلو أن الرافعي صور هذه الخفقات، وبيّن هذه النظرات والقسمات، لاسترد البيان الذي أفاضه على قارئه.

والرافعي يُغرب أحيانًا، أو يدق فينبهم معناه. وفي هذا ثورة بعض الأدباء عليها، ولكن الذي آمن بقدرته فيما وضح واستبان من كلامه، يؤمن أنه حين يغمضُ يتحيل لمعنى دقيق خفي، لم ترضه الألفاظ، ولم يذلله الكتّاب، أو يتلطف لفكر نفور آبد ليختله، وكثيرًا ما يخيل إلي وأنا أقرأ آبدات الرافعي، أني أتبع بصري طائرًا يرتفع في اللوح، ثم يرتفع حتى تضمره السحب، فلا تراه العين، ولكنها تعرف أنه في جو السماء. فإن قيل إن هذا حكم الإعجاب والرضا، قلت: فإني أتهم نفسي فلا أدفع عن هذه الأوابد، ولكن وحي القلم بريء من الغموض والانبهام، وإنما أكتب اليوم عن وحي القلم.

٢

هذا الكاتب النابغة نزّاع إلى الجمال، طمّاح إلى الفضيلة، مولع بكل خلق كريم،

فلا يعالج أمرًا إلا حلق به إلى الجمال والرأفة والرحمة والإحسان والحرية والإقدام، ولهم جرًّا.

وقلبه فياض بالإيمان والطهر، فإذا كتب في الدين وما يتصل به ارتقى إلى حيث تنقطع المطامع. اقرأ مقاله: «سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم»، إنها تملأ القارئ إعجابا، وتسمو به حتى يحسب نفسه ملكًا محلقًا يرى مآثم الناس ومصائبهم، من حيث لا تتعلق به ولا تستهويه. ولا يوفق لهذا البيان إلا مسلم ملهم كالرافعي، يكتب في حقيقة علويَّة كالنفس المحمديَّة. ثم اقرأ في مقاله: «الله أكبر» وصف المسجد ونشيد الملائكة، لقد قرأت، فكانت تنبعث التكبيرة من قرارة نفسي، فأمسكها مؤثرًا الاستماع إلى هذا التكبير، الذي يدوي به المسجد. فلما انتهى المقال لم أملك أن رفعت صوتي بآخر كلمة منه: «الله أكبر».

هذه النزعات العلوية، والسمو الروحي، يتجلى في مقالاته: الإشراق الإلهي، فلسفة الإسلام، حقيقة المسلم، وحي الهجرة، فوق الآدميَّة، درس من النبوة، شهر للثورة، ثبات الأخلاق.

والرافعي كاتب الإسلام والعروبة، يتناول الحديث الصغير في تاريخ الإسلام، ومآثر العرب فيجعله عنوان فصل بليغ من الحكمة والموعظة، يسايره فيه القارئ متعجبًا: كيف ولدت الواقعة الصغيرة هذه المعاني، التي تحاول أن تكون تاريخ جيل؛ اقرأ «زوجة إمام» و«السمكة» واقرأ «يا شباب العرب» و«يأيها المسلمون».

وهذا الكاتب السماوي أبرع الناس تحليقًا بالحبِّ الطاهر وأعظمهم ترفعًا به، وأبصرهم بالمهاوي والمهالك التي يحلق عنها هذا الحب العليّ الأبيّ. نظرة إلى السماء تصف العلاء والمضاء والطهر والسمو الروحي الذي لا يحد، ونظرة إلى الأرض

تصف السقوط الحيواني، والهوى الشيطاني، فترى القارئ مدعوًا إلى السماء، ومطرودًا عن الأرض، طائرًا إلى الخير، نافرًا عن الشر.

وإذا وصف صاحبنا الجمال، بث في العالم معانيه، ونفض عليه ألوانه، فكأنما خلق العالم خلقًا جديدًا. يخلق من الشعاع شمسًا، ومن القطرة نهرًا، ومن الوردة حديقةً، ثم يغرد فلا يدرَى، أهذا التغريد تفسير هذا الجمال: أم هذا الجمال تصوير هذا التغريد؟ ولا يدري القارئ: أهو في ربيع باهر، أم في بيان ساحر؟ وما أشبه قلمه وهو يشقق المنظر الغفل عن سرائر الجمال، بإبرة الحاكية تسلط على الصفحة الجامدة السوداء فتردها كلامًا وأنغامًا وألحانًا. واقرأ «عرش الورد» تر كيف جعل ابنته على عرشها مركزًا يحيط بها الجمال فلكًا دائرًا.

٣

ولله مصطفى حين يتغلغل في الجماعات، فيحس آلامها، ويصف أسقامها، ويعرب ما في ضمائر البائسين، وعمّا في رءوس المتكبرين، ولا يزال بالمعنى الذي يراه الناس جمادًا، يقدحه حتى يخرج منه النار والنور. يأخذ الحادثة الصغيرة، ينطقها بما وراءها، ويكشفها عما انطوت عليه، حتى يقيم بها للإنسانيَّة عرسًا أو مأتمًا. اقرأ «أحلام الشارع» تسمع أنات البشرية، وتر عبراتها، وتلمس مصائبها مصورة ملونة بدم المهج، وماء العيون، ونار الزفرات، وحز الحسرات، وسواد الفاقة والذلة، ثم تسمع لغة ا لإنسانية على لسان ما سنت من قوانين. والعجب أنك كلَّما أسال الحزن عبراتك، طبع البيان الساحر على شفتيك بسمة إعجاب لا تملك نفيها.. اقرأ «عربة اللقطاء» تر أنه صاغ من أساريرهم حروفًا للهجاء تسع كل معنى، وتتمثل الآثام التي ولدت هؤلاء، والمصائب التي يحملها هؤلاء، والمفاسد التي سيلدها هؤلاء.

وتقرأ «لحوم البحر» فتستمع إلى الشيطان والملك، كل ينشد أناشيده. ويستخرج الرافعي منها دعوة إلى الفضيلة، ولعنة للرذيلة، وهو قادر على تسخير الشيطان لبيانه، فقد أعطى في البيان ملك سليمان.

وإذا وعظ «الصادق» نفذ إلى السرائر، وصور للإنسان فضائله ورذائله، تصويرًا لا يدع له أن يختار إلا الأولى، وأن يهجر إلا الثانية. وهو لا يعمد إلى النذر يصبها على النفس صب السياط، يألم لها الجسم، ويموت القلب، بل يعمد إلى الحياة يصورها على حقائقها، نافيًا عنها تلبيس إبليس، وإلى القلب ينفخ فيه العظمة ويبث فيه الفضيلة والطهارة، والطموح إلى كل خير، والنفور من كل شرٍّ. اقرأ له «وحي القبور».

٤

وهذه المقاصد الجليلة، والنزعات السامية، تخالطها دعابة رقيقة، وسخرية نافذة، ترى الكاتب يرتفع فوق العالم، ثم يسخر مما عبد الناس من أباطيل وأهواء، فإذا التماثيل التي يسجدون لها تهاويل، وإذا الهول الذي يفزعون منه تهويل، وإذا العظمة والكبرياء والسلطان والجاه، والغني وكل ما عده الاجتماع عظمة لقوم وحقارة لآخرين، أضاحيك يخلقها الجهل، ويهدمها العقل، ويقدسها الإنسان حيوانًا، ويحطمها الإنسان إنسانًا- وأعوذ بالله من الرافعي إذا انطلق ساخرًا، يرسل بيانه طعنات دراكًا وهو يضحك ضحك البرق في السحاب الراعد، أو لمع السيف في يد الضارب.

* * *

وبعد، فهذا وصف الروض في كلمات لو كانت أزهارًا ما مثلته، ونعت البحر في سطور لو كانت أمواجًا ما صورته. فأما الروض في بهجة جماله، والبحر في روعة جلاله، فهما ما خطه الرافعي. فإن شئت فقل جنات في صفحات، وعباب في كتاب، وإن شئت فقل: إنه العالم في سطور قد انتظم، ووحي إلهي سماه الرافعي «وحي القلم».

«ذلك الفضل من الله».

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المُثَنَّى بن حارثة (١)

على ذكر «نادي المثنى» ببغداد

١

كانت قبائل ربيعة ضاربة شرقي نجد، موغلةً إلى الشمال، حتى أعالي الفرات؛ وكانت الوقائع تثور بينهم وبين الفرس في الحين بعد الحين، فكانوا أجرأ العرب على فارس، وكان العرب يسمُّون فارس «الأسدَ»، فسمَّوا ربيعة: «ربيعة الأسد».

وكان بنو شيبان من هامات ربيعة في الجاهليَّة، وهم كانوا أبطال «ذي قار»، وامتد بهم المجد في الإسلام، فكان منهم بيوتات لها في الحرب والمكارم مآثر؛ يقول أبو تمام:

أولاك بنو الإفضال لولا فعالهم ... درجن فلم يوجد لمكرمة عقب
لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد ... وحيد من الأشباه ليس له صحب
به علمت صهب الأعاجم أنَّه ... به أعربت عن ذات أنفسها العرب
هو المشهد الفرد الذي ما نجا به ... لكسرى بن كسرى لا سنام ولا

٢

وقد امتدت أحقاد ذي قار بين الفرس وبني شيبان خاصة، وقبائل بكر عامة، حتى كان بنو شيبان طلائع الفتح الإسلامي في العراق.

---

(١) ٩ رجب سنة ١٣٥٤/ ٧ أكتوبر سنة ١٩٣٥.

لما عمَّ الإسلام الجزيرة، وتوطد سلطانه، سمع أبو بكر بوقائع سيد من شيبان في سواد العراق فقال: من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه؟ قال قيس بن عاصم المنقري: «هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنى بن حارثة الشيباني».

ثم قدم المثنى على أبي بكر يسأله أن يؤمّره على قومه، ففعل. وكان المثنى من قبلُ على قومه أميرًا، وبقي من بعدُ أميرًا يستعينه أمراء المسلمين إذا حضروا، ويستخلفونه إذا غابوا، حتى مات بين مآثر مشكورة، ومناقب محمودة. وقد صدق عمر حين سماه: «مؤمّر نفسه».

ولما اشتدت الحرب في العراق، بعث المثنى أخاه مسعودًا إلى الخليفة يستمده، فأرسل خالد بن الوليد إلى العراق، فلما نزل خالد النِّباج، كتب إلى المثنى وهو مُعسكِر بخفان، ليأتيه، وبعث إليه بكتاب من أبي بكر يأمره بطاعته. قال الطبري: «فانغض إليه جوادًا حتى لحق به»؛ فانظر إلى الرجولة كيف تسارع إلى الطاعة.

ولما توجه خالد إلى الشام، استبد المثنى بإمرة العراق، وكان بطل موقعة بابل، وفيها قتل الفيل الذي أفزع خيل المسلمين.

قال الفرزدق يعدد بيوتات بكر:

وبيتُ المثنى قاتل الفيل عنوة ... ببابل إذ في فارس مُلكُ بابل

ثم سار المثنى إلى أبي بكر، ليخبره بحليَّة الأمر في العراق، فوافاه مريضًا قد أشفى، فأوصى أبو بكر عمر، قال: «فإن أنا مت فلا تُمسين حتى تندب الناس مع المثنى».

سار الناس إلى العراق وأميرهم أبو عبيد الثقفي. فلما كانت موقعة الجسر، التي زلزل فيها المسلمون، وقطع جسر الفرات وراءهم، فتهافتوا في الماء، وقف المثنى في أنجاد من العرب ينادي: «أيها الناس إنا دونكم، فاعبروا على هينتكم، ولا تدهشوا، فإنا لن نزايل حتى نراكم في ذلك الجانب». وحمى المثنى الناس حتى عبروا. ثم خلق المثنى من الفلول المهزومة يوم الجسر نصرًا باهرًا في موقعة البويب، برأيه وسياسته وشجاعه، واحتسب فيها أخاه مسعودًا. ثم تكاثر الفرس عليه، فكتب إلى عمر، فأمره أن يتنحى بالناس حتى يأتيه أمره. ثم أرسل عمر سعد بن أبي وقاص في حشد عظيم، وانحاز المثنى إلى ذي قار. وقدم سعد إلى زرود ينتظر المثنى، ولكن الأسد المرزأ، والمسعر المجرب، انتفضت به جراحات يوم الجسر. فبينما سعد يرجو مقدمه، جاءته وصيته تحملها امرأته سلمى وأخوه المعنى. عمل سعد بوصية المثنى وأمر أخاه المعنى مكانه، ثم تزوج سلمى، وقد شهدت وقعة القادسية، فلما حمي الوطيس، واستكلب الموت على الأبطال، نظرت فلم تجد المثنى يقدم الأنجاد، ويقود الجلاد، فصاحت: «وامثناه! ولا مثنى اليوم للخيل».

مات المثنى، وشهد له التاريخ أنه «كان شهمًا شجاعًا ميمون النقيبة، حسن الرأي، أبلى في حروب العراق بلاءً لم يُبله أحدٌ».

٣

فيا شباب بغداد الذين أنشئوا نادي المثنى ليحيوا ذكره. اذكروا فيه الرجولة الكاملة، والشجاعة البالغة، والمجد والسؤدد، والعمل المخلد. اذكروه قائدًا مقدامًا، وأميرًا حازمًا، وسيدًا مطاعًا، وجنديًا مطيعًا. وذكرى أمثاله أخلاقًا صلبة، تقيكم رخاوة الحضارة، وعزيمة ماضية ترفعكم عن ذلة الرفاهيَّة، وتقتحم بكم الأهوال إلى .

الغاية البعيدة والأمل العظيم. ثم اذكروا أن المثنى فتح العراق جنديًا مسلمًا، فاذكروا الإسلام ومجده. واعتصموا بأخلاقه، واستمسكوا بمعاليه، وسيروا قدما في عزة العروبة، وهداية الإسلام، وأنتم الأعلون والله معكم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ملكة الجمال (١)

للأقلام محن تقضي عليها، أن تُسف إلى ما لا تود الكتابة فيه، وأن تنزل إلى ما تريد الترفع عنه. وقلمي مكره على الكتابة في هذه الحماقات، مرغم على أن يعني بهذه الترهات.

١

كنت أحادث جماعة من الأصدقاء فسارت بنا شجون الحديث إلى أن تكلمنا في المدنية الحاضرة، حسنها وقبيحها، وجليها وسفاسفها. قلت: أحسب أن المسيطرين على أخلاق الناس في كثير من المناحي المعيشية الحاضرة، جماعة من التجار المفسدين. قال صديق: كيف ذلك؟ قلت: في طبع الإنسان الكلفُ باللذات، والاستهتار بالشهوات، وقد سار العالم آلاف السنين على هدى التجاريب، وتعليم الأنبياء والحكماء، يزن آلامه ولذاته، ويعدل بين مصالحه وشهواته، ويضع شرائع، ويسن سننًا، ليعيش الإنسان على شريعة تعرف وتنكر، وتستحسن وتستقبح، وتقول هذا حلال وهذا حرام، حتى استقامت للإنسان خطة في سياسة نفسه ومعاملة الناس، وصار يجاهد نفسه ليمنعها لذاتها، علمًا بأن وراء اللذة العاجلة شرًّا أعظم منها، ويصبر نفسه على ما يكره، إيثارًا للعافية في العقبى، واستمساكًا بالفضيلة التي سكن إليها، ومكنتها من نفسه سيرة الآباء.

قال صديقي: هذا حق فما وراءه؟ قلت: أرى العصر الحاضر مفتونًا كل الفتنة

(١) ٢٥ جمادى الثانية سنة ١٣٥٤/ ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٣٥.

بالأهواء، مستكلبًا على الشهوات، قد فتحت له من الملاهي أبواب، ومدت له إلى الغي أسباب. فشغلت من الحياة جانبًا هذه الملاهي والمراقص والحانات، ورأى كثير من الناس هذه الدور مجلبة ربح عظيم، ووسيلة مال وفير، فأقبلوا عليها إقبالًا، وافتنوا فيها افتنانًا، واستعانوا على تزيينها، وجلب الناس إليها بكل ما أنتجت الحضارة من علم وفن، ولم يدعوا حيلة في الاستهواء إلا اتخذوها، ولا وسيلة إلى تهافت الناس عليها إلا توسلوا بها؛ يفتن كل فيما يعرض، وتؤدي المنافسة والطمع في المال إلى استباحة المحظورات، فينكر الناس أول الأمر، ثم يسكتون، ويخدعون أنفسهم فيما يرون، لما تصبو إليه غرائزهم، وتغرم به شهواتهم، حتى يصير هذا أمرا معروفًا، وعملًا مألوفًا. ثم يحدوا أصحاب الملاهي حب الربح والمنافسة إلى أن يثيروا شهوات الناس بأفانين أخرى، وهلم جرًّا، لا يصدهم وازع من فضيلة أو عرف. وعبثًا يحاول القانون أن يصد التيار، أو يقيم الجرف المنهار. وهكذا تقاد الأمم بأذنابها، وتأتم بضلَّالها. وقس يا صاحب أزياء النساء، فتنافس التجار فيها هو الذي يطيلها ويقصرها، ويطلع كل يوم ببدعة تبين عما دق من المرأة وجل، وما ظهر وما بطن. ولست أجد بدًّا من ذكر الحقيقة العارية، وهي أن النساء الخليعات هن القدوة في هذه السبيل، يلبسن ما يلفت النظر إليهن، ويميزهن من غيرهن، فيروق النساء الأخر هذا الزي. والمرأة لا تحب أن تغلب في زينتها وتجملها، فيصير هذا الخروج على السنن سنة مألوفة، وطرافة -مودة- معروفة. وكل ما ترى في ألبسة البحر من تغير مستمر غايته أن تبرز المرأة عارية متزينة، فهذه سبيله، تبدأ به الخليعات الجريئات، فتتهافت عليه الأخريات.

٢

ووراء هذه جماعة من تجار الكتاب، والجهلة المفسدين، يريدون أن ينالوا رغائبهم بشريعة، ويفسدوا في الأرض على علم، فيكذبون على الجمال والفن والحرية ما شاءت مآربهم، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويسمون الرذائل بغير أسمائها، فالفسق إعجاب بالجمال، وكل خليعة فنانة، وكل خليع أستاذ؛ ويتنافس أصحاب المجلات في كتابة ما تحبه الشهوات، وعرض الصور التي يهفو إليها الشبان، لا يبالون في سبيل المال أن تصلح الأمة أو تفسد، وتقوم أو تقعد، وتعمل التجارة عملها، حتى تجد الرجل الحريص على الفضيلة، الداعي إليها، إذا ابتلي بمجلة أغضى عن مفاسدها، فصار له رأي في نفسه، وفي غير مجلته، وعمل آخر تجاري في المجلة. وقد عجبت لبعض الكتاب المعروفين بالغيرة على الأخلاق، والتنديد بالخلاعة والمجون، وبدع العصر الحاضر، إذ رأيت المجلة التي يشرف عليها تنشر من الصور والكلام ما لا يلائم آراءه، ويوافق مواعظه.

٣

قال صديقي، والشيء بالشيء يذكر: وملكات الجمال ما ترى فيهن؟ لقد سرت البدعة إلينا. قلت استمع: كنت في الصيف الماضي ذاهبًا إلى إيران، فعرجت على لبنان أيَّامًا. وبينا أن في «ظهور الشوير»، رأيت الناس يزدحمون ويستبقون إلى بعض الفنادق، وسمت أن هذه الجموع وتلك الوفود تتزاحم، لتشهد اختيار ملكة الجمال في لبنان. قال رفيق لي: قد سرت العدوى إلى البلاد العربيَّة. فقلت غاضبًا: كلا، قال: ألست ترى وتسمع؟ قلت: لا، أكذبك، لست أرى في هذه الأزياء، ولا أسمع في

هذه الرطانات غروبة، فلا تعد هؤلاء من العرب؛ وأرضيت نفسي بهذا الإنكار.

وقرأت منذ أيّام أن ناسًا اجتمعوا في «حمانا» من لبنان، لاختيار امرأة يسمونها ملكة الجمال، وأن قنصل مصر ببيروت رأس هذا الجمع، فأسفت أن شغل القنصل الفاضل نفسه بهذه الترهات، وشارك في هذه المخازي.

وقرأت عن انتخاب آخر في «بكفيا» وحمدت الله، إذ لم أجد في هذا كله اسما يدل على عربيَّة أو إسلام.

وقرأت من بعد في الجرائد عن حماقات كهذه في الإسكندرية، فرأيت الداعين إليها بين صاحب ملهى يريد أن يجذب الناس إليه، وصاحب جريدة غير عربية يبغي رواج جريدته، وأمثال هذين. وبعد قليل رأيت صورة الملكة، وقرأت أحاديث عنها، فعلمت أن فتاة سماها بعض الناس ملكة الجمال في مصر، ولقبوها مس إيجبت «Miss Egypt»، ورشحوها للذهاب إلى بروكسل لتشارك في مباراة الجمال. قلت: مس إيجبت لا تعرفها مصر، فما اهتمامك بجماعة من الحمقى أرادوا أن يشهروا فتاة، أو يشهروا بها، أو يتملقوا إليها أو ينالوا مالًا، أو يجاروا سادتهم في أوربا. ثم تذكرت ما سطرت في أول هذا المقال، تذكرت أن زمام الأخلاق في هذا العصر بأيدي هذه الفئات وأشباهها، وأن هذا الذي نستنكره اليوم، سيصبح، إذا سكتنا عليه، عادة تعد المجادلة فيها ضربًا من الأفن، وفكرت أن مس إيجبت هذه ستذهب إلى أوربا باسم مصر، وتشارك في سوق الرقيق هناك، وتبوء مصر بكل ما في ذلك من عار وحماقة. فرأيت أن الأمر جدير بالاهتمام، وأنه إن سكت عنه عقلاء الأمّة صار سنة، وظن المفسدون، كما تسول لهم مآربهم، أنها سنة حسنة، ينبغي ألا تحرمها مدينة أو قرية. وقد وفدت على مصر من قبل ملكة الجمال في تركيا، فلم يستح بعض الوقحين من طلبة الجامعة، أن يقترحوا الاحتفال بها في نادي الجامعة.

مَن مبلغ عنَّا هذه الفتاة، أنا لا نعرفها ولا نعرف جمالها ولا ملكها، وأن القحة البليغة أن تذهب إلى أوربا مدعية أن مصر أرسلتها، ومصر بريئة منها وممن يرسلونها. ليت شعري أَرَضِيَ المصريون الحكومة والأمة بهذه السبة؟ هل رضوا أن تنوب عنهم على رغم أنوفهم فتاة تذهب إلى بروكسل، زاعمة أن مصر أرسلتها؟

كنت أحسب أن موقف مصر الحاضر بين دولة مستعبدة، ودولة مهددة، سيخرج بطلًا أو بطلة، تهيب بالمصريين ليغسلوا العار، ويحموا الديار، أو يرسلوا وفدًا يدافع عن حقوق مصر عند عصبة الأمم، فإذا السفهاء في شغل عما يحيط بهم، باختيار امرأة يرسلونها إلى بروكسل.

وقد أجاب أهل دمشق داعي العروبة والكرامة والفضيلة، فاجتمعوا حين سمعوا أن امرأة ستذهب إلى سوق الرقيق باسم سورية، واستنكروا ذلك، وأجمعوا على مطالبة الحكومة بأخذ الطريق على هذه السنة السيئة، فأجابت الحكومة دعوة العقلاء ومنعت اجتماع السفهاء لاختيار ملكة للجمال. وفي ذلك للمصريين وغيرهم أسوة حسنة.

سيقول السفهاء: جماعة لا يعرفون الجمال، ولا يقدرونه، ولا يميزون الحسن من القبيح، فهم ساخطون ثائرون، أو جماعة لم يفهموا حضارة أوربا، فهم جهلة متعصبون. والله يعلم أن الجمال يعبد قلوبنا، ويملك مشاعرنا، وتهفو إليه أفئدتنا حيثما يتجلى في السماء أو في الأرض، ولكنا لا نعرف الجمال في الأسواق، يصفق حوله السفاق، ولا نعرف الجمال تسأل فيه الآراء، وتعرض فيه المرأة كما تعرض العجماء!

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المعتصم بن صُمادح (١)
على فراش الموت

الأندلس في أمر مريج؛ زال عنها سلطان الخلافة فاضطربت، وفقدت رواسيها من بني أمية فمادت. وأصحبت كرقعة الشطرنج يتغالب الملوك على كل بيت فيها. كل قويٍّ يحوز ما وسع حوله وهمته، والعيش غلاب؛ «والبر أوسع والدنيا لمن غلبا».

في هذا المعترك ملك محمد بن أحمد بن صمادح التجيبي مدينة «وشقة»، وملك عمه مدينة «سرقسطة»، ثم غلبوه على مدينته.

ثم ملك ابنه معين بن محمد مدينة «ألمرية» غصبها من عبد العزيز بن أبي عامر. وخلفه ابنه أبو يحيى المعتصم بالله وهو في سن الرابعة عشرة.

نشأ المعتصم في ملك ضيق الرقعة، فاستعاض منه سعة الخلق وبعد الهمة، وحلية العلم والأدب، والسخاء الشامل، والجود العمم، حتى طاول المعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف ونافسه، وحتى قال أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حينما لقيهما بالأندلس: «هذان رجلا هذه الجزيرة».

قال ابن خلكان:

«وكان رحب الفناء، جزيل العطاء، حليمًا عن الدماء، طافت به الآمال، واتسع في مدحه المقال، وأُعملت إلى حضرته الرحال، ولزمه جماعة من فحول الشعراء».

---

(١) شوال سنة ١٣٥٢/ يناير سنة ١٩٣٤.

وقال الفتح بن خاقان:

ملك أقام سوق المعارف على ساقها، وأبدع في انتظام مجالسها واتساقها، وأوضح رسمها، وأثبت في جبين أيامه وسمها. لم تخل أيامه من مناظرة، ولا عمرت إلا بمذاكرة أو محاضرة.

وكانت دولته مشرعًا للكرم، ومطلعًا للهمم، فلاحت بها شموس، وارتاحت فيها نفوس، ونفقت فيها أقلام الأعلام، وتدفقت بحار الكلام، وكأجادة ابن عمار وإبداعه، في قوله معتذرًا من وداعه:

أمعتصمًا بالله والحرب ترتمي ... بإبطالها والخيل بالخيل تلتقي
دعتني المطايا للرحيل وإنني ... لأفرق من ذكر النوى والتفرق
وإني إذا غربت عنك فإنما ... جبينك شمسي والمرية مشرقي»

وكان المعتصم كالمعتمد بن عباد، شاعرًا مجيدًا؛ كتب إلى الوزير الشاعر ابن عمار:

وزهدني في الناس معرفتي بهم ... وطول اختباري صاحبًا بعد صاحب
فلم ترني الأيام خلًّا تسرني ... مباديه إلا ساءني في العواقب
ولا قلت أرجوه لدفع ملمة ... من الدهر إلا كان إحدى المصائب

طوى الأمير أربعين عامًا في إمارته، شاع فيها ذكره، ونبه اسمه، وحلب الدهر أشطره، وخبر أحداثه وعبره، ثم حم القضاء.

بعث ابن تاشفين جنوده على ملوك الطوائف، تثل عروشهم، وتعفى على آثارهم، ولقي «رجلا الجزيرة» الصدمات الأولى، فدارت على المعتمد الدائرات، فإذا هو أسير أغمات. وللمعتمد بن عباد قصة ملؤها العبرات والزفرات.

وعلم ابن صُمادح بما أصاب صاحبه، فملكه الغم، وناء به الحزن، وكان أسعد من صاحبه جدًّا، نجاه الموت من الإسار، وأنقذه الحمام من المذلة والعار. ورحم الله أبا الطيب: «رب عيش أخف منه الحمام».

يقول ابن بسام: وكان بين المعتصم وبين الله سريرة، أسلفت له عند الحمام يدًا مشكورة. فمات وليس بينه وبين حلول الفاقرة به، إلا أيام يسيرة، في سلطانه وبلده، وبين أهله وولده».

دع ما نمق الكُتَّاب، وأنشد الشعراء، ودع أربعين عامًا طواها الزمان كأنها أحلام، وانظر المعتصم ليلة الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة- الليلة التي طلع عليها بالردى فجرها.

. ها هو ذا على فراش الموت في قصره بالمرية، ومعسكر ابن تاشفين على مقربة من المدينة ترى خيامه، ويسمع ضوضاؤه.

ويسمع المعتصم وجبة من الجيش اللجب، والجند المصطخب، فيقول كأن لم ينعم بالملك والجاه أربعين عامًا:

لا إله إلا الله! نغص علينا كل شيء حتى الموت.

وقالت أروى إحدى جواريه:

فدمعت عيني، فلا أنسى طرفًا إلي يرفعه، وإنشاده لي بصوت لا أكاد أسمعه:

ترفـــق بــــدمعك لا تفنـــه فبـــين يـــديك بكـــاء طويــــل

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

عثمان بن أبي العلاء

الرجل الذي غزا الأسبان اثنتين وثلاثين وسبعمائة غزوة

١

ملك بني مرين يعم المغرب الأقصى، ويرث دولة الموحدين. وهذا سلطانهم السادس يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (٦٨٥-٧٠٦هـ) يسير الجحافل لتمكين ملكه، ولكن جماعة من بني مرين حسدوا بني عمومتهم على السلطان، ونفسوا عليهم الرياسة، وزعموا أنهم أحق منهم بميراث عبد الحق، فثاروا على السلطان يوسف، واعتصموا بجبال ورغة، فأنزلهم السلطان من صياصيهم، وألحمهم السف. فأشفق أعياص بني مرين على أنفسهم، ولحقوا ببني الأحمر بالأندلس سنة ست وثمانين وستمائة، ثم رجع إلى المغرب بعد سنين أحدهم، عثمان بن أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق، لينازع بني عمه السلطان، فثار في جبال غمارة، فاشتملت عليها ناره، واستطارت منها ثورته، فعمت بلادًا كثيرًا، ولجأ إليه كل مخالف من بني مرين وغيرهم، ومات يوسف، وعثمان في ثورته، فخلفه ابنه أبو ثابت (٧٠٦- ٧٠٨) فسير الجحافل إلى عثمان، فهزمهم، ومد على الرغم أبي ثابت سلطانه إلى بلاد أخرى، فنهض أبو ثابت نفسه في جنود لا قبل لعثمان بها، فخلى البلاد، واعتصم بسبتة وهي يومئذ في قبضة بني الأحمر.

ومات أبو ثابت، فخلفه أخوه الربيع سنة ثمان وسبعمائة، واصطلح بنو مرين وبنو الأحمر، فضاق المغرب على عثمان بن أبي الغلاء، فولى وجهه شطر الأندلس فيمن تبعه من قرابته.

٢

لم يكن للمسلمين في الأندلس إلا مملكة غرناطة الضيِّقة، وقد ألح العدو عليها، وصمم على محوها. واستماتت في الدفاع عنها المسلمون، إذ كانت الملجأ الأخير، والوزر الذي ليس وراءه إلا الموت أو الاستعباد. وكان بنو مرين يرسلون جيوشهم مددًا لبني الأحمر حينًا، ويسيرون إلى الجهاد بأنفسهم حينًا. وكان أولو النجدة والصرامة. كابن أبي العلاء، يفدون على الأندلس مجاهدين مرابطين، غضبًا لدينهم، وحميَّة لإخوانهم.

٣

جاء عثمان الأندلس، فتولى «مشيخة الغزاة» وحسن بلاؤه، وعظمت مكانته، فكان شجًا في حلوق الأسبان، وكان غُصَّة لبني الأحمر، شاركهم في سؤددهم، حتى كاد يستأثر بالأمر دونهم، وهو من قبل خصم قومه ملوك المغرب، ثار عليهم وزلزل دولتهم زمانًا.

لم يكن عثمان ملكًا ولكنَّه:

كان من نفسه الكبيرة في جيشٍ ... ومن كبرياه في سلطان

تولى زعامة الغزاة ثلاثًا وعشرين سنة، وفما وهن عزمه، ولا فل حده، ولا أغمد سيفه، ولا حط سرجه.

وما كان إلا النار في كل موضع ... تثير غبارًا في مكان دخان

والنفس الكبيرة تستهين بالصعاب، وتطرق على المنايا الأبواب. وما الجيوش

الجرارة، والحروب المستعرة في همة الرجل العظيم إذا صمم:

فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها: من تحت أخمصك الحشر

وحسبي من الإفاضة في وصف عثمان والإشادة بذكره، أن أنقل هنا ما كتبه أصحابه الغزاة على قبره:

«هذا قبر شيخ الغزاة، وصدر الأبطال والحماة، واحد الجلالة، ليث الأقدام والبسالة، علم الأعلام، حامي ذماز الإسلام، صاب الكتائب المنصورة، والأفعال المشهورة، والمغازي المسطورة، إمام الصفوف، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف، سيف الجهاد، قاصم الأنجاد، وأسد الآساد، العالي الهمم، الثابت القدم، الهمام الماجد الأرضي، البطل الباسل الأمضى، المقدس المرحوم، أبي سعيد عثمان، ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير، الأصيل الشهير، المقدس المرحوم، أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحق، كان عمره ثمانيًا وثمانين سنة، أنفقه ما بين روحة في سبيل الله وغدوة، حتى استوفى في المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة. وقطع عمره مجاهدًا مجتهدًا في طاعة الرب، محتسبًا في إدارة الحرب، ماضي العزائم في جهاد الكفار، مصادمًا بين جموعهم تدفق التيار، وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار، ما سار ذكره في الأقطار، أشهر من المثل السيار، حتى توفي رحمه الله وغبار الجهاد طي أثوابه، وهو مراقب لطاغية الكفر وأحزابه. فمات على ما عاش عليه، وفي ملحمة الجهاد قبضه الله إليه، واستأثر به سعيدًا مرتضى، وسيفه على رأس ملك الروم منتضي، مقدمة قبول وإسعاد، ونتيجة جهاد وجلاد، ودليلًا على نيَّته الصالحة، وتجارته الرابحة، فارتجت الأندلس لبعده، أتحفه الله برحمة من عنده.

توفي يوم الأحد الثاني لذي الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة رحمه الله.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مدنيَّة زائفة (١)

قال صاحبي، وأنا أسايره في شارع الحافة (الكورنيش) من الإسكندرية ليلة من ليالي الصيف: «ما أجمل هذه المدينة» انظر هذا المهيع الممهد، ما بين رأس التين والمنتزه، مشرفًا على لجة يمعن فيها البصر والفكر إلى غير غاية. وانظر هذه الأبنية الهائلة الشامخة، تزحم السحاب بذراها، وتقابل السماء بمثل نجومها، وتنسج على الأمواج أشعتها، وتزيد الأضواء بهجتها. وتأمل هذا العقد من المصابيح الكبيرة، يطوق هذا الخليج الجميل، والسيارات تطوي الأرض ذات اليمين وذات الشمال، فيها المصطافون قد أخذوا من الحياة متعتها، واهتبلوا من الأيام فرصتها، وألحان الموسيقى تتدفق من هذه الأندية والمراقص، فتموج في الهواء، حتى تختلط بأمواج الدأماء. وهذا البحر الزاخر من الناس، والمحافل المزدحمة بشتى الأجناس، يحوطها النظام، ويهيمن عليها القانون والسلطان، ويرقبها الشرط والعسس، كل آخذ بحقه، مأخوذ بعدوانه. يا أخي لقد استبحر العمران، وشمل الناسَ الأمان، وأمكنهم العيش السعيد، وأسلس لهم الزمان العصا، وأطلعت لهم المدنية من النعيم ألوانًا، وأنبتت لهم من اللذات أفنانًا، يا أخي إنها لمدنية.

ثم صمت صاحبي، ومال بنا المسير حتى ملنا ذات الشمال إلى محطة الرمل، فمررنا بباب القنصلية الإيطالية، فرأيت بجانب الجدار شبحين ضئيلين، فاقتربت أنعم النظر فيهما، فإذا طفلان نائمان، جلس أحدهما القرفصاء واعتمد بجانبه على الجدار، وتمدد الآخر على الأرض، عُرضة لأقدام السابلة. قلت: وارحمتاه! طفلان شريدان ألجأهما الشقاء إلى هذا الجدار! ويعلم الله ما بهما من السغَب والنصب، وما

(١) ٢٢ رمضان سنة ١٣٥٢/ يناير سنة ١٩٣٤.

لقيا في يومهما وأمسهما، وما يلقيان في غدهما. قال صاحبي: لا تعجب، فأمثال هذين كثير، يعثر بهم السائر حيثما ذهب، فانقلب الأسى في نفسي غضبًا على صاحبي. قلت: «أرأيتك مدنيتك هذه العظيمة، وطرقها المعبَّدة، وقصورها الشاهقة، ومصابيحها المتلألئة، وسياراتها الخاطفة، ومراقصها اللاهية، وأنديتها الحافلة! أرأيتك القانون والسلطان، والشرطة والعسس والنظام، وهذا العمران المتبحر، والسعادة التي شملت الناس، وألوان النعيم التي طلعت بها المدنية، والعيش الخفض، والزمان المواتي، ومدنيتك الرائعة الفاتنة، أليس في هذه المدنية العظيمة لهذين الطفلين سعة؟! أليس في هذا العمران لهذين الطفلين مأوى؟! أليس في هذه القوانين لهذين الطفلين حماية؟! أليس في هذا النظام لهذين الطفلين موضع؟! أليس في هذه القلوب لهذين الطفلين رحمة. يا صاحبي، حسبك حسبك، لا تحدثني عن المدنية ونعيمها، لا تخدعني بالمدنية وقوانينها، إنها لمدنية زائفة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشعر والشاعر[1]

هو وجي في شعاع القمر — يملأ القلب ضياء وسلاما
أو حديث في حفيف الشجر — أفشت الريح له سرًّا فهاما
أو بكاء في حنين الوتر — ملأ الأنفس وجدًا وغراما
هو طلُّ الفجر فوق الزهر — يملأ الروض دموعًا وابتساما
ثم يبدو مثل قدح الشرر — بين خفق القلب والهم صداما
أو تراه كالوصايا العشر[2] — بين ومض البرق والرعد كلاما
ذلك الشعر إذا ما ترجما — عن خفايا وحيه اللفظ المبين
رب شعر وحيه قد كتما — أبلغ الأشعار ما لا يستبين

* * *

يخلق الشاعر خلقًا آخرا — من خيال حائر فيه المدى
يجعل الليل غرابًا طائرا — خاف نسر الصبح لما أن غدا
ويرى النجم شريدًا حائرًا — هام يبغي في الدياجي موردًا
ويضيق الناس عنه ثائرًا — فيرى القصة خلقًا مسعدا
يبرأ الأبطال فيها ساحرا — فتراهم في البرايا خلدا
مثلًا في البر يبقى سائرًا — أو حليف اللعين يبقى أبدًا

---

(١) الاثنين أول رمضان سنة ١٣٥٢هـ/ ١٨ ديسمبر سنة ١٩٣٣م.

(٢) يروى أن وصايا موسى الكليم أوحيت إليه في جو مبرق مرعد.

كم هدى الشاعر قبلا أمما ودعا فيها إلى العز المكين
وبنى للمجد فيهم سلما فاستقاموا للمعالي صاعدين

* * *

وجه من يهواه روض ناضر ألفت فيه من السحر معاني
ومن الطرة ليل كافر ضللت فيه دموع وأماني
دولة الحسن عليها ساهر نابل من طرفه والحاجبان
ومن الهجر جحيم ساجر ومن الوصل فراديس الجنان
غضبة الشاعر ليل زافر جلل الأرض بنار ودخان
ورضا الشاعر صبح سافر ملأ الأرض بنور وأمان
يصبغ العالم ما شاء كما لعبت باللون أيدي الراسمين
فإذا شاء أراه مأتما وإذا شاء فعُرس الفرحين

* * *

ويلف السحب من نيرانها في إهاب الغيظ والحقد الكمين
ويسل البرق من أجفانها سيف ثأر مصلتًا للظالمين
ويقود المزن من أرسانها بيد الريح شمال أو يمين
ويعد الرعد من تحنانها حين يروي الأرض بالغيث الهتون
أو يرى فيه صدى طغيانها رددته رهبة للسامعين
ويقيم الطير في أفنانها شاديات باكيات كل حين

ويـــرى النهـــر دموعًـــا ودمًـــا في عـــراك الـــدهر والقلـــب الحـــزين .
أو يـــرى الـــصفحة سردًا محكـــمًا نـــسجته الـــريح بـــين الناســـجين

* * *

ويـــرى الـــورد ضـــحوكًا طربـــا إذ تحليـــه مـــن الطـــل درر
فـــإذا الـــورد ذوي واكتأبـــا حـــسب الطـــل هـــو الـــدمع انتثـــر
ويـــرى البانـــة قـــدا معجبـــا مـــاس في الـــروض دلالا وخطـــر
ويـــرى الجـــدول صـــلا هاربـــا في ظـــلال الايـــك أعيـــاه الـــوزر
ويظـــن الـــريح دارت لعبـــا في ذرى الأشـــجار تلهـــو بـــالطرر
ويخـــال الطـــير غنـــى مطربًـــا يقـــرأ الحـــسن بـــصفحات الزهـــر
ضـــاق هـــذا العـــيش إلا حلـــمًا راقٍ في الأحـــزان نـــوم البائـــسين
تـــضحك الآمـــال فيـــه كلـــما أبكـــت الآلام عـــيش الكـــادحين

* * *

صـــاح والـــشاعرُ في نظراتـــه يخـــرق الـــستر إلى سرِّ الـــضمير
فـــيرى الآمـــال في طياتـــه ودبيـــب الحـــزنْ فيـــه والـــسرور
يكـــشف المحـــزون عـــن أناتـــهُ ويـــراه النـــاس في ثـــوب الحبـــور
ويجـــلي الحـــب عـــن ســـوءاته وجميـــع النـــاس منـــه في غـــرور
ويـــرى المحـــسن في هالاتـــه حـــين يخفـــى فـــضله كـــل كفـــور
فـــشعاع الـــشعر في ومـــضاته كاشـــف للنـــاس عـــن ذات الـــصدور

يقـــرأ الـــشاعر مـــا قـــد أبهـــا		في ضـــمير الـــدهر آلاف الـــسنين
ويـــرى الغائـــبَ مـــشهودا كـــما		بَـــصُر الهدهـــد بالمـــاء المعـــين
يجهـــد الـــشاعر طـــول العمـــر		فـــيرى الآمـــال يأســـا ومحـــالا
فـــــتراه مثـــــل بـــــازٍ صرصر		مـــلأ اللـــوح صـــياحات وصـــيالا
أو تـــــراه مثـــــل ليـــــث هـــــصر		عـــضَّ في الأسر قيـــودًا وحبـــالا
ثـــم يلهـــو بجـــمال الزهـــر		كاتمًـــا في الـــصدر غـــمًّا ووبـــالا
فـــــتراه عنـــــدليب الـــــشجر		واصـــفًا في الـــروض حـــسنًا وجمـــالا
أو تـــــراه كحـــــمام هـــــدر		رتـــل الحـــزن نـــشيدا فأطـــالا
صـــاح مـــا الـــشعر ســـبيلا أنمـــا		هـــو صـــهر القلـــب في نـــار الـــشجون
صـــاح مـــا الـــشعر كلامًـــا، إنـــما		هـــو ذوب الـــنفس أو مـــاء العيـــون

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

لم لا تقول الشعر؟[١]

كتبت إلى أيّها العم الكريم [٢] تسألني لماذا صمت بعد تغريد، ونضبت بعد فيض، وسكنت بعد المرح، واكتأبت بعد الفرح؟ وما هذا الوجوم والإطراق، بعد التهلل والإشراق؟ أين قلبك الهدار، وقلمك المكثار؟ وأين شعرك الشاعر، ونظمك الساحر؟ ليت شعري وقد أمكنك القول لمَ لا تقول الشعر؟

١

يا سيدي، بماذا أجيبك؟ لقيتُ الحياة مبتسمًا، ونشأتُ مترنمًا؛ أطالع تباشير الصباح مرحًا كالأطيار، مترنحًا مع الأشجار، تروقني ألوان الأفق، وظلمات الغسق، وتدهشني طلعة ذكاء، في موكب الضياء، أراقب الأضواء، في الإصباح والإمساء، وأساير الظلال، بالغدو والآصال، وأخلو إلى القمر أشرب ضياءه، وأحس في نفسي صفاءه، وأقول:

البر والبحر ذوب من سنا قمر ... تردد الطرف فيه فهو حيران

وأتأمل الأزهار في شعاعه، وأقبّل الورد في لألائه. وأساير النيل أجري مع مائه، وأضطرب مع أمواجه، وأقف على البحر فرحا بآذيه المهتاج، معجبا بسلاسل الأمواج، أرقب العراك المتواصل، بين والماء والساحل.

(١) الأحد ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٣هـ/ أول أكتوبر سنة ١٩٣٣م.

(٢) كتب عبد الرحمن باشا عزام يسألني لمَ لا تقول الشعر كما عهدتك؟ فأجبته بهذه الكلمة.

وكم طربت لزقزقة العصافير في نور الصباح، وتنزيها على متون الرياح، وضحكت لبكور الغراب، سابحا في الضباب.

وكم فتنني الوجه الجميل، والخلق النبيل، فقلت:

في كل حسن أرى سرًّا يجاذبني نفسي ومالي بهذا السر عرفان

أرى الجمال، فتطبعه زجاجة العين على صفحة القلب، فإذا هو على لساني وقلمي: فأنطلق قائلًا معجبًا، ومنشدًا مطربًا.

وكل شيء يبعث الأمل، ويحدو إلى العمل، وكأن القضاء طوع الخيال وليس في الدنيا محال، وكأن الإنسان يستطيع أن ينحت الجبال بقلمه، وينزف البحر بفمه، والمستقبل وضاء، وكل ما في العالم ضياء.

٢

ثم نفذ الفكر إلى ما وراء الظاهر، وتطلع إلى ما في السرائر، وجاوز القشر إلى اللُّب، وخاض الضحضاح إلى العباب، وكشف المجاز عن الحقيقة، وطالع ضمائر الخليقة، فانبهم العالم واستعجم، فإذا كل شيء مبهم، فالفكر فيما وراء الحجب جائل، وكل سرٍّ هنالك هائل، والضوء هنالك ضباب، والبصر حجاب.

امَّحت الأشكال، وخفيت الألوان، وعيت الريشة في يد الراسم، وخار القلم في يد الشاعر، وبهت المنطق دون البيان، وجمد اللفظ على اللسان، ويبقى السبر المحجب، آبيا على كل مطلب، أو يبص من الحقيقة حاجب يتسع عن ضيق الألحان، ويكبر على سلاسل القوافي والأوزان.

ورحم الله الشاعر سنائيا إذ يقول: «رجعت عمّا قلت، إذ ليس وراء الألفاظ معان، وليس لما ندرك من المعاني ألفاظ»[١].

أهم بالمعنى الصغير، فإذا هو حلقة في سلسلة، وطريق إلى كل معضلة، وجزء من كل حقيقة هائلة.

وأحاول الأمواج، فتنفتح عن الأعماق، فيضل الفكر، وتزيغ الأحداق؛ وأعالج حمرة الشفق، فإذا وراءها خبيئات الأفق، وإذا الأفق صلة الأرض والسماء، وملتقى الظلام والضياء. وكيف بما هناك من حقائق، كيف بما استتر من أسرار الخالق؟

وأهم بالكلام عن الحيوان، فإذا أنا في لجّة الحياة، وهي السر العجاب، سلسلة وسطها فوق الأرض وطرفاها في التراب.

وأريد أن أصف الذرة، فإذا هي والشمس سواء، باهرة الحقيقة، رائعة الضياء. انظر إلى الصغير فيكبر، واقصد إلى الآنس فينفر، وأعمد إلى الواضح فينبهم، وإلى المعرب فيستعجم.

والأمل تكسرت أمواجه على صخور الحقائق، وضل سرابه في فسيح السمالق.

هأنذا على ساحل المحيط الأعظم، حائر الطرف بين اللجة والشاطئ، مقسم الفكر بين الظاهر والباطن. ولست أدري أأبقي صامتًا مبهوتًا، أم أهجم على الأهوال، وأغوص في الأعماق، مبينًا عن عرفاني وجهلي، وإدراكي وعجزي، أم أرجع إلى العهد القديم أصف الألوان والأشكال، والضياء والظلال.

---

(١)
باز گشتم زانكه گفتم زانكه نيست   در سختي معنى ودر معنى سخن

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أوراق ماليَّة (١)
في القرن السابع الهجري

كيخاتو بن أباقاخان بن هلاكو، خامس ملوك المغول المسمّين أيلخانية، كان كما يقول مؤلف «حبيب السير» أسخى بنى هلاكو؛ كان يفيض جودا في موائده، ولا يقف به حدٌ في الإسراف واللهو.

وقد اختار لوزارته صدر الدين الزنجاني المعروف بصدرجهان. ولم يكن الوزير مخالفًا مولاه في التبذير، فخلت الخزائن، واشتدت الحاجة إلى المحال، وضاق بالملك الأمر، فبدا للوزير أن يأخذ عن أهل الصين سنة كانت معروفة عندهم في ذلك العصر، هي التعامل بأوراق تغني غناء الحجرين الكريمين، أو المعدنين النفيسين: الذهب والفضة. وليس الفرق بين الورق والورق ذا خطر.

أمر الوزير بطبع أوراق للتعامل سميت «جاو»، وأنشأ في كل ناحية دارًا لطبع الأوراق سميت «جاوخانة» وشرع قانونًا يحتم على الناس الإقلال من تداول الذهب والفضة جهد الطاقة.

وكانت الأوراق كما وصفها رشيد الدين الشيرازي في تاريخه المعروف بتاريخ «وصاف» والمؤرخون المعاصرون على هذا الشكل:

ورقة مستطيلة، عليها كلمات صينيَّة، وفوقها باللغة العربية كلمة الإسلام: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» اتباعًا للمألوف في المسكوكات الإسلامية، وتحت هذا

(١) الثلاثاء ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٥٢هـ/ ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٣.

اسم الكاتب، ودائرة كتب فيها قيمة الورقة. وكانت القيمة تختلف من نصف درهم إلى عشرة دنانير. ومما كتب على هذه الأوراق هذه الكلمات الهائلة: أصدر ملك العالم هذه الجاو المباركة سنة ٦٩٣هـ، فمن غيرها أو محاها يقتل هو زوجه وأولاده، ويصادر ماله.

وأرسلت إلى المدن منشورات تبين فوائد التعامل بهذه الأوراق، وتبشر الناس أن الفقر والبؤس سيزولان لا محالة، إن دام التعامل بها. ومما جاء في هذه المنشورات هذا البيت:

چاو أكرد رجهان روان كردد　　　رونق ملك چاودان كردد

وترجمته: «إذا راجت في العالم الجاو، دام روقن الملك أبدًا».

ومما جاء في قانون هذه الأوراق أن الورقة التي تمزق أو تبلى، ترد إلى الجاوخانة، ويعطى صاحبها ورقة أخرى تنقص عنها عشر القيمة.

ثار الناس على هذه الأوراق، يروى أنه جعل موعد تداولها في مدينة تبريز شهر ذي القعدة سنة ٦٩٣هـ، فلما جاء الموعد أقفلت الحوانيت ثلاثة أيَّام، ووقفت الأعمال، وأبى الناس أن يقبلوا «الجاو المباركة».

وكان أعظم رجال الدولة نصيبًا من سخط الناس وبغضهم، عز الدين المظفر، الذي وكل إليه إخراج الأوراق والقيام عليها. ومما قيل فيه:

توعز ديني وظل جهاني　　　جهانرا هستيء تونيست درخور
أزان كبر ومسلمان ويهودى　　　بس أز توحيد حق والله أكبر
همى خوانند أزروى تضرع　　　بنزد حضرت دارى اداور
خدايا برمدراد خويش هركز　　　مبادا درجهان يكدم مظفر

وترجمتها: «أنت عز الدين وظل العالم، ولكن بقاءك شر على العالم، من أجل ذلك ترى المسلمين واليهود والمجوس بعد توحيد الله وتكبيره، يتضرعون إلى الحكم العدل: ربَّنا لا تجعله ساعة واحدة مظفرًا بمراده».

انتشرت الثورة في مدن كثيرة، حتى ذهب كبراء المغول إلى السلطان «كيخاتو»، فكلموه في أمر هذه الأوراق البغيضة، حتى رضي بإلغائها.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

قبر مفقود (١)

قال صاحبي، ونحن نؤم مسجد النبي دانيال في الإسكندرية: هذا هو المسجد. فولجنا إلى الفناء، فإذا جماعة من السؤال جالسين إلى الجدار، كأنهم موتى أعوزتهم القبور. ثم قال صاحبي: وهذا البناء مقبرة. فملنا ذات اليمين إلى رجل بالباب، عرفنا من موقفه وأوامره أنه قيم المقبرة.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. هل من حاجة؟

- يا سيدي، شاعر من شعراء الترك ووزير من وزرائهم، اسمه عاكف باشا، قدم إلى مصر أيام محمد علي باشا، ومات بهذه المدينة، ودفن بجوار النبي دانيال، فهل تعرف عن قبره خبرا؟

- أكان وزيرًا في مصر؟

- كلا، لكنَّه مر بمصر حاجًّا، ثم عاد إليه بعد الحج، فمات بالإسكندرية.

- هٰذه مقبرة لأسرة الأمير عمر، يا محمد! اذهب معهما إلى المقبرة القديمة، أليست مفتوحة؟

- لا يا سيدي، ولكن فتحها يسير، فهناك إبراهيم.

(١) الإسكندرية جمادى الأولى سنة ١٣٥٢/ أغسطس ١٩٣٣.

سرنا وراء الرجل يسلك بنا في فناء المسجد، حتى انتهى إلى زقاق ضيق، يفضي إلى باب مرتفع، فنادة إبراهيم، وكلمه، فجاء يحمل المفتاح، وتقدم نحو الباب ففتحه، ثم ألقى خشبة ضخمة على كوم من الحطب أمام الباب، فارتقى عليها، ودخل فاتبعناه.

سور قصير يحيط بعرصة واسعة، فيها ارتفاع وانخفاض، وأكوام من التراب، وأكداس من الأحجار، يبدو بداخلها قبران إلى اليمين عليهما نصبان من الرخام. وإذا أنعم الباحث النظر، تبين قبرين دارسين، أو ثلاثة في أرجاء أخرى.

قال إبراهيم: ليس هنا إلا القبران اللذان ترى. فتأملت كتابة تركية، وقرأت ما في سطور الفناء من عظات وتواريخ وأسماء، فإذا اسمان آخران، ودفينان مضى عليهما زهاء ثمانين عامًا. وجلت في أرجاء المقبرة، فرأيت قبرًا عليه نصب واقع، يتضمن اسمًا آخر. ثم مررت بقبر لانصب عليه، وبنصب لا قبر له؛ بطشت يد الزمان العسراء، ببقايا الفناء!

تتخلف الآثار عن أصحابها . حينًا ويدركها الفناء فتتبع

لبثت حينًا أسائل القبور والأحجار فلم تحر عن الشاعر جوابًا. فرجعت إلى إبراهيم فقال: كانت هذه الأرض كلها قبورا، فذهب بها الحفر. قلت أي حفر؟ قال: قلبوا الأرض يفتشون عن قبر الإسكندر، فقد أخرجوا ما ضمنته الأرض من أحجار وعظام إلى عشرين ذراعا، فلم يظفروا بشيء. قلت إنها لتعزية؛ إن فقدنا قبر شاعرنا، فقد ضل في ثنايا الأرض وظلمات التاريخ، قبر الملك العظيم الفاتح، الإسكندر بن فليب. إنها لتعزية!

رجعنا إلى صاحبنا الذي أشار بالذهاب إلى المقبرة القديمة، فقال:

- هل عثرتم على القبر المنشود؟

- لا، رأينا قبورًا قليلة، وقرأنا ما وجدنا من أنصاب، فلم نجد قبر عاكف باشا.

هنا مقبرة سعيد باشا؛ أيمكن أن يكون قبره فيها؟

ليس بعيدًا، فقد حدث التاريخ أن محمد علي باشا أحسن وفادته، وبالغ في الحفاوة به. فليس عجيبًا أن يكون قد أمر بدفنه بين قبور الأمراء.

- يا فلان -قيم مقبرة سعيد باشا وكان بجانبه- ادخل بهما لعلهما يجدان القبر، فأحسبني رأيت هذا الاسم على بعض القبور.

- عندي أوراق فيها أسماء القبور كلها، فتفضلا معي.

ودخل إلى بهو به مكتب، فأخرج ورقتين فيهما أسماء معظمة لأمراء وأميرات، أسماء كانت عناوين حياة حافلة بالأبهة والرفاهية، مملوءة بخطوب الزمان، ونوب الأيام، وما هي الآن إلا أسماء قبور.

ما وجدت «عاكف باشا» بين الأسماء، فشكرت للرجلين وانصرفت.

قال صاحبي: لم تعثر عليه.

قلت: أجل، ولكني أعلم أنه في باطن الأرض.. فإن لم يكن بد لشاعرنا من قبر، فهب الأرض كلها قبره. يا أخي، إنما يخلد الناس بالآثار، لا بهذه الأحجار، وقد صدق جلال الدين الرومي إذ قال:

فلا تطلبن في الأرض قبري فإنما صدور الرجال العارفين مزاري[1].

---

(١)

بعد أزوفات تربت ما درزمين مجوى درسينه هاى مردم عارف مزارماست

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

جلال الدين منكبرتي [(١)(٢)]

١

سارت جيوش التتار، تقذف بالموت والدمار. {فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون}. خرَّت المدائن لصولتهم، فأسروا وقتَّلوا؛ ثم سلطوا الماء والنار فأخربوا ودمروا، وانطلقوا في جحافل من السيوف والسهام، والنار والدخان، والدماء، والماء والهول والفزع.

وعلاء الدين ملك خوارزم قد أوقد النار ولم يستطع إطفاءها، وفتح باب الشر ولم يقدر على إغلاقه. لم يُغن جنده ولم تثبت عزيمته. فما زال يهجر المدينة بعد المدينة، حتى اعتصم بجزيرة في بحر الخزر، فهلك بها.

٢

ورث جلال الدين مُلك أبيه. وإنما ورث الضِّراب والطعان، وعرشًا في أشداق المنون تُخاض إليه الأهوال، وتقطع دونه الآمال. لقد ذهب المُلك وعلاء الدين معًا، وورث جلال الدين دَين أبيه، من الكفاح والنضال، وورث القتال الحاضر، والملك الغابر.

---

(١) ٢٠ ذو الحجة سنة ١٣٥١/ ١٥ أبريل سنة ١٩٣٣م.

(٢) جلال الدين خوارزم شاه بن محمد علاء الدين، السابع من ملوك الدولة الخزارزمية. تولى الملك بعد أبيه سنة ٥٨٠ وقتل سنة ٦٢٨هـ.

هلم جلال الدين! ادفع عن رعيتك ما لا يُدفع، واختر لنفسك وليس في الشر خيار.

همـــا خُطَّتـــا إمـــا إســـار وذلـــة وإمَّـــا دم، والقتـــل بـــالحر أجـــدر

تحفز البطل تحفُّز الأسد، وتقهقر ليثب؛ ولكن المغول كانوا في إثره حيثما سار، يطوون وراءه الليل والنهار، حتى خرج من ملكه، وقارب الهند. وهنالك صف جلال جنده، وهم:

عـــصابة لـــيس لهـــم ديـــار إلا ظهـــور الخيـــل والغبـــار

فهزم عدوه الجبار في ست معارك.

يلقـــى المنيـــة في أمثـــال عُـــدَّتها كالليـل يقـذف جلمـودا بجلمـود

ولكن طوفان المغول أعظم من أن تثبت فيه صمُّ الجلاميد، أو يُغنى فيه العزم المرير والبأس الشديد.

ذلك جلال الدين على نهر السند، وأولئكم المغول على النهر يكُرُّ عليهم كالأسد المحرَج، ويصْدقهم القتال من الفجر إلى الظهيرة، يموت في يمينه الحسام بعد الحسام، وينفق تحت عزائمه الجواد بعد الجواد. فلما سُدَّت على العزائم سبل النصر، وضاقت بالمجال حِيَلِ الأبطال، حمل على عدوه فحطمه، ثم انثنى إلى النهر فاقتحمه، والموت خزيان ينظر. تلك لجة النهر تموج بجلال الدين وجنوده، وفوقهم من سهام المغول وابل منهمر. وفي الهمم القعساء، تستوي الغبراء والدأماء. أعجب الأعداء بهؤلاء الأبطال، فوقفوا معجبين ينظرون.

غرق معظم الجند، وخرج البطل ببقايا القتل والغرق، ليلقى بهم عدوًّا آخر؛ فهذا «جودى» أحد أمراء الهند يغير على البطل المرزأ، لينفيه عن أرضه. وهذا جلال

الدين على العِلات يصمد للمغير فيهزمه.

ثم جاء مدد من جنوده، فتقدم في أرض الهند، وأقام بها حيث شاء، على رغم «قراجة» أمير السند، وإيلتتمِش أمي دِهلى اللذين تحالفا وحالفا عليه الدهر.

وما جهد هذا الدهر إلا هزيمة إذا نازلت عزم الكرام كتائبه

٣

أتحسب جلال الدين بلغ من الجهد غايته، ومن الجلد نهايته، وقد أعذر إلى المجد والملك والرعية؟ أتحسبه، وقد فقد ملكه جميعه، وهزم في أرض غريبة، تبلد يطلب في فجاج الأرض مفرًّا، أو يلتمس في زواياها مستقرًّا؟ كلا! إنه فقد ملكه ولم يفقد رجاءه، ولا عزمه ولا إباءه. إن له ملكًا وإن يكن في يد العدو الجبار، وإن له عرشًا وإن يكن في ذمَّة الزمان الغدار. إن أمامه في عراك الخطوب ثماني حجج، تطير فيها بين المشرق والمغرب همته، وتنقله من حرب إلى حرب صرامته، ويسلمه من مصيبة إلى مصيبة حظه.

يشق بين الأهوال طريقه إلى كرمان ففارس فأصفهان فالرَّي. ثم يصمد للخليفة العباسي الناصر، فيهزم جنده، ويقتل قائده، ويسوق المنهزمين إلى أسوار بغداد.

ثم يستولي على تبريز، ويجعلها عاصمة ملكه، ويغير على الكرج، فيزيد في أعدائه؛ كأن أعداءه ليسوا أكفاء نضاله. وبينما هو في تفليس جاءه نبأ هائل، وناهيك بخيانة الأعوان، في حومة الطعان. أنبئ أن براقًا الحاجب واليَ كرمان قد مالأ المغول. فيبادر من تفليس إلى كرمان، ليأخذه بخيانته. ثم يرتد من كرمان إلى الشمال، ليحارب التركمان والملاحدة، فيهزمهم ويجزيهم بما اقترفوا في غيبته. وينشرق تلقاء

دامغان، ليهزم جيشًا من المغول. ويرجع إلى الغرب حين يعلم أن الكرج تألبوا عله، فيلتقي الجمعان، وتأبى على جلال الدين شجاعته ومضاؤه إلا أن يبارز أبطال الكرج، وقد قتل أربعة من صناديدهم ولاءً، ثم حمل على الكرج؛ فهزمهم أجمعين.

٤

هذه سنة سبع وعشرين وستمائة وجلال الدين يعمل ليؤلف بين أمراء المسلمين، ويضرب بهم هذا العدو المدمر، فلا يمهله عدوه، فيباغته ثلاثون ألفًا من المغول، فينهزم أمامهم، ولكن ليستولي على مدينة كنَجة.

عشر سنين نازل فيها جلال الدين منكبرتي أحداث الزمان مجتمعة، وغلب فيها جهد الأعداء، وخيانة الأصدقاء، وجالد عدو المسلمين، وخليفة المسلمين، وحارب المغول، والتركمان والملاحدة والكرج.

أرأيت جلال الدين نجما يدور به فلك من الخطوب بين المشرق والمغرب؟ أعلمت أن الرجل العظيم يخلق أحداث التاريخ، ولا ينقاد لها. إن يكن ما يروى عن جلال الدين مستحيلًا، فكم بين حقائق التاريخ من مستحيل.

غياث الدين أخو جلال الدين يمالئ الأعداء أيضًا. فانظر إلى البطل العظيم عام ثمان وعشرين وستمائة وقد اجتمع عليه الأعداء، وخانه الأخوة والأصدقاء، وناء بقلبه خذلان أعوانه، لا بطش أقرانه. ها هو ذا مكتئبًا حزينًا مشردًا، يسير في قرى الكرد، ولعله يحاول أن يخلق من عزمه جندًا وحربًا وانتصارًا وملكًا. ولكن رجلًا من الكرد باغته ففتك به:

أتتـــه المنايـــا في طريـــق خفيـــة . عـــلى كـــل سـمع حولـــه وعيـــان

ولـو سـلكتْ طـرق الـسلاح لردهـا بطـــول يمـــين واتـــساع جنـــان

ولكن النفسَ العظيمة التي ملأت العدو والصديق هيبة وإعجابًا، لا تموت بموت الجسد؛ فقد أكبر الناس أن يموت البطل الذي غلب الموت في كل معترك فبقوا أكثر من عشرين عامًا يتحدثون أن بطلهم حي، وأنه ظهر في هذا المكان أو ذاك. بل حاول بعض الناس أن يلبسوا عظمته، ويحملوا اسمه، فناءوا بالعبء، فأخذهم المغول بغير عناء..

يا شباب الشرق! قلبوا صفحات مجدكم؛ فإن أعظم المصائب أن تمحى ذكرى الآباء من صدور الأبناء، وإن لكم في جلال الدين لعبرة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إسكندر يقتل صديقه (١)

إسكندر العظيم يثبت عرشه وسلطانه وهيبته وكبرياءه في مقدونية واليونان، ثم يتوجه تلقاء آسيا.

الفريقان من اليونان والفرس يلتقيان على نهر «كرانيكوس» الصغير، عام أربع وثلاثين وثلاثمائة، فيتاح لإسكندر أول فتح في آسيا، ثم تخضع له المدائن حتى سرديس؛ فقد دانت له آسيا الصغرى كلها.

ثم يتقدم صوب الجنوب. فيجتاز جبال طوروس ويسير تلقاء الشام. وإذا جيش دارا، الجيش اللهام الذي لا يغلب من قلة، رابض في طريقه. وفي سهل إسوس الضيق بين الجبال والبحر، تزدحم مئات الألوف للحرب، ويسقط في البحار مائة ألف من الفرس، ويفر دارا، وينهب معسكره، وتؤسر أمه وزوجه وابنتاه. فانظر إلى الإسكندر قد قهر «الملك الأعظم» ملك الفرس، وطالما فخر اليونان بأنهم احتملوا صدمتهم، وردوهم عن بلاده أيام دارا.

ويتقدم الفاتح العظيم فيقهر مدن الشام، وتقاومه صور وتتحدى جبروته وسلطانه. ثم تخر أمامه بعد حصار سبعة أشهر، فيقتل منهم ثمانية آلاف، ويؤسر ثلاثون ألفا، فيباعون عبيدًا، ويصلب على القلاع ألفان، عبرة ونكالًا. ذلكم الإسكندر الفاتح القاهر، وذلكم جزاء من يقف في سبيله.

ويفتح الإسكندر مصر عام اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، ويرفع نسبه إلى أمون. ثم

---

(١) ١٩ من ذي القعدة سنة ١٣٥١هـ/ ١٥ من مارس سنة ١٩٣٢م.

يجمع جنده، ويسير إلى العدو الأكبر، الملك الأعظم، فيجتاز الفرات ودجلة، إلى حيث يعسكر دارا.

وهنالكم على مقربة من أطلال نينوى العظيمة، التي تندب مجد آشور الغابر، وعلى سبعين ميلًا إلى الشمال والغرب من مدينة إربل، قريبًا من ملتقى عبد الله بن علي العباسي ومروان بن محمد خاتمة الخلفاء الأمويين، حيث سقطت دولة وقامت دولة- هنالكم تراءى الجمعان، وعسكر الإسكندر تجاه دارا. ويشير «برمينيون» على الفاتح المقدوني، أن يهجم على عدوه ليلًا، فيأبى مجد الإسكندر وكبرياؤه، فيقول: «أنا لا أسرق النصر».

ثم يلتقي الجمعان، وتدور الدائرة على دارا وجنوده، فيفر صوب المشرق، ويسارع الغالب صوب الجنوب. أريتك بابل العظيمة مدينة السحر والعلم، ها هي ذي تفتح أبوابها للإسكندر، ويباركه كهنتها، ويطوي الملك الشاب المراحل إلى سوس واصطخر حاضرتي الفرس، لا يصمد لمدينة إلا فتحها، ولا يعمد لجيش إلا مزقه.

تمتد الفتوح والآمال والنشوة والكبرياء بإسكندر إلى ما وراء النهر، في طريقه شطر الهند، بعدأن طرد دارا. حتى عثر به في الطريق قتيلا.

إسكندر العظيم في مدينة سمرقند عام سبع وعشرين وثلاثمائة، وقد طوى المراحل والممالك، ما بين مقدونية ونهر سيحون، ينعم هنالك بالشباب والظفر، والملك الفسيح، والكنوز التي لا تحصى، والجند الذي لا يعد. إسكندر الآن أعظم ملك في العالم كله.

٢

ويدعو أصحابه وقواده إلى مأدبة في سمرقند، فيأكلون، ثم تدور الكأس حتى يثمل القوم أو يكادوا. ثم تترع للملك المظفر كئوس من الإطراء والإعجاب والجلال والإكبار، ويغلو المتملقون المعجبون، فيرفعونه فوق الأبطال جميعًا، ويدعون أن أعماله المعجزة لا تكون إلا عن نسب إلهي، بل يرفعونه إلى مستوى الآلهة كهرقل. ويشارك الملك الشاب في إعظام مآثره والإعجاب بها، ثم لا يقنع بما فعل، فيجعل لنفسه ما نال أبوه من ظفر في آخر عهده، ويغض من فيليب وإن كان أباه.

يسخط المقدونيون من الزراية ببطلهم القديم، ولكنهم لا ينبسون و«كليتوس» رابض ينظر إلى إسكندر ومادحيه ساخطًا محملقًا. كليتوس أحد قائدي الفرسان، كليتوس الصديق القديم أخو «لانيس» حاضنة إسكندر، التي قتل اثنان من أبنائها تحت رايته، كليتوس الذي نجى إسكندر في معركة كرانيكوس، حين أبصر فارسيًّا يهوى بسيفه إلى الملك من خلفه، فسارع كالبرق، فضرب السيفن فقده دون رأس الملك، كليتوس هذا لم يستطع صبرا على الغض من فيليب؛ قال كليتوس: ما لهؤلاء المادحين يضعون أقدار الغابرين، ليرفعوا عليها مجد الحاضرين؟!

إن فيليب كان عظيمًا. ثم تأخذه الحدة فيقول: «ليست مآثره دون مآثر ابنه، لا، إن مآثره لأعظم. فقد خلق الرجل لنفسه ملكًا وجيشًا. وإنما صلت أيها الملك بما أورثك فيليب، من ملك ممهد، وجند مدرب. إنما ظفرت بفضل هؤلاء المقدونيين الذين تحقرهم اليوم، وتقدم الفرس عليهم. ألم تقتل برمنيون العظيم؟

هاج الحاضرون وقذفوا كليتوس بالجدل والتوبيخ. وثار ثائر إسكندر الفتى الفاتح، الذي سخر ملك مصر وبابل وآشور وفارس، إذ قرعت أذنه لأول مرة نبأة

ناقد يعترض كلامه، ويرد عليه دعواه. غضب إسكندر وصاح بكليتوس يزجره ويجادله، وانحاز الحاضرون للملك المعجم بنفسه، وكليتوس كالأسد يزمجر ويرد الكلمة بمثلها، ثم ينتفض قائمًا، ويصيح مادًّا يده إلى الملك: «اذكر أن حياتك دين لهذه اليد التي نجتك يوم كرانيكوس، وأصخِ لصوت الحق الصراح، أو تجنب دعوة الأحرار إلى مأدبتك، واختص العبيد بصحبتك».

اهتاج إسكندر لموقف كليتوس، ولذكرى كرانيكوس وبرمنيون، فنهض يتحسس خنجره، فإذا الخنجر بعيد، قد نحاه الحاضرين فينادي الحرس مغضبًا هائجًا، ويأمر أن ينفخ في الصور إيذانًا للجند، فما أطاع أحد أمر الملك الهائج النشوان.

وتقدم نحوه بطليموس وبردكاس القائدان الكبيران، فأحاطا به، وأمسكا يده برفق، يسكنان ثورته، ويكسران حدته، ويحيط آخرون بكليتوس يخرجونه من البهو، فيأبى أن يخرج، لئلا يعترف بأنه أساء واعتدى، ويقول إسكندر: «واأسفا! إن قوادي قد غلوني كما فعل بسوس بدارا[1]، وإنما لي من الملك اسمه».

ويتقدم إسكندر تلقاء كليتوس، ولا يجرؤ القواد أن يقفوه قسرًا. ثم ينقض كالصاعقة، فينتزع حربة من أحد الجند، فيغمدها في صدر كليتوس صديقه القديم.

٣

يرتاع الحاضرون، ويفيق إسكندر من نشوته وثورته وعنجهيته، فيفتح عينيه، فإذا كليتوس طريح يضطرب في دمه.

---

(١) بسوس: أحد كبراء الفرس الذين شاركوا في اغتيال دارا بعد أن هزمه إسكندر.

خرج إسكندر من البهو يعدو إلى فراشه، فارتمى عليه ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، ويبكي بدموع عزَّت على الخطوب الشداد، وغلت في الحوادث السود. ويتمادى به البكاء، وكلما كفكف دمعه تمثل له صديقه طعينا، فيلعن نفسه نادمًا، ويهتف باسم كليتوس وأخته لانيس، ثم يقول: ويلي أنا الغادر الكنود. لقد جزيت كليتوس ولانيس شرًّا بما أحسنا إليَّ. لست بعد اليوم جديرًا بالحياة.

ويجتمع إليه صحبه يعزونه، ويسوغون ما عمل، فلا يزداد إلا حزنًا واكتئابًا، وندمًا وأسفًا، ويجتمع الجند المقدونيون، فيُجمعون على أن كليتوس قُتِل بحقِّه، وأنَّه ينبغي ألَّا يدفن. فيغضب ويقول: كلَّا؛ إنَّه سيدفن بأمري.

ويأتي الكهنة فيقولون: إن الملك لم يقتل صديقه بيده، ولكنها نقمة من الإله «ديونسوس» أجراها على يد الملك، انتقامًا لنفسه بما حُرِم القربان في هذه المأدبة، ثم يأتي الفيلسوف «انكشرخوس» فيقول: أيُّها الملك، إن الذي أنت فيه لعجز. إنَّك أيها الملك العظيم، والفاتح القاهر، لجدير بأن تحل وتحرم، وتحق وتبطل بإرادتك، لا أن تخضع للقوانين التي سنها الناس، ثم يأتي كلستنوس الفيلسوف، فيجهد أن يهون على الإسكندر ما فعل.

* * *

فارق إسكندر مضجعه بقلب كليم، إجابة لنصائحه، وإجابة لواجبه في هذه البلاد النائيَّة؛ ولكني أحسب الجرح قد ذهب مع إسكندر إلى قبره.

إسكندر العظيم لم يعظم عليه مطلب، ولا بعدت على همته غاية؛ ولا ثبتت في طريقه دولة، ولا وهن قلبه في سلم ولا حرب؛ ولكن إسكندر الفاتح القاهر،

والملك المسلط، لم يحمل وخزة واحدة ومن وخزات الضمير، فخرَّ كالطفل يبكي ويتململ، وكاد يبخع نفسه فرارًا من الندم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الغريق[١]

بينما يسير بنا زورق في النيل، رأينا من بعدٍ على شاطئ قريتنا، أسودة تضطرب، تتقارب وتتباعد. وتفترق وتجتمع. ثم يقترب بنا الزورق، فنرى رجالًا يموج بعضهم في بعضٍ، وإذا ضوضاء وجلبة، وإذا الناس في أمر مريج، بين جالس قد رمى ببصره إلى النهر حائرًا، وواقف يشير إلى الماء صائحًا، ومسرع يساير النهر، يتبين الأشياء الطافية على الماء، ومناد: انظروا ما هذا الذي يضطرب به الموج؟ وآخرون أخذوا الشباك، واستقلوا زورقًا، يرمون بشباكهم في كل مكان. وغواص يطفو ويرسب، وقد أخذه الصياح من كل جانب: إلى الإمام، إلى الوراء، اقترب، ابتعد، ألم تجد شيئًا؟ غصْ مرة أخرى... والناس من القرية إلى الشاطئ أفواج متتابعة، والنساء على بعدْ صارخات معولات... والنيل متدافع اللج، مصطخب الأذى، يسير سيرته متدفقًا زاخرًا، لا يعي ما يقولون، ولا يأبه لما يفعلون.

عرفت أن هاهنا إنسانًا غرق، وتمثل لي عجز الإنسان، وانقطاع حيلته في هذه الخليقة العظيمة، التهم النيل الرجل، وطواه في جوفه، ومر في عظمته وجبروته، كدأبه في الحقب المتطاولة، منذ انبثق من عالم الغيب في فجر التاريخ. وكم نفس طواها صدره الواسع. وكم أمم تراءت صورها في صفحته، ثم كانت كالخيال في المرآة، لا بقاء ولا خلود... والناس على كثرة زحامهم وزياطهم دهشون، لا يدرون ماذا يفعلون. كذلك عظمة هذا العالم، وكذلك عجز هذا الإنسان الكبير!!

دنوت من الجمع المحتشد، فقلت لأحدهم: ما خطبكم؟ قال: فلان بن فلان

---

(١) ربيع الأول سنة ١٣٤٢.

غرق. فتركته قائلًا في نفسي: وماذا عسى أن يقع في السماء والأرض إن غرق فلان بن فلان؟ إن الناس والحيوان والأشجار والأنهار خلائق متصادمة في هذا العالم، يهلك أقواها أضعفها، ولا تبالي الخليقة إذا اصطدم إنسان وحجر، أيهما الكاسر وأيهما المكسور. وهذا رجل سقط في الماء فرسب.

ابتعدت من الناس مفكراً، فكأني أسمع في هذا الاضطراب وهذا الصخب ثلاثة أصوات تدوي في أذني:

صوت الإنسان الضعيف قول: واأسفاه! وارحمتاه! غرق فلان ابن فلان، فياحسرتاه على فلان وأهل فلان!

وصوت القضاء الرهيب يصيح: أصاب إنسانًا ما قدر له.

وصوت الطبيعة القاسية يقول في غير اكتراث: جسم ثقيل سقط على الماء فرسب.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مدرسة الصحراء

قرية ذات نخيل قامت في الصحراء كالأمن بين الخوف، والأمل بين اليأس، والحياة بين الموت؛ تهوى إليها أفئدة سالكي الصحاري، فيجدون من الظلال والمياه ما يمسح عنهم الجهد والنصب، ويطفئ فيهم العطش والصدى.

لمن هذه القرية المباركة؟ من القوم قد اجتمعوا فيها على أمر جلل، وأمل بعيد، وغاية سحيقة، قد اعتزموا اقتحام الصعاب، ومجالدة الأهوال، وتحدثوا بقلب العالم رأسًا على عقب؟

من هؤلاء التلاميذ الذين أنبتتهم الصحراء، وأخلصهم ماؤها وهواؤها، وشمسها وهجيرها، وبردها وزمهريرها، فكانوا كروضة الحزن سقاها الحيا، وأنضرتها الشمس والريح، في قنة لا عهد للأنيس بها؟ من هؤلاء العرب قد جلسوا في أسمالهم، وأصغوا إلى معلمهم، يأخذون الحكمة، فتكمن من سرائرهم، فإذا هي خلق وسجية، وإذا هي الأمل والعمل، وإذا هي سعادة الأولى والآخرة؟

وعجبًا لقوم ضعاف فقراء يتهيئون لما لا قبل لهم به! يريدون أن يكونوا أساتذة العالم وسادته؟ ولولا كرم في نفوسهم، وحكمة في أفعالهم، لقلنا بهم الطيش والغرور.

إنَّ الإنسان ليقف في أمرهم بين الإعجاب والسخرية! دعهم في قريتهم، وتنظر الحوادث تأخذ مجاريها، ثم انظر إليهم بعد أعوام، تر التلاميذ الضعاف قد أخذوا كتابهم وسيوفهم، واستووا على صهوات خيولهم، وتطاولوا إلى هداية العالم كله، وحكم الناس أجمعين! دعهم في آمالهم البعيدة، وأمانيهم العظيمة، ثم أبصرهم بعد

سنوات قليلة وقد خفقت أعلامهم في مشرق الشمس ومغربها، ودان لهم كل طيع وعصي. وإذا العالم ملؤه الإعجاب والخوف المحبة والفزع، وإذا هم شرر قد انبعث فأصاب الفطر الصالحة، فكان نورًا، وأصاب النفوس العليلة، والأخلاق السقيمة، فكان في هشيمها نارًا! ثم انظر إليهم فإذا بهم على العرش قد ورثوا ملك الأرض، وأحسنوا السياسة، وقادوا الناس بالحسنى، ثم دفعوهم إلى الخير، وهدوهم إلى الإحسان. وإذا صفحة من الإحسان ليس للناس بها عهد من قبل، وإذا كتاب في تاريخ المدنية لم تقو على فصوله من قبلهم أمم الأرض قاطبة.

أنبئني كيف وسعت القرية الصغيرة أرجاء الأرض! وكيف عمر العدد القليل نواحي العالم! وكيف بلغ هؤلاء الضعفاء آمالهم، وكيف كان التلاميذ الفقراء -كما أرادوا- أساتذة العالم!

فكر جهدك، فلن تجهد أساطيل ولا جحافل، ولا طيارات ولا غواصات، ولا معامل ولا مصانع، ولا كتبًا وأسفارًا يضيق بها العد، ولا أنت واجد شيئًا مما يبهر من جبروت الحضارة وزخرفها!

ما الذي خلق من القلة كثرة، ومن الضعف قوة، ومن الذل عزًّا، ومن الموت حياة، وأخرج من الصحراء شرذمة كانت أعظم مثل في العظمة والعدل والإحسان والعلم والحضارة؟!

فتش ما استطعت، وفكر ما قدرت، وقلب حوادث التاريخ كما تشاء، فلن تجد إلَّا شيئًا واحدًا، وأمرًا فذًّا، لن تجدا إلا سرًّا إليه مرجع كل ما عرفت، وعمادًا استقل بكل ما وصفت... الإيمان المتين، والخلق الصالح. إن في ذلك لعبرة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

على شاطئ النيل(١)

في ليلة من ليالي الصيف المقمرة، في قريتنا على ضفة النيل الشرقيَّة، خرجت إلى الشاطئ، وانتبذت مكانًا في زورق منعزل، وكنت أرى في الغرب أهرام دهشور وبعض القرى والنخيل، مناظر بين الظهور والخفاء، يتنازعها ظلام الليل وضوء القمر، كأنها تتراءى في لوحة مصورة، والقمر ساطع في المشرق، يرسل أشعته الهادئة كأنها رشاش من ينبوع صاف، ينضح الخليقة، يطفئ عنها وهج الشمس، ويمسح عنها آثار التَّعب والكد والعراك، أو كأنها يد رفيقة تمسح على رأس طفل محزون؛ والنيل مترع زاخر، يسرع الجري في وقار، فلا تسمع في تدافع مياهه إلا وسوسة الأمواج، وحفيفها بالشاطئ، وهمهمتها في جانب الزورق.

سكنت إلى نفسي، وشعرت لذة الخلوة، ولم يكن يشغلني إلا خوف أن يحضرني إنسان يتودد بالأحاديث، وألقيت على النيل نظرة لم تسترد، والنيل كفكر الفيلسوف المطمئن، صحفة واسعة مضيئة، عميقة هادئة، ترسل في النفس سلامًا وأنسًا واطمئنانًا وسكونًا ورهبة.

ثم تهب ريح تجعِّد صفحة النهر، وتغضن أساريره، فكأن كل شيء قد تغيَّر. ثارت ثائرة النهر، كما تضطرب أفكار المفكر الهادئ بشبهة عاتية تزلزل نواحيه، وتهيج مستقر سرائره، كذلك جاشت نفسي، وهاج فؤادي:

أيُّها النيل المنحدر من مجاهل الأرض، كأنك آت من وراء الغيب، والمتدفق من مجاهل الزمن، كأنك منحدر من الأزل! أيها النيل المصطخب بدُفّاعك وآذِيِّك،

---

(١) جمادى الأولى سنة ١٣٤١هـ.

الرائع في هديرك! أيُّها النيل المنصبُّ في البحار الواسعة العميقة، التي لا يُعلم قرارها! هل أنت إلا سيْب إلهيّ، تسيل من المجاهل إلى المجاهل، كما يبزغ النجم في الأفق، ويغيب في الأفق؟ ما مبدؤك وما منتهاك؟ نعرف أنك من البحر وإلى البحر.

وكذلك حياتنا أيُّها النيل، نرى مجراها المائج الجائش، الصاخب المضطرب، المزبد الطامي، وكأن الناس فواقعه التي لا قرار لها- أين منبع هذا المجرى وأين مصبه؟ ما مبدؤه وما منتهاه؟ منبعه الأرحام التي تقذف الأجنة في هذا العُباب. وأما مصبه فتلك الحفر السحيقة الموحشة الساكنة، التي تزدرد العالم في الحقب المتطاولة، وتقول: هل من مزيد؟ هذه المهاوي التي لا يُعلمَ قرارها، ولا يدري إلى أية غاية منتهاها، أجل، إنَّها البحر الأبدي المجهول. وما هذه الصفائح والرجام والحصى والمدر إلا أمواجه وزبده، ورشاشه المتطاير؛ ولكنها الأمَواج الساكنة الجامدة، لأنَّها أمواج الموت، ولأنَّه بحر الفناء.

هذا منبعه وهذا مصبه، ولكن ما المبدأ وما المنتهى؟ لا ندري، ولكننا نعرف أننا من البحر وإلى البحر!

تدفق أيها النيل من الغيب إلى الغيب... أيها النيل، كم مرة طلعت الشمس عليك، وكم مرة تلألأ في صفحتك القمر، وكم مرة تراءت في لجك هذه الكواكب المطلة عليك، كأنَّها تطالع صُورتها فيك، وكأنها تناجيك بالأسرار الغامضة، والحوادث الخافية، والوقائع التي طُويت في غيابات الزمن، والأمم التي سفَت عليها أعاصير القرون.

يا نيل! كم أمَّةٍ عمرت شاطئيك، وجمعت بالجسور عِبريك، وملأت صفحتك بالسفائن، ثم زال بها نهر الحياة السريع، فلا جَلبة ولا عِراك، ولا جرس ولا ركز،

ولا تكبر ولا فخر... وليس إلا بقية آثار تشبه الجزر والصخور المعترضة في مجرى النهر، استعصت على التيار، ولا بد أن يجرفها يومًا. وإن أكبر هذه الأمم حظًّا من الخلود، تلك التي بقيت آثارها كصفائح القبور، تدل على ما وراءها من الفناء، تلك التي يقرأ تاريخها في أحجار المقابر.

أيُّها النيل! وإنك لأهداء سيرًا وأرفق يدًا من نهر الحياة، بل نهر الموت، الذي لا يبقى ولا يذر! إنك تجور على القرى أحيانًا، وتتحيف الشاطئين أحيانًا، ولكنه لا يدع قرية ولا شاطئًا، ولا علامة على القرية والشاطئ، إن لك لعبرين وقرارًا، فأين عبرا نهر الحياة، وأين قراره؟ وماذا في لجاته؟ إنه القضاء الرهيب، يتدفق مع الأزل إلى الأبد، وكأنه يجري وراء العيون والأسماع، والعقول والأفكار، وإنما نبصر من فواقعه ورشاشته، ونسمع عن اصطخابه وضوضائه- لا بل نرى لججه وأمواجه، ونسير في تياره وعبابه، وليس لنا علم بما وراء ذلك...

أيُّها النيل تدفق تدفق من الغيب إلى الغيب، كما شاء ربك، فكذلك نحن في هذه الحياة؛ سائرون مع النهر، مستسلمون للتيار، جهدنا أن ننشر الشراع، ونحرك المجداف، كما شاء ربك، وليس لنا من الأمر شيء.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ملك وفيلسوف(١)

نشأ إسكندر بن فيليب ملك مقدونيا قويًّا شجاعًا عظيم النفس، بعيد الهمَّة، وتبوَّأ العرش في سن العشرين، فأرهق الجند بأسه، وتصرفت بالجحافل همته، فلم يعجزه مطلب، ولا بعدت عليه غاية. وما ظنك بملك شابٍّ عظيم طموح، كبير الهمة، يواتيه جند باسل، وجحافل جرارة؟

سار إسكندر فسقطت الممالك لبأسه، وخرت العروش لصولته، فإذا إسكندر ملك ما بين مقدونيا وليبيا والهند، وإذا إسكندر وارث اليونان والفرس وبابل وأشور ومصر.

أيُّها الملك الشاب! لقد بلغت ما لا يبلغه ملك على الأرض. لقد أتيحت لك السعادة غير منقوصة، وألقت إليك الأماني مقاليدها!

سار إسكندر الكبير يومًا فقيل له: أيُّها الملك العظيم! إنَّ هذه الخشبة التي ترى من بعيد مسكن ديوجين الفيلسوف، يحملها على ظهره حيثما سار، ويأوي إليها- ديوجين الذي هجر تكاليف الحياة وضوضاء البشر، وقنع بالهواء والماء في الفلوات، يعيش مع الطير والوحش، ويقتات بما يقيم أوده بما تخرج الأرض.

أراد إسكندر تلميذ أرسطو أن يتواضع للفلاسفة، وأن يؤثر عنه أنه مشى في عزته وجبروته إلى ديوجين المسكين -أراد إسكندر أن يؤاسي الفيلسوف- مشى الملك العظيم حتَّى وقف على ديوجين الفقير.

---

(١) جمادى الثانية سنة ١٣٤١هـ.

ليت شعري ماذا يهم ديوجين من الملوك والدول؟ وماذا يعنيه من إسكندر وجيوشه! إن ديوجين الذي تنفذ نظراته إلى بواطن الأشياء كالأشعة لم ير في إسكندر وجنده إلا ظلالًا تمتد تحت الشمس وتنقبض، إلا صورًا ترسمها ليقة الشمس ويخفيها ظلام الليل، إلا أخيلة تتراءى ثم تغيب في تضاعيف الزمان.

رفع ديوجين رأسه إلى الإسكندر فلم يرَ إلا ظلًّا سقط عليه، فحرمه ضوء الشمس، حرمه متاعًا منحه الله الناس جميعًا، ولم يجعل للملوك سلطانًا عليه.

فلما قال إسكندر العظيم: ما حاجتك يا ديوجين؟

قال: ديوجين الذي لا يملك شيئًا ولا يملكه شيء: حاجتي أن تذهب، فلا تحجب عني ضوء الشمس.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

النهضة (١)

نهضة الأمة: انتباهها من غفلتها، وانتعاشها من كبوتها للتفكير في حالها والنظر إلى مآلها، ونقد سيرتها، والبحث عن عيوبها، وتعرف نقائصها، وقياس ما بينها وبين الكمال، لتتجه نحو الغاية المرجوة، وتعد الوسائل المؤدية إليها.

وهي طور من الأطوار التي تنتاب الأمم في سيرها مع قوانين الاجتماع، وخضوعها للسنن الإلهيَّة. لا ترى أمة تستمر بها الغفلة، ولا أمة تمتد بها اليقظة على مدى الأيام؛ حياة وموت، وشباب وهرم، وارتقاء واستفال، وصعود وانحدار؛ ولكن الأسباب تعجل بنهضة أمَّة أو تعوقها، وتواتيها أو تعاندها.

وللنهضة أسباب داخليَّة، وأخرى خارجيَّة، تتعاون على إنتاجها، ويكمل بعضها بعضًا، وقد تكون إحداهما أبين أثرًا، وأوضح مظهرًا.

فمن الأسباب الداخليَّة نبوغ المصلحين، الذين يريدون بعزائمهم تغيير حال الأمَّة، وسوقها في طريق الكمال، وهذا النبوغ من علامات النهضة ومن أسبابها، فهو أثر لحال جديدة خالطت نفوس الأمَّة، ومؤثر شديد في هذه النفوس. ومنها نظام الحكم، وأسلوب التعليم، وحال الزراعة والصناعة والتجارة، وهلم جرًّا- وأوضح ما يكون هياج الأفكار، ونزوع النفوس إلى الإصلاح، حين تبلى الأمَّة بضلال السيرة واختلال النظام، وتُمْنَى بمصائب تأخذ عليها طريقها، وتلفتها إلى ما تعانيه من شقاء، وتشعرها بالألم على كثرة ما تحملته، وبمرارة الظلم على طول ما ألفته، وحينئذ يفكر الناس: فيم هذا العيش؟ وإلى أين؟ ولماذا يحملون هذه الأعباء؟ وبأي حق

(١) ذي الحجة سنة ١٣٤٠هـ/ يوليو سنة ١٩٢٢م.

يساسون بهذه السيرة؟- فتبدأ في النفوس سلسلة من الأفكار تنتظم أمور الأمَّة جميعًا، فإنَّ الفكر إذا تنبَّه لا يقف في طريقه شيء، وحينئذ يكون ميزان الأعمال العقل لا العادة.

وقد تأتي بذور النهوض من الخارج، وذلك باختلاط الأمم، ونظر بعضها إلى بعض، فيكون بينها من التقليد والغيرة والتنافس، ما يكون بين الأفراد- كما كانت الحرب الميدية بين الفرس واليونان مقدمة لعصر أثينا الذهبي «عصر بركليس». وكانت الحروب الصليبية من أسباب مدنية أوربا الحاضرة، وكما كان سيل الأوربيين على المشارقة في هذا العصر مثيرًا لهذه الحركات، التي تناولت كل أساليب الحياة في الشرق، بينما تكون الأمَّة راضية بما عندها، ترى عند غيرها ما يخالف عاداتها وأخلاقها وعلومها وآدابها، فتبتدئ القياس والموازنة، وتشرع العقول تفضل بعض المختلفات على بعض، وذلك يقتضي أن تنظر إلى غاية في الحياة، يكون بها الترجيح والتفضيل، فيكون الرجوع إلى هذه الغاية، لا إلى العادات الموروثة.

ومن علامات النهوض كثرة التفكير، وشدة الخلاف والدعوة إلى العمل مقرونة بالحجة، وتمحيص البراهين المختلفة.

والحياة البشرية لا بدَّ لها من قوانين ترشد العاملين، وعادات يتفق عليها النَّاس، حتى لا يضطر الإنسان إلى التفكير والترجيح كلما هم بعمل صغير أو كبير، فيذهب وقته ضياعًا. ومن أجل ذلك كان عصر النهوض -الذي يهدم القواعد ولا يبالي بالعادات- عصرًا ملؤه الحيرة والشك والملل والانقباض. وقد كان القرن الثامن عشر الميلادي في أوربا عصر هياج وتمرد وقلق، حتَّى أنتج الثورة الفرنسيَّة الكبرى. وكانت الأمة العثمانيَّة في القرن الأخير مجالًا للنزاع والجدال، حتَّى كانت ثورة الدستور، ولا تزال الأمَّة في تقلُّب؛ ومن أجل ذلك كانت الأفكار المصريَّة في هذا

العصر كثيرة التناقض والتنافر، والنزاع بين القديم والحديث، وهلم جرًّا.

فإن لم يكن للأمَّة في هذا الطور قوَّاد مرشدون، ومصلحون قادرون، كان من وراء هذا الاضطراب شر مستطير. والنهضة إن لم يهدها الحزم، ويهذبها الفكر، فقد يربو شرّها على خيرها. لا بدَّ لكل نهضة من فكر يثبت خطاها حين تهيج العواطف، ويبين للأمة قصد السبيل حين تركب العزائم الجامحة كل مركب خشن، وتنزع بالنفوس الثائرة هموم لا تبالي بالعواقب، وحين يغلو الناس في الخروج على العادات، والنفور من النظم، حين يرونها قيدًا لإرادتهم، ويفكرون فيما أنتجته من سيئات، فيندفع واحدهم كالحصان الأرن عالج رباطه حتى قطعه، فذهب في الأرض طلق الجموح.

لا بدَّ إذًا من أن تبين الغاية، ويبصّر الناس بما ينفعهم وما يضرهم، حتى يخففوا من غلوائهم. فإذا دعاهم الإعجاب بالجديد إلى أن يأخذوا عن غيرهم كل شيء، وإذا أرادوا الخروج من عقائدهم وعاداتهم وسائر ميراث أسلافهم، كلفًا بالحرية، وجب أن يقال لهم: انظروا ما أنتم في حاجة إليه، وإيَّاكم أن تحقروا آدابكم وقوانينكم، فإنَّ لكلِّ أمَّة نظمًا ألفتها البيئة والأخلاق والأحوال الخاصة، وأيدَّها مرُّ الزمان، فأصبحت مثالًا لحياتها، لا تصلح في مكانها نظم أخرى؛ ولكلِّ أمَّة عادات تحسن عندها ولا تحسن عند غيرها. لا تحقروا ما أيدته التجارب، وهدى إليه الوجدان، فعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم. لا تخلطوا المدنيَّة الصناعيَّة بالمدنيَّة الأخلاقيَّة، فتتخذوا رقي أمَّة في صناعتها، دليلًا على رقي أخلاقها وآدابها، ولا تجعلوا فقركم في الصناعة والوسائل المادیَّة، برهانًا على فساد أخلاقكم وآدابكم، فبين الأمرين فرق عظيم. خذوا من المدنيَّة الصناعيَّة ما استطعتم، فإنَّها نتيجة القوانين الطبيعيَّة التي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان؛ أمَّا المدنيَّة الأخلاقيَّة، التي

تستمد من التربية والتعليم، ومن خواص الشعوب والأجناس، وتاريخ الآباء وآثار البيئة، فكونوا من أمرها على حذر، وأكثروا فيها النقد والتمحيص، وإيَّاكم أن تأخذوها كما هي، فتكونوا كمن لبس ثوبا لم يفصل على جسمه، أو كالغراب الذي حاول مشية القطا.

يقال: إنَّ اليابان التي نافست أوربا، حتى زاحمتها في التجارة والصناعة والعلم، ووقفت أمامها بأسلحتها، لم تزل مستمسكة بأخلاقها وعاداتها اليابانيَّة، تزدري كل من يهجر عاداته إلى عادات أوربا. وقد نرى الهند والصين على اعترافهم بفضل أوربا في علوم الطبيعة، لا يسلمون لها بالسبق في الفلسفة والتربية والأخلاق.

لا بدَّ من النقد وتمييز الخبيث من الطيب، وإلا سارت الأمَّة في طريق محفوف بالمصاعب، وكانت سيئاتها أكثر من حسناتها.

فإذا عرفت الغاية واستبانت، فلا بدَّ من النظر في الوسائل، فقد يشرق الإنسان وهو يريد أن يغرب إن لم يستوثق لنفسه. وانظر أمَّة أرادت تعليم أولادها مثلًا، فأكثرت المدارس العالية، وأهملت المكاتب الأولى، فإنَّها لا تصل إلى ما تريد. وكذلك أمة تقصر جهدها على الشكل، ولا تهتم بتجارتها وصناعتها ونحو ذلك من شروط الحياة الصحيحة.

حتَّى إذا عرفت الغاية، واختيرت الوسائل، جاء وقت العمل، ولا بد له من الدأب والصبر، حتى ينجح السعي ويحمد الكد؛ وإلا ضاع الزمن بين الإقدام والإحجام، وسارت كل طائفة مراحل من الطريق، ثم وقفت، فتستأنف السير طائفة أخرى، تقف حيث وقفت الأولى أو قريبًا منها، فإذا جهد كثير ضائع، وسعي غير نافع، وإذا الأمَّة لا تزال في أول الطريق.

إذا عرفت الأمَّة الغاية والوسيلة، ثم عملت واستمرت، وصابرت وصبرت، فلن يقوى أحد على أن يصدها في طريقها، أو يعوقها عن غايتها، ومن ذا الذي يعطِّل القوانين الطبيعيَّة، أو يبطل السنن الاجتماعيَّة؟ بل من يمنع النتيجة إذا تمت المقدمات، ويحول دون الغاية إذا وضح الطريق وأزيلت العقبات؟ {سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا}.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الإخوان (١)

من لي بقوم من الإخلاص طينتهم؟ لدى الشدائد والسراء إخوانُ
قد حالفوا الحق لا يخشون لائمة في الله ثبتهم في الحق إيمانُ
إذا تنكرّ جبّار لهم خشنوا وإن تعرض مسكين لهم لانُوا
قرت بهم رجفات الدهر واتسقت للعقل والعدل والإحسان أركانُ
من كل أروع ملء الدهر عزمته وهمُّه في ضمير الدهر أشجانُ
ترمى الهمومُ به الأهوال معتزمًا يفوت ظن الردي والموت خزيانُ
مُرزّأ يتلقى الرزءَ مُنصلتًا تنشقُّ عنه من الأهوال أجفانُ
فذلك الطودُ يجري حوله نهر من الخطوب له بالناس طغيانُ
يزّل عن شفحه الأذيُّ مصطخبًا وما يلين لمرِّ الماء صوانُ
فاتت مآرب أهل الذل قمته فما يذلله نيل وحرمانُ
كأنّه إذ يناجي ربَّه فرحًا عما يكابده في الأرض غفلانُ

ومنها في جماعة غير هؤلاء صغار الهمم، ضعاف النفوس:

لا يعرف الرزء في الآمال واحدهم إن نال مضجعه والبطن ملآنُ
كأنما الفلك الدوار أرحية للقوت والشمس في الآصال أفرانُ

---

(١) من قصيدة طويلة نظمت في عهد الصبا.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سعيد بن جبير [1]

سيف الحجاج مصلت يرعد، وينذر ويتوعد، ويحكم في الرقاب فلا معقب. وقد جلس الحجاج مجلس بؤسه، وأدار أفلاك نحسه، وهو من تمرس بالشدائد حتى هانت عليه، وشهد القتل حتى ما يبالي به، ساعة صرح فيها الشر، وكشرت المنية. وحسبك ببطش الحجاج الذي يوحى إليه كلٍّ قلب رعبه، ويقض على القريب والبعيد مضجعه.

قدمت إليه أسارى «الجماجم»[2]، وقد أمره الخليفة فيهم أن يقتل من لا يقر على نفسه أنه كفر، إذ خرج على الخليفة مع ابن الأشعث.

رأى كل أسير أن في الإقرار فرجًا، وفي التعريض لمن يأبى التصريح مخرجًا. سئل الشعبي، فقال: أصلح الله الأمير! نبا بنا المنزل، وأحزن بنا الجناب، واستسلحنا الخوف، واكتحلنا السهر، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء. وسئل مطرف بن عبد الله، فقال: أصلح الله الأمير، إن من شقَّ العصا، وسفك الدماء، ونكث البيعة، وفارق الجماعة، وأخاف المسلمين، لجدير بالكفر.

وأنت يا سعيد بن جبير! إن لك في القوم أسوة، ولك في القرآن رخصة. هذا سيف الحجاج ونطعه، وذاك جبروته وبطشه. الحجاج من لا تأخذه هواده، ولا ينثني إذا اعتزم. فأبق على نفسك بكلمة، كلمة لا تضريك في دين ولا دنيا. تقدم فصرح بالكفر مكرها، أو فعرض، فإن في المعاريض متسعًا. لا تترد فإن سيف

(١) في ذي القعدة سنة ١٣٤٠هـ/ يونيو سنة ١٩٢٢.

(٢) وقعة دير الجماجم كانت بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث الخارج على الخليفة عبدب الملك بن مروان.

الحجاج لا يمهل، ولا تبطئ فإن الحجاج لا يؤامر.

لا! لا! سعيد يأبى. سعيد يصمم أن يقول ما يكنه فؤاده. سعيد يربأ بنفسه أن تعرض في الحقِّ، سعيد يحقر الحياة، ولا يرهب الموت، سعيد لا تأخذه في الله رهبة.

ويحك يا سعيد! إنهم ينادونك. فالله في نفسك وأولادك والعلم الذي في صدرك. إن الأمر لأهونُ من أن تُقتل فيه. فالآن فاختر؛ إمَّا الحياة وإمَّا الموت.

يتقدَّم سعيد مزدريًا بكل شيء إلا الحق، يَمثُلُ سعيد بن يدي الحجاج. سئل: أتقر على نفسك بالكفر؟ فقالها كلمة أكبر من الحجاج وأعوانه، وعبد الملك وسلطانه، وأكبر من كل جبروت في الأرض. قالها ليشتري الحق ويبيع الحياة. أجاب سعيد ساخرًا بالجنود والأعوان، والسيف السلطان، قد ملك عليه الحق عقله وقلبه ولسانه.

قال: «ما كفرت بالله مذ آمنت به».

هوى رأس سعيد عن جسده، قذف سعيد برأسه في وجه الجبروت، وقدمه ثمنا للعقيدة والإباء.

سعيد بن جبير لم يُذله مطمع، ولم يملكه خوف، ولا أزرى به ملق، ولا طأطأ رأسه لجبروت. ولكنه كره الحياة، ورغب في الموت، ليقول ما يعتقد بين السيف والنطع.

فاعتبروا يا أولي الأبصار.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفائيل[1]

البارحة بعد نصف الليل، أتممت قصة رفائيل قراءة. وكنت بدأت قراءتها منذ زمن بعيد، فتطاول الأمد، وتثاقلت النفس تثاقل الغم، على قلبي جوليا ورفائيل.

ما حسبت قط أن الحزن الذي شربته جرعات، وأشربه قلبي رشحات، وأحسسته حينًا بعد حينٍ، يبلغ هذا المبلغ، بلى! أذكر أني في إحدى الليالي وقفت القراءة إشفاقًا على نفسي، حينما بلغت برفائيل وجوليا حديقة «منسو»، وحم هنالك الوداع. أذكر أني حينئذ وضعت الكتاب على حافة السرير، وألقيت على الوسادة رأسًا ينوء بالهموم، فهاج بي الليل، وطار الفكر في أرجاء السموات، وقذف القلب بأحزانه زفرات، ودارت النفس في أعماق من الظلام والفكر ما لها من قرار. ولكني ما حسبت قط أن الحزن آخذ بي إلى الغاية التي بلغها البارحة.

أذكر أن في هذه القصة مواقف موجعة، ومشاهد مروعة؛ أذكر جوليا ورفائيل وهما في نفسيهما مأساتان أحكم الله تأليفهما، وبعث بهما إلى الأرض في صفحات الحادثات، أو في صفحات «لامرتين» لتقرأ على مر الأيام. وأذكر البحيرة بحيرة «برجيه» يوم كان اللقاء بين حبيبين لا يعرف أحدهما الآخر، فكأنهما التقيا على موعد بعد أن برح بهما الشوق، وأمضهما الانتظار، ويوم حان فراق «إكس»، ورحلت جوليا إلى باريس، فتبعها رفائيل يرقبها عن كثب وهي لا تدري، وينجدها كلما عرض لها ما تكره، حتى أبلغها دارها ثم رجع. وأذكر تلاقيهما في باريس، يجتمعان

---

(١) كتبت في لندن يوم الجمعة ١٢ صفر سنة ١٣٤٤هـ/ ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٦م بعد قراءة قصة رفائيل التي ألفها لامرتين الشاعر الفرنسي وترجمها الأستاذ أحمد حسن الزيات.

على هوى عذري، وفرح هو أشد ضروب العذاب، في ملتقى حبيبين هو أشبه بمأتم، تهيأ فيه للقضاء الذي ليس منه مفر، ويوم يبيع رفائيل لؤلؤة أمه وهو يبلها بدمعه، ليستطيع الإقامة على مقربة من جوليا، ويوم ذهب إلى أمّه فأخبراه أن الطبيب أشار عليه بالمسير إلى «سافو» فلا تجد أمّه بدًّا من أن تقسو على أعز صديق، وأنفس ذخيرة، وأجمل ذكرى؛ الشجرات اللاتي يظللن الدار واللاتي حنون على هذه الأسرة دهرًا طويلًا، فكان في ظلالهن مسارح اللهو، ومدارج الصبا لرفائيل وأمه وأبيه. فانظر كيف تضطرها الأقدار، أن تسلط الفأس على هذه الأشجار! كل أولئك أذكره، وإنها لذكرى ممضة؛ ولكن ما حسبت قط أن يبلغ الحزن بي هذا المدى.

* البارحة بعد نصف الليل أخذت الكتاب أقرأ الوريقات القليلة الباقية، ونفسي تضطرب فزعًا مما سيلقاها في ثنايا هذه الصفحات، التي بدت كأنّها صحف الغيب تنفتح عن المقادير واحدًا بعد آخر.»

حتى إذا بلغ رفائيل الكوخ الذي حمل إليه جوليا، فلم ير إلا ظلامًا، ولم يسمع بين الظلام نأمة حي، فدار يقبل الجدار والجدار، حتى بلغ المكان الذي ركع فيه بين يدي جوليا وهي في غشيتها يوم البحيرة، ثم يتحامل إلى جدول يأكل على حافته ما يمسك ذماءه، على ذكرى قاتلة، وحرقة يعيا بها الوصف.

* قرأت حتى الملاح إلى رفائيل برسالة من صديقه لويس، يبلغه رسائل جوليا، فعاد رفائيل إلى حجرته يسير إلى مهلكه على شعاع ذاو من أشعة الشمس الغاربة. يفض رفائيل الغلاف عن رسالة لويس، ثم عن رسائل باريس، فإذا كتاب معلم بالسواد، وإذا خط «ألن» لا خط جوليا؛ يقرأ سطورًا سوداء تنعي إليه جوليا، وينظر بصره الزائغ، فإذا خط جوليا نفسها -أجل خط جوليا نفسها- ولكنها كلمة أرادت قلمها عليها وهي في غمرات الموت لتعزي رفائيل عن نفسها، فلله ما أفظعها تعزية!

تركت رفائيل يخر مغيشًا عليه، وخررت على فراشي، فبكيت ثم بكيت، ثم لج بي البكاء.

حاولت سُدى أن أسكن جأشي، أو أكفكف دمعي. ما تعمدت البكاء ولا رجوته، ولا خلت أن أنتهي إليه، ولكنه كان وحيًا من الحزن والدمع، لا أعرف من أين هبط. بل ثورة من هموم راكدة، وأحزان كامنة، كانت قصة رفائيل لها كقدحة الزند، أو كضربة مسحاة على نبع يدافع الثرى لينفجر.

كذلك انتهت بي قصة رفائيل، وكذلك أبكى لامرتين بعد مائة سنة، رجلًا جهولًا، يشبه لامرتين طبعًا مكتئبًا، وقلبًا منقبضًا، ونفسًا ملتهبةً.

كذلك فعلتْ بي قصة رفائيل. فلما أفقت لم أدر أأساء إلى لامرتين أم أحسن، ولم أدرِ أأحمد صديقي الزيات أم ألحاه؟!

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الربيع(١)

دار الفلك دورته، وعاد سيرته، فسرت في أعصاب الأرض هزة الحياة، وتفجرت عروقها بالمياه، وسالت قمم الجبال جداول وأنهارًا، واشتعلت الأرض أزهارًا وأشجارًا.

تبرّجــت بعــد حيــاء وخفــر	تُثنــي عــلى الله بــآلاء المطــر

قد صرّحت الأرضِ بمكنونها، وأبانت الحياة عن ضميرها، فنبتت معاني الحياة والجمال، في ألفاظ من الأوراق والنّوار.

بــاح الربيــع بــأسرار البــساتين	وعطّــر الــنفس أنفــاسُ الريــاحين

ونفخت أنفاس الربيع الحرّى الحياةَ في كل ذرَّة، فاخرجت قواها أعشابًا وأزهارًا، فرّقتها ألوان، وألفتها معان.

لم يبــق لــلأرض مــن سر تكاتمــه	إلّا وقــد أظهرتــه بعــد إخفــاء
أبدت طرائـف شتى مـن زواهرهـا	حُمــرا وصُــفرا وكــلُّ نبــت غــبراء

أي مسرح للفكر، وأي مجال للخيال، وأي مراد للطرف!

دنيــا معــاش للــورى حتــى إذا	جــاء الربيــع فــإنّما هــي منظــر

والطير مغرِّدات كأن أصواتها ذوب هذه الألوان، وكأن ألوان الروض جمْد هذه الألحان، يهتز الطائر الغريد، على الغصن الأملود، فيقرأ ما تحته من صفحات الجمال؛

(١) ذي الحجة سنة ١٢٥٣/ مارس سنة ١٩٣٥.

كأنّما الطير إبر الحاكيات، تنطق بما تضمنت الصفحات من نغمات[1]، والعصفور مَرِح تتداوله الأغصان، وتتهاداه الأفنان، تارة في انتزاء، بين الأرض والسماء، وتارة تغيبه الحديقة، كأنّه في هذا الجمال فكرة دقيقة، صغير تملأ الهواء نغماته، ضئيل تشغل الجو خفقاته.

والفَرَاش قلِق بين النُّوار، هائم بين الأزهار، لا يقرّ له قرار. كأن كل فراشة زَهرة طائرة، أو قُبلة بين الأزهار حائرة، أو نغمة في جمال الروض سائرة.

والشعراء ينافسون الطير على الأيك طربًا وتغريدًا، وفي المرج تسبيحًا وتحميدًا. تنبجس في جوانبهم ينابيع البيان، وتتفتح سرائرهم عن أزهار الشعر. ففي كل قلب ربيع، ومن كل قصيدة روضة، وفي كل معنى زهرة، وعلى كل قافية نضرة.

هكذا تفيض الحياة على الجماد والنبات والحيوان، وينتظم الجمالُ الخليقة والإنسان، كأنّما العالم كله فكرة واحدة، أو قصيدة خالدة.

ذلكم الربيع الذي فتن الناس، فافتنوا في وصفه، والإبانة عن محاسنه، والإشادة بذكره، والاحتفال بمقدمه. فاتخذته الأمم على اختلاف المذاهب عيدًا، ومجَّدته بشتى الوسائل تمجيدًا، وأولع به الشعراء في كل قبيل، ولم يخْلُ من المفتونين به جيل.

والناس في مصر في ربيع دائم، من أرضهم وسمائهم، وزرعهم ونيلهم، فهم لا يحسُّون مَقدم الربيع إلّا قليلًا. ولو أنّهم عرفوا كلَب الشتاء، وانجماد الهواء، وقشعريرة الأرض وقسوة السماء، ورأوا كيف تموت الطبيعة في زمن، وتلتف من الثلج في كفن.

وقد غاب في الثلج الربيع وحسنُه ... كما اكتن في بيض فراخُ الطواوس

(١) الحاكيات: جمع حاكية وهي الفونوغراف. والصفحات: هي الألواح التي فيها الأصوات.

ثم شهدوا كيف يأتي الربيع، فيكهرب كل ذرة، ويفيض كل عين ثرة، ويخلق كل نضرة -لاحتفوا بالربيع، وعرفوه يقظة بعد هجود، واشتعالًا بعد خمود، ورأوا فيه النشور بعد الموت، والإدراك بعد الفوت.

على أن للربيع في مصر دقائق يُسرُّ لها الإنسان، وشياتٍ يدركها الشعراء في كل زمان.

جاء الربيع فليت في كل قلب من صفائه قطرة، وفي كل نفس من جماله زهرة، وفي كل خُلق من عبيره نفحة، لتعمر النفوس بمعاني الحياة، وتستنير بأشعة الجمال، ويسكن الناس إلى السعادة حينًا، وينسوا أساليب العداوة والبغضاء زمنًا. وليت الناس جروا مع الحياة طلقها، ولم يفسدوا على الطبيعة خلقها، فأنبت الربيع في كل قسوة رحمة، وفي كل يأس أملًا، وفي كل حزن سرورًا، وفي كل ظلام نورًا، ليتهم اجتمعوا على ورد الحياة متصافين، كما ترفُّ على جداول الربيع الرياحين.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رثاء ضرس(١)

أيُّها الضرس ما خُلعت اختيارا ... رغمُ أنفي فراق خلّ قديم
لك في فيّ موضع ليس يُنسى ... وبقلبي ذكرى الوفيّ الكريم
ذقتَ في صحبتي من الحلو والمر ... وَعرك الصِّلاب غير مُليم
غير أن الزمان ألبسك السقـ ... ـم وأنحى عليك بالتحطيم
ما بقاء الشجاع في الصف إمَّا ... كَلَّ حدًّا وآض جِد سقيم
غاية الجهد أن حَبَوتك تاجا ... أيُّ تاج يُرى لعظم رميم؟
لك في الشاه أسوة خُلع الأمـ ... ـس وخّلاه تاج ملك قديم
لا سواء فأنت أشرف نفسًا ... قد تركت الميدان غير ذميم
وحملت الأعباء جهدَ شجاع ... واهنِ الجسم ذي فؤاد سليم
لهف إخوانك الوُفاة إذا ما ... ثبتوا للوغى بقلب كليم
لهف نفسي وقد فجعت ببعضي ... إن هذيْ مصيبة في الصميم
كل حي إلى الفناء ولا يبـ ... ـقى سوى ربك العلي العظيم

(١) خلع بعد خلع أحمد قاجار شاه إيران بقليل. وهو أول ضرس خلعه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الوطن (١)

تربتك وماؤك، وأرضك وسماؤك، منه نشأت، وإليه إن كنت سعيدًا، تعود. أولُ ما أحسست من الحياة، وأبصرت من الضياء، ونشقت من الهواء، وسمعت من الترنيم والغناء، وعرفت من الفرح والبكاء. مَرِحتْ طفولتك مع طيره، في زرعه وشجره، ورتع صِباك في بَره وبحره، وسهله ووعره، وحره وقَره، وشمسه وقمره؛ فهو روحك وجسمك، وحسك وعقلك، وحقيقتك وخيالك، وذخائرك وآمالك. كدحت يدُك في مادته، وسبح فكره في معناه. واستنزلتَ الوحي من سمائه، وأطرت الخيال في هوائه، ورأيت غير الحياة في أرجائه، بين صباحه ومسائه، وضيائه وظلمائه. ورعيت الجمال في جناته النواضر، ونجومه الزواهر، وفي زروعه وأشجاره، وجداوله وأنهاره. واستمددت من شمسه القوة والعمل، ومن قمره جمال الخيال ونضرة الأمل. وعرفت معاني الحياة في مشارقه، وأدركت أسرار الفناء في مغاربه.

كتاب آبائك المفتوح لك، وصحف أجدادك المنشَّرة أمامك، تقرأ فيها عزك وهُونك، وأفراحك وشجونك. وأنت فيها سطر مقروء غدا، يراه الخلف رديئا أو جيدًا. حقَب أنت إحدى ساعاتها، وسلسلة أنت من حلقاتها. حيٌّ أنت فيها وكنت من قبل حيا، وستحيا وإن كنت في رمسك مطويًّا؛ تقول «فعلنا» وقد فعل آباؤك القدماء، و«سنفعل» وإنما تريد أن يفعل الأبناء. قرآنك المتلوُّ على الدهور، وأدبك تقرؤه الأجيال بين منظوم ومنثور، وموسيقى وضعت لك ألحانها، وأناشيد تخاطبك قوافيها وأوزانها، وتُهيب بك أفراحها وأشجانها. ليس بأمانيك تحبه أو تقليه، ولا باختيارك أن تنام عنه أو تسهر فيه، فأنت فيه قد خلقت، ولنصرته قد طبعت، وليس

---

(١) كتبت في لندن سنة ١٩٢٧م.

في قدرتك أن تبدأ الخليقة، أو تنقض السليقة.

أنت فيه عَلم وفي سواه نكرة، ووجهك في مغانيه صورة محبوبة، وفي غيره خلقة منكرة، وصوتك في منازله نغمة مألوفة، وفي غير همهمة منفرة. وأنت في سواه حرف لم يركب فهو غير مقروء، ولفظ يعثر به اللسان فهو جِدُّ مشنوء، وصفر لا على يمين ولا على يسار، لا يدخل في حساب المجد ولا العار. لو لم تكن منبوذًا لقلت: رقعة بالية في ثوب أجدّ، ولو لم تكن خفيا لقلت: شعرة بيضاء في ثور أسود.

ألم ترى إلى أُسارى يهود الأوائل، كيف عطلوا مزاهرهم على نهر بابل[1]، وخرست ألسنتهم بالغناء وقالوا: «كيف ننشد أناشيد إسرائيل ونحن غرباء!» سوقك التي إن تهجرها فأنت في الحياة بائر، وعُشك الذي إن تفقده فأنت طير حائر. ومعك حيثما ذهبت مجده وفخاره، أو إثمه وعاره. وسيف مجده في يمينك، أو مِيسم خِزيه على جبينك. ليس إلا إليه الثواء، وإن ابتغيت نفقًا في الأرض أو سلمًا في السماء.

* * *

مصر التي برزت خضراء في صحراء، وجرى نهرها بين جناتها كالمجرة في السماء، وظهرت بين الرمال، كما تلوح في اليأس الآمال، أو كما ينبثق الفجر من الظُّلَم، ويرف الزَّهر على الصخر الأصم، ينبوع في مجاهل، وورد بين السباسب عذب المناهل.

مصر التي طلع فيها فجر التاريخ فأضاء، وكشف بها عن المعارف أول غطاء،

(١) إشارة إلى أحد مزامير التوراة، أوله: على نهر بابل جلسنا ثم بكينا على ذكر صهيون.

وأنشد الدهر على نيلها أنشودة الفخار الأول، وألقى المجد فيها رحله ثم لم يتحول. وانفجر فيها ينبوع العلم فعم، فنهلت منه سائر الأمم، وانقدحت منها شرارة المعرفة فكانت نارًا، فعشت إليها الأمم الحيارى.

مصر التي أعجبت في القديم والحديث، وراقت ماضية وحاضرة. ألم تر كيف رسا هرمها على الزمن، وثبتت قواعدها على الفتن، وبقيت كما كان مدهشة السر والعلن؟ هرمها طاول الدهر فطاله، وصارعه الزمن فما أماله، صرح رهبته القرون، وعى ببانيه ريب المنون، فالقبور التي هي سطور الفناء، تقرأ فيها آيات الخلود والبقاء. ترى فيها الحياة جامدة، وتحس فيها اليقظة هاجدة، وتنبين منها شعلة النبوغ وهي هامدة. كتمتها الأرض حينًا ثم لم تستطع صبرًا، وضاقت بسرها العظيم صدرًا، وابتلعها الزمان فلم يستطع لها هضمًا، فلفظها رائعة كما كانت قدمًا، فيالك من موت أدل على الحياة، وفناء أشبه بالبقاء، وهمود أقرب إلى الخلود!

مصر التي جرى نيلها بياضًا في ظلمات الأيّام، وسطرًا تترنم به الأعوام، مرآة للتاريخ لها من جنات مصر إطار. وسيف للحق قلب الظلم منه مستطار. كم أنبتت بشاطئيه أممًا زاهرة، ومدنًا عامرة، وجنات ناضرة، فقابل السماء بأبهى من نجومها، وأنفذ من رجومها، رأت الشمس وجهها فيه فتاة وشمطاء، وشبت النجوم ترى صورتها في الماء، وظهرت المجرة صورة له في السماء. سقى القرون الخوالي ولم ينضب، وكتب عبر الأيّام بمداده فلم ينفَد. تدفق كالقدر من الأزل إلى الأبد، فيَّاضًا هدارًا، معطاء مكثارًا.

هو يابن مصر حياتك وعزك، وقد كتب به مجدك وفخرك.

يا بني مصر الحديثة، لا تكن آثاركم على عِبْرى النيل أردأ خطًّا، ولا أقبح سطرًا،

فإنَّما تلكم الحقب الموروثات، والآثار الخالدات، وديعة الأمم الخالية، وميراث القرون الآتية. فتقدموا للعمل بقلوب ملؤها الإيمان والأمل، ورءوس ملؤها الحكمة والروية، وأيد ملؤها النشاط والقوة، واحذروا غضبِ الله، ولعنة الخلف، وحكم التاريخ.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بين التصوف والغزل

زهرات ذابلات

أحــاذر في نجــواي بــث شــكاتي فـأكتم مـا في القلـب مـن حسرات
ويغلبنـي وجـدي فألقـاك شـاكيًا ولا بــدَّ للــصدور مــن نفثــات
لقـد علمـت أخـت الملائـك أنني مـن الغـم والأحـزان في غمـرات
وأن هواهــا مــستبد بمــسمعي وفي كـــلِّ شيءٍ مـــالئ نظـــراتي
ومــلء فــؤادي والأمــاني كلهــا يــبرح بي في يقظتــي وسُــباتي
أروم اصـطبارا عـن لقـاك فـأنثني إليـك بمـلء القلـب مـن خفقـات
وألـتمس الـسلوى لـديك فـأنثني بـزاد مـن الأشـواق مـستعرات
إذا مـا دجـا بـالغم قلبـي أضـاءه كواكـب مـن ذكـراك والخطـرات
وإن جنحـت للـشر نفـسي هـديتها بـذكراك فارتـدت إلى الحـسنات
وإن أخلـدت يومًا إلى الأرض ردهـا هــواك إلى الأفــلاك في لمحــات
وذكـرك قـد يجلـو عـن القلـب رينـه فيـسطع فيـه النـور حـين صـلاتي

* * *

عـلى أننـي يعتـادني مـن تـذكري لــواعج هــم مــشعل الزفــرات
هي النور وهي النار والسلم والوغى بقلبــي ومنهــا غبطتــي وشــكاتي
وأمني وخوفي وهي أنسي ووحشتي وظلمــة أيــامي وضــوء حيــاتي

فيا قمرًا إن غاب عني نوره ... فقلبي ليل موحش الظلمات
ويا شمس حسن إن تغب فجوانحي ... بها شفق في وقدة الجمرات
ويا فلكا للحسن والحب دائرا ... يبارك ربي هذه الدورات
فلو كان ما بيني وبينك فرقة ... لقطع بحار أو للظى فلاة
ولكنه الدهر المُشِتُّ يقيمنا ... على قربنا، في فرقة وشتات

* * *

تمنيت أنا طائران بدوحة ... تظلل نبعًا ثر في الفلوات
أصوغ لك الأزمان شعرًا وبهجة ... وأسمع منك الخلد في نغمات
ويمسك هذا الدهر عن حركاته ... فلا هو بالماضي ولا هو آت

* * *

أناظمة الأشعار أنت قصيدة ... جلتها يد الخلاق في قسمات
يطالعها قلب من الشعر مجدب ... فينبت فيه الشعر أي نبات
وينشدها من قد في الصخر قلبه ... فيُنبض منه الشعرُ قَلبَ صفاة
أرى وجهك الوضاء شعرًا مصورًا ... تسطره يمناك في كلمات
كأن يراعا في يمينك إبرة[1] ... تردد ما في الوجه من نغمات
يقولون «شعر شاعر» هل عنوا به ... بديعة حسن تنظم الشطرات؟

---

(١) إبرة الحاكية التي تبين عن النقوش التي في الألواح بالكلام.

يحيى بهذا الشعر قلبي فاقبلي — وإن كنت روضًا هذه الزهرات
سقتها دموعي واصطلت حر زفراتي — فلا تعجبي إن لم تكن نضرات

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

يا رب رحماك[1]

سجا الليل، وخفتت الأصوات، وأوت الطير إلى أوكارها، ولجأ كل حي إلى مأواه، وانبعثت بالإنسان أوصابه وهمومه، وأفراحه ومآربه، في شتى المذاهب.

أقلب الطرف بين الأرض والسماء، وأجيل الفكر في الغابر والحاضر، وأبعث إلى نفسي بالسؤل بعد السؤال، فتجيب كل سؤال بمثله، وتشرح كل معضلة بأعضل منها؛ فإذا أنا باك على لناس، راث لهم، وإذا لساني يضطرب بهذه الكلمات:

رحماك يا رب للفقير الكادح، يقض عليه مضجعه ألم يومه، ووساوس غده، وتسلمه هموم النهار إلى المرقد، فإذا هو شقي في مرقده، يثير أشجانه مرأى أطفاله في ألوان من الفاقة؛ يضاحكهم وقلبه باك، ويبش إليهم وفؤاده شاك.

رحماك يا رب للأغنياء البخلاء، بين تخمة أمعائهم، وشره أيديهم وأفواههم، وفظاظة قلوبهم، وغفلة نفوسهم، حين يتقلبون في النعيم مترفين فكهين، ضاحكين مستهزئين، لا يبالون ما على الأرض من بؤس، وما بين الجدران من آلام. رب رحماك لهم، فإنهم وجدوا كل شيء، وفقدوا أنفسهم.

رب والعابد الصاف في جوف الليل، هجر الناس ولجأ إليك، ونفر منهم وأنس بك، أنزل عليه السكينة والطمأنينة، وأضيء له السبيل إلى جانبك المقدس، ومهد له الطريق إلى حرمك الأمين.

---

(١) من قطعة طويلة كتبت في لندرة في ٩ يوليو سنة ١٩٢٥م، وأحسب أن قصيدة فكتور هيجو المسماة الدعاء للكافة (La Priere Pour tous) أوحت بموضوع هذه القطعة.

رب والعاصون الغارقون في آثامهم، الجائرون في ضلالهم، وكل ذي ذنب طبعت به نفسه، ودنس به قلبه، وعمي به بصره، رب هم أحوج الناس إلى رحمتك، وأولاهم بهدايتك. أنقذهم من ورطاتهم، ونقهم من أرجاسهم، هم أطفالك العرمة، وعبادك الغافلون، وعبيدك الآبقون، وأنت أنت ولي إرشادهم، والقادر على إسعادهم.

رب والمرضى تبرح بهم الآلام، وتبريهم الأسقام، أدركهم برحمتك الواسعة، وأغثهم برعايتك، إنك أنت الرحيم.

ثم المحزونون على حبيب مفقود، أو قريب مفتقد، تتقطع قلوبهم زفرات، وتذهب أنفسهم حسرات، بين الماضي وذكرياته الفاجعات، والمستقبل وآماله الضائعات.

وكل ذي غم يضطرب في بحر من الآلام والأحلام، وخيالات من الموت والحياة، تذهب زفراتهم مع الرياح، ودموعهم مع الأنهار، وتدور بهم الهموم، فنومهم سهاد، ويقظتهم رقاد، قد انبهمت عليهم أمورهم بين اليأس والأمل، والظن واليقين، كالغريق يغشاه موج من فوقه موج. رب فاهدهم إلى ساحل النجاة، وأطلع عليهم نجمك الهادي في الظلمات، وأرسل عليهم روحًا من رحمتك، ومد عليهم ظلًا من عنايتك.

رب والشريف الذي تقهقرت به الأيام، وكلب عليه الزمان، تدفعه كلما نسج الحاجة، وتمنعه العزة، وتدعُه الفاقة، وتمسكه الأنفة، فهو غني النفس فقير اليد، على نفسه سترًا من التعفف والتجمل، مزقته يد الزمن العاتية، وكلما تجلد أنحى الدهر على تجلده. يثور في قلبه الذل والكبرياء، والعز والهون، فهو بين طموح نفسه وهُوى

الحادثات به، أشقى الأشقياء، معذب اليأس والرجاء.

رب والراكبون البحر على غوار به الجائشة، وثبجة الهائل، ولجه الذي يلقي كل عين بهولها، وكل نفس بصورة حتفها، فإذا أظلم اليم طغى الماء وصرخت فيهم الريح الهوجاء، ففي رحمتك نور الظلماء، وسكينة الماء، وهدوء العاصفة الهوجاء.

وسالك البيداء ضلت به الطريق، وانبهم عليه المذهب، لا يدري أيقف على قبره، أم يسير إلى قبر أمامه، فإذا الصحراء كلها قبر واسع يهرع، إلى الشراب، من خُدع السراب، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميِّت؛ انصب له في البيداء منارك، وابعث له من هدايتك دليلك.

رب حتى النبت الذابل، والشجر المصوح، والأرض الماحلة، أسبل عليها غيثك، وأنزل إليها الحيا بفضلك.

اللهم قلوب ملؤها الرجاء، ونفس تحن إلى الورد وهي ظماء، وأيد مبسوطة إليك وهي من الثقة ملاء، وأعين ناظرة إليك وأنت لها ضياء؛ فلا تردها خائبة، ولا تزدها حسرة على حسرة. رب كيف يحرم شجرك الذي غرست، وزرعك الذي زرعت، من غيثك المدرار، وشمسك الساطعة، ومن يصد دنس الخلائق أن يرد نهرك فيطهر، ويسبح في حوضك الكوثر.

يا سامع خفقات القلوب الحزينة، وزفرات الصدور الكليمة، وعالم نزعات القلوب الضالة، وجمحات الأهواء المردية، لا تدع قلبًا خائفًا إلا آمنته، ولا صدرًا زافرًا إلا روحت عنه، ولا عقلًا ضالًّا إلَّا هديته، ولا هوى زائغًا إلا رددته حكمة ورشدًا.

اللهم عجز الفكر، وعي اللسان، ووقف القلم، ولا تزال ساحات الرحمة لا يدركها نظر، ولا يحيط بها فكر، ولا يسطرها يراع. وقد فررنا من خوفك إلى رجائك، ومن عذابك إلى رحمتك، ومن جبروتك إلى لطفك، ومن سخطك إلى رضاك، ومن حرمانك إلى نيلك. ومنك إليك... أنت الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنت بكل شيء عليم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ربِّ أعتقني

بين العبد الهرم وربِّه

ربِّ، جلل الشيب رأسي، وقيد الكبر خطوي، وفل الضعف يدي، وحنت السنون متني.

ربِّ، قد حملت الأمانة جُهدي، وأديتها على قدر طاقتي، وقد آنَى لي أن أستريح فأعتقني.

ربِّ، قد زرعت وحصدت، وغرست وجنيت، وعمرت الأرض، ومهدت السُّبل، وقد أنى لي أن أستريح، فأعتقني.

ربِّ، وقد بررت بالفقير، ورحمت الضعيف، وآويت اليتيم، وأصلحت بين المتخاصمين، وألفت بين المتباغضين، ولم آلُ في جمع عبادك على المودة والرحمة؛ أنى لي أن أستريح، فأعتقني.

ربِّ، وقد ربيت الأولاد، والأخوة والأحفاد، ولم آلُ في التأديب والتهذيب، فأعتقني، قد أنى لي أن أستريح.

ربِّ، والحيوان أطعمته ورحمته، والطير في جو السماء غذوته وسقيته وآويته، مما زرعت من الحب، وحفرت من الآبار، وشققت من الأنهار، وغرست من الأشجار. أعتقني، فقد أنى لي أن أستريح.

إلهي حملتُ العبء غير متبرم، وأديت الأمانة غير متتعتع، وقلت الحق غير

متلعثم؛ سلكت سبيلك صابرًا، وأوفيت على الغاية مجاهدًا، ووجهي ويداي ناطقات بما فعلتُ؛ شاهدات بما صنعت. فارحمني، فقد أنى لي أن أستريح وأعتقني. وأعطني براءة عتقي كما يكرم السيد عبده الذي هرم في طاعته، أو كما يسيب الحيوان بعد أن أضناه المسير والحمل.

٢

عرفت ما صنعت، ورضيت ما فعلت، وشكرت ما قدمتَ، وعفوت عما هفوت، وادخرت لك أكثر مما رجوت. ولكني لا أقيلك من تكليفي، ولا أسترد منك أمانتي، ولا أعفيك من عبوديتي.

- ربِّ، لا أستقيل من عبوديتك، ولكن يدي لا تقوى على العمل، ورجلي كلت عن السعي، بل كل لساني وفكري، فكيف أحمل الأمانة، وأؤدي الواجب؟

- أحب أن أرى يديك ترتعدان في العمل لي، ورجليك تدبان في سبيلي، ولسانك وقلبك يخفقان بذكري. لا أكلفك ما لا تطيق، بل أرضى بالقليل وأكثره، وأقبل الصغير وأعظمه، أحب أن أراك عاملًا ما عشت لي، إن في العمل حياتك ورحمتي.

- رب أستغفرك ولا أستقيلك، ولا أبغي عتقًا من عبوديتك؛ سأعمل ما خفق قلبي وتردد نفسي، {إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين}.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الحياة[١]

هذه القصيدة رغم ما تحتويه من معاني رائعة إلا أنها للأسف بادية الصفة فهي على وزن قصيدة أبي العلاء الشهيرة

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي ... نوح باكٍ... ... ...

إلى آخره.

أيهذى الحياة فيك اعتقادي ... أنك الغم صيغ من أضداد
أنفس لا تحد فيها مناها ... طامحات إلى الخلود صوادي
نازعات لدرك كل معمى ... قادحات بفكرها الوقاد
طائرات مع الخيالات في اللمـ ... ـحة تجتاز أبعد الآماد
ركبت من شقائها في كساء ... واهن النسج هذه الأجساد
وأحيطت بكلِّ جسم شباك ... من صروف جلت عن التعداد
فإذا آفة ألمت بجسم ... هدمت عالما فسيح المراد
إن هذه الحياة نهر عجيب ... زاخر اللج دائم الإرعاد
مده في مجاهل الغيب نبع ... جائش الماء فائض الإمداد
فجر الله نبعه في حماه ... من وراء الإسماع والإشهاد
غمر الأرض ماؤه وصداه ... وهو معيي مذاهب الروّاد
فهو آت من منبع الأزل المجـ ... ـهول جار لمظلم الآباد
نحن فيه فواقع تتراءى ... في عراك الأمواج والإزباد

(١) مقدمة قصيدة طويلة في رثاء المرحوم محمد عاطف بركات باشا، كتبت بلندرة سنة ١٩٢٤.

صاح أين المصب في ذلك النهـ ـر وما المنتهى لذا الاطراد؟
حفر في طريقه غائرات في مهاو من الفناء بِعاد
تشرب النهر ذا الغوارب لاترْ وي صواد أوامها في ازدياد
هي بحر الفناء لج صموت يتراءى لنا بموج جماد
ولتلك الأحجار في كل قبر موجه والرشاش في كل وادٍ
ولذاك السكوت صوت رهيب ولذاك السكون جرى النفاد
هكذا هكذا نضوب وفيض بين هذي القبور والميلاد
نحن في دنيانا كركب سفين في ظلام إلى المدى قصاد
يفتح الموج كلَّ هول عليهم والمنايا روائح وغوادي
وتظل الرياح تعصف فيهم عصفات الهلاك دون اتئاد
وسوى ذين كل صخر مخوفٌ متوار عن أعين الرُّصاد
كلما أنجز الهلاك وعيدًا وطوى الماء صفحة من جلاد
جزع الركب للغريب وصاحوا وأشاروا بعاجزات الأيادي
وتنادوا للرزء واحسرتاه! ليس من حيلة سوى ذا التنادي
ثم عادوا إلى المسير وحالت صرخات الجهاد دون افتقاد
هكذا هكذا: مسير وهلك أبد الدهر فوق هذا المهاد
قهرتنا الأهوال واليأس لولا حكمة الله في بلوغ المراد
فقلوب جوامح في مناها تشعل العزم في الخطوب الشداد
إبر المغنطيس[1] إما ضللنا هاديات إلى طريق السداد
ثم صوت يهيب: «للواجب الحتـ ـم هلموا، ولا تنوا في اجتهاد»

---

(١) أعني أن القلوب تشبه إبر المغنطيس في اتجاهها إلى الخير والحق.

• فهـو ريـح تجـري بكـل سـفين ... مـاخرات بالعـبء دون ارنـداد
سـاخرات بهولهـا سـائرات ... حيـث يبغـى المسير رب العبـاد
خيرنـا العامـل المجـد عـلى العـلا ... ت لا يـأتلي لفعـل الرشـاد
ذاك مـن ينـشر الـشراع عـلى الريـ ... ـح ويلقـى الـردى جـريء الفـؤاد
ويظـل المجـداف بـين يديـه ... يقهـر اللـج في رهيـب الجهـاد
خيرنـا ذو الأنـاة والنظـر الثـا ... قـب يمـضي لقومـه خـير هـاد
خيرنـا خيرنـا لإخوانـه الـسفـ ... ـر ببحـر الحيـاة، ذو الإنجـاد

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

يا ليل

يبتلع الظلام أشعة الشمس المرسلة من وراء الأفق كأنفاس المحتضر، ويغطي الرماد جمرة الشفق، فلا يبقى ولا يذر، ثم أطبق الظلام، ومحت آية الليل آية النهار، والأرض هاجعة تشكو اللغوب، وتعد على الناس الذنوب، والسماء من عليائها ناظرة، كأنما النجوم عيونها الحائرة.

يا ليل، قد استتر الناس وتقطعت قيود العادات، فظهرت كل نفس على حقيقتها، وأعلنت بما في ضميرها، وظهرت الإنسانيَّة بخيرها وشرها.

فكم في طيات الظلام لصوص مسخت ذئابًا، واتخذت من السلاح مخالب وأنيابًا، تروع الآمن في سربه، لتحول بين الكاسب وكسبه. كل دم دون مآربهم مطلول، وكل جريمة في سبيلهم هينة. وكم يا ليل من مضطغن يضطرم الحقد في قلبه، ويئز كالمرجل صدره، يخرج به الانتقام، في أحشاء الظلام! وكم يا ليل من فاسق دلف إلى مأربه، وأكب على شهوته. وكم أيها الليل وكم! قد انتشر جندك الشرير كما ينساب في الغاب وحشه وحشراته.

وكما عابد صف في محرابه، لعينه سكي، ولقلبه وجيب، وصل قلبه بربه، وعقد لسانه بذكره. قد أنار له الظلام الطريق إلى مولاه، بعد أن هدأت عنه ضوضاء الحياة، وأسمعه السكون صوت الحق، بعد أن فرغ من ضوضاء الخلق، وأوت إليه نفسه في أعماق الظلماء، فإذا جسم في الأرض وقلب في السماء، وإذا هو وربه، ثم العالم هباء.

يا ليل والمضطجعون في مراقدهم طار بهم الخيال، وسرت بهم الأماني والآمال، فمنهم المتمني خيرًا، ومنهم المتمني شرًّا، وذو الفكرة الشريفة، وذو الرغبة الخسيسة.

يا ليل، حتى النائمون يغمضون أجفانهم عن عالم العمل، ليفتحوها في عالم الأمل، انبعثت بهم الأحلام الهائمة، والأفكار النائمة، فشهدوا الشقاء والنعيم، والفقر والغنى، والنجاح والخيبة؛ ورب حلم أصدق من العيان، ونوم أقرب إلى حقيقة الإنسان.

يا ليل، أنت الإنسانيَّة خيرها وشرّها، وحلوها ومرّها وأمانيها وآمالها، وحقائقها وخيالها.

أنت يا ليل الإنسانيَّة المجرَّدة، يكسوها النهار ثوبًا من الرياء، وأنت الحقيقة الرائعة، يزيفها في النهار الضياء.

يا ليل أنت الحقيقة المظلمة، وما النهار إلا كذب مضيء.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حلم في يقظة (١)

ضـل يـومي في ظـلال الـشجر — بـين أزهـار الربيـع الممـرع
وعـلى الأمـواه ضـلت فكـري — نظـرة حـيرى وقلـب لا يعـي
جـالس والفكـر نـاب طـائر — يتنـزى بـين أرض وسـماء
فـإذا سرت فـإني حـائر — تـذهب الـسبل بـه حيـث تـشاء
وإذا بي في وقـوف نـاظر — نظـرات سـابحات في الهـواء
ويمـر النـاس مـرأى بـصري — أتخطـاهم بلحـظ مـسرع
ويـصيحون وهمـس الفكـر — قـد نفى ضوضاءهم عن مسمعي
كنـت يـومي عالمـا لا يفهـم — ثـائر الـنفس قريـر المنظـر
وكـأن القلـب بحـر خـضرم — ماجـه الهـم بـريح صرصر
زاخـر اللـج عبـوس مظلـم — حطمـت فيـه سـفين الفكـر
يـا لـه قلبـا عظـيم الخطـر — مـبهم القـصد غريـب المطمـع
ثـائر الهـم بعيـد الـوطر — كـل شيء همـه لم يـسع
أقبـل الليـل وأدجـى أفقـه — ويـدب الـشر مـن أوكـاره
وطغـى اللهـو وراجـت سـوقه — وسـعى كـل إلى أوطـاره
غـير محـزون تمـادي شـوقه — أطبـق القلـب عـلى أسراره
ونحـا الـدار جـم العـبر — سـاهم الوجـه ملء الأضـلع
خـافق القلـب حسير البـصر — بـاكي الـنفس فقيـد الأدمـع

---

(١) لندرة الأحد ٣ ذي الحجة سنة ١٣٤٢هـ/ ٦ يوليه سنة ١٩٢٤.

شرع الهم بقلبي يسكن خففت من حره زفراته
ويح قلبي! ما أراه يأمن هبت الريح طغت لجاته
ملك منه أثير الشجن أذكت النار به نظراته
لم يا وجه الرجاء المسفر لم يا ذات الجمال الأروع
لم يا ذات المحيا الخفر تستخفين بقلب موجع
أنت سلم ثارت الحرب به ونسيم فيه للنار ضرم
أنت ورد ناضر في قربه وخزة الشوك وتبريح الألم
أنت نور ساطع من غيبه ماج بالقلب سناه والتطم
لست بدعًا فطلوع القمر يكرب البحر بمد منزع
لست بدعًا فنضير الشجر تقدح النار به للمزمع
حينما مال طريقي للفراق ونزعت النفس كي أنجو بها
لم شيعت بألحاظ رقاق زادت النفس على أوصابها
أجفلت نفسي وجدت في الإباق وسهام اللحظ في أقرابها
ثم كرت مثل لمح البصر ترتمي من فزع في فزع
واقتفت منك فقيد الأثر ويحها عادت بشر المرجع
خلتها طائر نوح بشرت بنجاة بين طوفان الغير
خلتها شمس صباح سطعت بسناها في سحاب مكفهر
فإذا شمس غروب خلفت شفقًا في القلب منها يستعر
كل حين أرتجي أن تسفري وأولي الوجه شطر المطلع
هي تعليل حياة البشر ويقيني فيك أن لن تطلعي
أنت برق في ظلام دامس أشرق الجو به ثم خبا

أنت حلم راق نوم البائس ... أنت نجم قد بدا لي غاربًا
بسمة في فم دهر عابس ... سمح الدهر بها ثم أبى
لك يا بلبل مهما تطر ... أمن مسراك وعذب المشرع
لك حفظ الله مر الأدهر ... ولي الذكرى وسح الأدمع

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس

مقدمة ٣
مناجاة.. ٥
إلى الرسول الكريم في عيد مولده ٨
أربع صفحات متتابعات ١٣
في سيرة رسول الله ١٣
الهجرة مولد تاريخ ١٩
رسول الله في عرفات ٢٤
في مجلس رسول الله ٢٩
ثقة الحُرِّ بالحُرِّ ٢٩
على ذكرى المولد النبوي ٣٢
ذكرى الهجرة ٣٥
الإسلام ٣٩
لا غالب إلا الله..! ٤٤
بلال يؤذِّن ٤٨
الكعبة ٥٣
الحجُّ ٥٦
يوم عرفات ٦٠
من مؤتة إلى اليرموك ٦٣
أيام العروبة تبدأ في سورية..! ٦٧
مكانة العرب بين الأمم ٧٢
وديعة مدينة سالم ٨٠
لا تحزنن...! ٨٥
في معترك الخطوب ٨٦
التأليف والنشر في مصر ٩٠
زواج أمير عربي من أميرة هنديَّة ٩٤

على حافة الفجر ١٠٠
وشاطئ النيل ١٠٠
وديعة ميافارقين ١٠٥
على قبر الزهاوي ١٠٩
أوراق ١١١
عبرة الحادثات ١١٦
لمعات ١٢٠
إلى الفيلسوف الشاعر محمد إقبال ١٢٠
جوابًا لكتابيه: «أسرار خودى» و«رموزبى خودى» ١٢٠
السوقيَّة في الأدب ١٣٠
المنصور بن أبي عامر ١٣٥
محيي الدين النووي والسلطان بيبرس ١٤١
الفريقان المتحاربان في فلسطين ١٤٤
الحق والباطل ١٤٤
الكرم واللؤم ١٤٧
ضربات معول ١٥٠
عمر المختار وأصحابه ١٥٧
على بحيرة وندرمير ١٦٢
الشاعر المتفائل المتشائم ١٦٤
إلى بثينة ١٦٤
عمر في بيت المقدس ١٦٧
وِردُ الصباح ١٧٢
إبرة المغناطيس ١٧٥
بني قومنا ١٧٨
موقعة عين جالوت ١٨٢
ثورة على الأخلاق ١٨٧
معدة قرقرت ثم استقرت ١٩٢
بسورية ١٩٧

مصطفى الصادق الرافعي ٢٠١
شباب أم أماني؟ ٢٠٤
أروع الأشياء ٢٠٤
مصر والبلاد العربيَّة ٢٠٦
من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ٢١٠
عُقْبة على شاطئ المحيط ٢١٣
وحي القلم ٢١٨
المُثَنَّى بن حارثة ٢٢٤
على ذكر «نادي المثنى» ببغداد ٢٢٤
ملكة الجمال ٢٢٨
المعتصم بن صُمادح ٢٣٣
على فراش الموت ٢٣٣
عثمان بن أبي العلاء الرجل الذي غزا الأسبان اثنتين وثلاثين وسبعمائة غزوة ٢٣٦
مدنيَّة زائفة ٢٣٩
الشعر والشاعر ٢٤١
لم لا تقول الشعر؟ ٢٤٥
أوراق ماليَّة ٢٤٨
في القرن السابع الهجري ٢٤٨
قبر مفقود ٢٥١
جلال الدين منكبرتي ٢٥٥
إسكندر يقتل صديقه ٢٦٠
الغريق ٢٦٦
مدرسة الصحراء ٢٦٨
على شاطئ النيل ٢٧٠
ملك وفيلسوف ٢٧٣
النهضة ٢٧٥
الإخوان ٢٨٠
سعيد بن جبير ٢٨١

رفائيل ٢٨٣
الربيع ٢٨٦
رثاء ضرس ٢٨٩
الوطن ٢٩٠
بين التصوف والغزل ٢٩٤
زهرات ذابلات ٢٩٤
يا ربّ رحماك ٢٩٧
ربِّ أعتقني ٣٠١
بين العبد الهرم وربِّه ٣٠١
الحياة ٣٠٣
يا ليل ٣٠٦
حلم في يقظة ٣٠٨

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

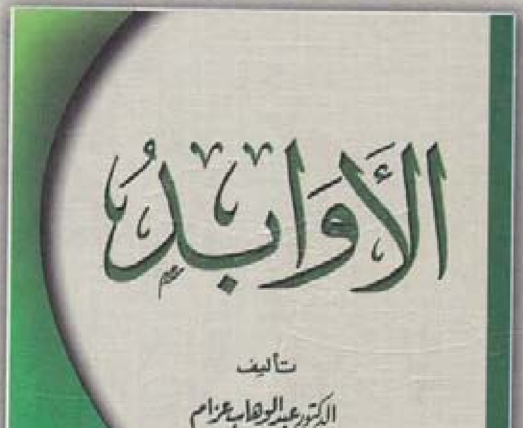

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة
ت: ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٢٨٤١١
فاكس ٢٥٩٣٦٢٧٧ ص.ب: ٢١ توزيع الظاهر
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com